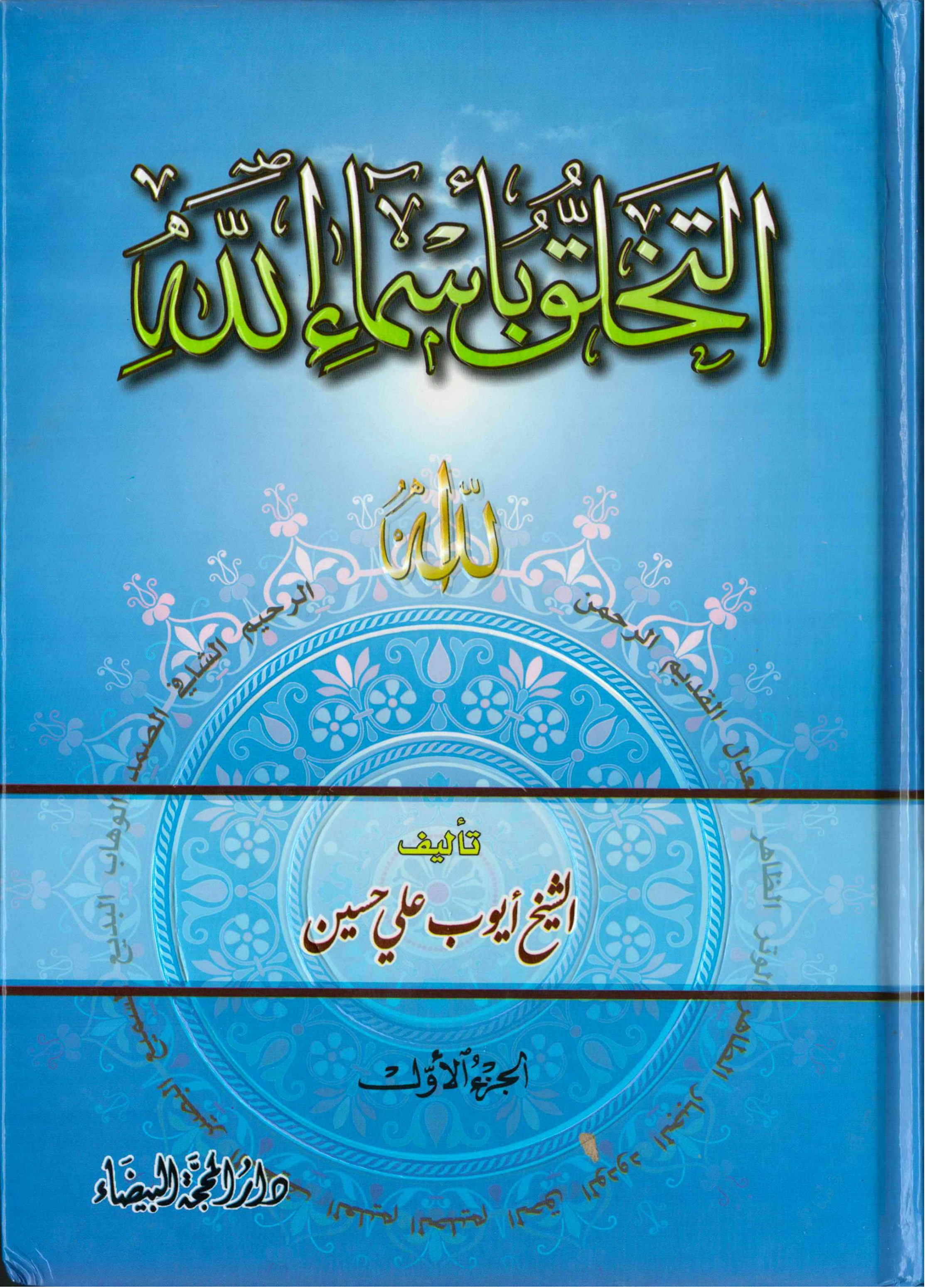


التخلق بأسماء الله
الله
الرحيم
الرحمن
تأليف
الشيخ أيوب علي حسين
الجزء الأول
دار المحجة البيضاء



التَّخَلُّقُ بِأَسْمَاءِ اللّٰه


بسم الله الرحمن الرحيم

التخلق بأسماء الله

الجزء الأول

تأليف

أيوب علي حسين

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين.

إنَّ شرافة كلّ علمٍ من العلوم رهنية شرافة موضوعه، وحيث إن الباري جلّ وعلا أشرف الموجودات، بل كلّ ما في عالم الوجود هو مظهرٌ من مظاهر قدرته، وتجلٍّ من تجلّياته تبارك وتعالى، ومعلولٍ في وجوده واستمراره له جلّ وعلا، لذا كان البحث والحديث حول الباري جلّ وعلا في أسمائه وصفاته العليا من أشرف العلوم وأرفعها؛ نظراً لشرافة ذاته تعالى.

ومنذ زمنٍ غير قريبٍ، - وأنا في العقد الثاني من عمري - وقع بين يديَّ كتابٌ قيِّمٌ للمحدِّث الكبير، والفيلسوف الشهير، الشيخ الفيض الكاشانيّ رحمه الله، وقد شدَّني هذا الكتاب القيِّم في كثيرٍ من أبحاثه وأبوابه، لا سيّما شرح أسماء الله الحسنى وما ذكره من بيان حظّ العبد من هذه الأسماء الحسنى.

فكم كنتُ أتمنى أنْ تتحوّل هذه الأسطر القلائل - الّتي لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة - إلى صفحاتٍ، أو كتابٍ كي أبحر معه في هذا البحر اللامتناهي،

وأعرف المزيد من صفات الجمال والكمال لهذا الخالق العظيم، إذ كلّما قرأتُ هذه الأسطر وجدتُ عطشاً معرفيَّاً قد علاني، وشوقاً ولهفةً يهزّان كياني، ويطلبان المزيد والمزيد في وجداني، إلا أنّ الواقع لا يزيد عن سطرين أو ثلاثة.

وبعد عدَّة سنواتٍ أكرمني الله تعالى، ووفَّقني لطلب العلم، ثم سنحت لي الفرصة في الكتابة، فجعلتُ هذه الأسطر القلائل نصب عينيّ، وسعيت بكلٍّ ما أوتيت من قوّةٍ برفع جزءٍ يسيرٍ من ذلك العطش الّذي لازمني سنيناً طوالاً، فكان نتاج ذلك هو هذا الكتاب الّذي بين يديك، وهو ناظرٌ إلى ذلك الكتاب القيِّم، وإلى تلك الأسطر المعدودات.

ويمكن تلخيص هذا الكتاب في محاور ثلاثةٍ ومقدّمةٍ:

الأوّل: في شرح أحد الأسماء الحسنى، وكان الاكتفاء بنقل أقوال أساطين العلماء في هذا المجال دون تعليقٍ منّي، إلا ما ندر، ورأيتها ضروريّةً.

الثاني: تجلّيات الاسم الشريف، وقد سعيتُ من خلاله بيان جانبٍ يسيرٍ جداً من مظاهر ومعالم هذا الاسم في عالم الإمكان والوجود.

الثالث: حظٌّ العبد من الاسم الشريف، وقد بيَّنتُ فيه بعض أنحاء تخلُّق الإنسان المؤمن بهذا الاسم الشريف، من خلال إيقافه على بعض تلك الموارد؛ ليكون ذلك نقطة انطلاقٍ له إلى التخلُّق بأسماء الله تعالى.

وقد سبقت هذه المحاور الثلاثة أبحاثٌ مختصرةٌ وجدتُها مفيدةً، ومحرِّكةً لطالبي الوصال والقرب الإلهيّ.

وأخيراً، لا يسعني إلا أنْ أشكر كلّ مَن ساهم معي في إخراج هذا الكتاب، لا

سيّما سماحة السيد علوي البلاديّ البحرانيّ، وأخي سماحة الشيخ فاضل الدهنيم، وأخي ورفيق دربي سماحة الشيخ عبدالجليل جعفر الحوريّ؛ لما بذلوه من جهدٍ وإسداء ملاحظاتٍ قيّمةٍ حول الكتاب.

وأخصُّ بالشكر سماحة الأستاذ العلاّمة، الشيخ محمّد صنقور؛ حيث كان الحافز الأساس وراء كتابة ما قصدتُ كتابته من سنين.

والحمد لله ربِّ العالمين.

أيّوب علي حسين

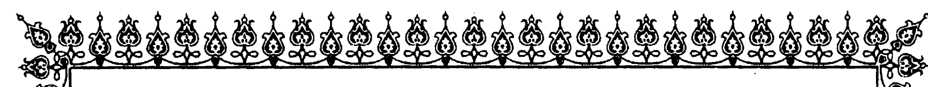
غرَّة ربيع الثاني ١٤٢٩هـ

البحرين

إهداءٌ

❖ إليك أيّها العنوان الأكمل لتجلّي مظاهر الجلال والكمال الإلهيّ في عالم الوجود...

❖ إليك يا مَن علّمتنا بمواقفك العظيمة يوم عاشوراء السبيل إلى الفناء في ذات الله، فانجذبتْ قلوب محبّيك بأخلاقك العليا، فصاروا بذلك حسينيِّي الهوى، وإلهيِّي الخُلُق.



الموضوع الأوّل:

أيُّهَا الإنسَان

١- القرآن الكريم.

٢- الروايات الشريفة.

٣- عجائب الجنين.

٤- عجائب المولود.

٥- عجائب الأعضاء.

أيُّها الإنسَان

ما هو شعورك لو انكشف لك أنَّ هناك مَنْ ينتظرك بفارغ الصبر منذ زمنٍ طويلٍ لعهدٍ كان بينكما، نسيتَه ولم ينسَك، فظلّ ينتظرك حيناً بعد حين، ويوماً بعد يومٍ، يترقّب ذلك اليوم الّذي تتذكّر فيه ميعادك، وعهدك الّذي عاهدتَه به، وتعود إليه فيأنس بلقائك، وتأنس بلقائه؟

وكيف هو إحساسك حين ينكشف لك بأنّه صاحب الفضل العظيم عليك في كلّ ما وصلتَ إليه من كمالاتٍ جسديّةٍ، وفكريّةٍ، وروحيّةٍ، حيث كان يقف وراء تربيتك وإعانتك في جميع أمورك الشخصيّة، والاجتماعيّة، الضروريّة منها وغير الضروريّة، وكان يساعد أبويك ويحثّهما على الاهتمام بك غاية الاهتمام، ويعينهما في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أجل أن تصل إلى غايتك وكمالك المنشودَين، وقد فتح لك باب الطلب والسؤال متى شئتَ، وأنّى شئتَ؛ ليقضي حوائجك الّتي تصبّ في صالحك، ومع ذلك كلّه، كنتَ غافلاً عنه وغير ملتفتٍ إليه، ومعرضاً عنه في أكثر أوقاتك وساعاتك، فلم يمنعه ذلك من إسداء الخير إليك؛ لأنّه جوادٌ كريمٌ؟

أليس انكشاف هذا الأمر موجباً لخجلك، وتأسُّفك وتألّمك لغفلتك، وإعراضك عنه؟!

وما هو شعورك لو انكشف لك أنَّ هذا المنتظِر، والمشتاق هو الله جَلَّ وَعَلَا خالق الخلق، الرحمن الرحيم، اللطيف الودود، الّذي خلق الأرض وما فيها من أجلك أنت دون غيرك من المخلوقات، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

نعم، إنّ كلّ ما تراه وما لا تراه عيناك هو من أجلي ومن أجلك، وما هذا الخلق العظيم المتنوّع إلا تجليات حبّه لنا، وشدّة اهتمامه بنا، ففي الحديث القدسي الشريف: «**عبدي، خلقتُ الأشياء لأجلك، وخلقتُك لأجلي، وهبتُك الدنيا بالإحسان، والآخرة بالإيمان**»[2].

أليس هذا الاهتمام الإلهيّ البالغ بنا يجعلنا نصرخ بأعلى أصواتنا؛ معتذرين نادمين لهذا الجفاء، صارخين: إلهي العفو؟!

ونقول بلسان الحال والمقال:

إلهي «تتحبّبُ إلينا بالنعم، ونعارضك بالذنوب، خيرك إلينا نازل، وشرّنا إليك صاعد، ولم يزل ولا يزال مَلَكٌ كريمٌ يأتيك عنّا بعملٍ قبيحٍ فلا يمنعك ذلك أنْ تحوطنا بنعمك، وتتفضل علينا بآلائك، فسبحانك ما أحلمك، وأعظمك، وأكرمك مبدئاً ومعيداً»[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٩.

(٢) الجواهر السنية – الشيخ الحرّ العامليّ، ص ٣٦١.

(٣) مصباح المتهجّد – الشيخ الطوسيّ، ص ٥٨٦– ٥٨٧، دعاء أبي حمزة الثماليّ.

ولكي يتجلّى لك مدى اهتمام الله جلّ وعلا بنا، وحبّه لنا، نشير إلى بعض ما ورد في القرآن الكريم، والسنّة الشريفة، ممّا أسدى إلينا مِن النعم والخيرات، عسى أنْ نستيقظ مِن هذا السُبات، ونستحي من هذا الجفاء والإهمال.

القرآن الكريم:

صرّح القرآن الكريم في آياتٍ كثيرةٍ -وبألسن متعدّدةٍ- بأنّ الهدف مِن خلق كلّ ما في عالم الإمكان، من السماوات وما فيها من النجوم، والكواكب، والسحاب، ومن الأرض وما فيها من البحار، والرمال، والخيرات هو الإنسان، وأنّ كلّ تلك المخلوقات مسخّرةٌ لخدمته وراحته، وفي هذا دليلٌ واضحٌ على مدى حبّه لهذا المخلوق، وعظمة مقامه، ومنزلته عند ربّه، ربّ العزّة والجلال، ونحن نذكر بعض تلك الآيات؛ ليتجلّى بوضوحٍ مقامك ومكانتك عند الباري جلّ وعلا:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٢- ٣٤.

الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾(٢).

وقال جلَّ وعلا: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٢– ١٥.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٧٨– ٨٢.

وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١).

يا خليفةَ الله، هل تعلم أنَّ منشأ سرد هذه النعم الإلهيّة في القرآن الكريم هو لإرشادك إلى خالقك وبارئك؛ ولتسلك طريق الكمال والتعالي؛ وتجتنب طريق الانحطاط والمعاصي؟!

وهل تعلم أنَّ هدف بعث الأنبياء والرسل هو إيجاد العلاقة والصلة بينك وبين خالقك؟! وإيصال المحبّ إلى محبوبه الحقيقيّ الّذي ضللتَ عنه سنين، وهو بانتظار عودتك؟!

وأنَّ هذا- وهو إيجاد علاقة بينك وبين خالقك - يترتّب عليه أفضل جزاءٍ للأنبياء عليهم السلام، وهو خيرٌ لهم من عبادة مائة سنة، بصيام نهارها وقيام ليلها؟!

ففي الخبر أنّه أوحى الله جلّ وعلا إلى موسى عليه السلام:

«حبِّبني إلى خلقي، وحبِّب خلقي إليّ.

قال: يا ربّ، كيف أفعل؟

قال: ذكّرهم آلائي ونعمائي ليحبُّوني، فلئن تردَّ آبقاً عن بابي، أو ضالاً عن فنائي، أفضل لك من عبادة مائة سنة، بصيام نهارها وقيام ليلها.

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٠- ٢٨.

قال موسى عليه السلام: ومَن هذا العبد الآبق منك؟

قال: العاصي المتمرِّد.

قال: فمَن الضالّ عن فنائك؟

قال: الجاهل بإمام زمانه تُعرِّفه، والغائب عنه بعد ما عرفه، الجاهل بشريعة دينه، تعرِّفه شريعته، وما يعبد به ربَّه، ويتوصل به إلى مرضاته»[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ لداود عليه السلام:

«أحببني، وحبّبني إلى خلقي.

قال: يا ربّ، نعم، أنا أُحبُّك، فكيف أُحبِّبُك إلى خلقك؟

قال: اذكر أياديَّ عندهم، فإنّك إذا ذكرت لهم ذلك أحبُّوني»[2].

وفي روايةٍ أخرى عن أبي جعفر عليه السلام قال: **« أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أحببني وحبّبني إلى خلقي.**

قال موسى عليه السلام: يا ربّ، إنّك لتعلم أنّه ليس أحدٌ أحبّ إليّ منك، فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: فذكّرهم نعمتي وآلائي؛ فإنّهم لا يذكرون منّي إلا خيراً»[3].

---

(١) مستدرك الوسائل – الميرزا النوريّ ج ١٧، ص٣١٩، ح ٢٥.

(٢) بحار الأنوار – العلاّمة المجلسيّ ج ٦٧، ص ٢١.

(٣) المصدر السابق.

الروايات الشريفة:

إنَّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام امتثلوا الأمر الإلهيّ بإظهار النعم الإلهيّة إلى العباد، وأشاروا وأرشدوا إلى الأسرار الكامنة في خلق الإنسان، وكذا في عالم الإمكان، وما فيه من إتقانٍ وإحكامٍ؛ لعلَّ هذا الإنسان يتأثّر أو يخجل من مولاه، ممّا يرى من سوابغ نعم الله عزّ وجلّ عليه، فينفض عن نفسه غبار الكسل والخمول، ويسعى جاهداً في كسب مرضاة الله تبارك وتعالى، فينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة، ويحظى بالقرب والأنس الإلهيّ، الّذي هو غاية آمال العارفين.

ومن هنا نجد أنَّ الروايات أشارتْ إلى جوانب عدّةٍ من عجائب خلق الأفلاك والإنسان، لذلك الهدف، وسنذكر هنا بعض مقتطفاتٍ من رواية المفضّل بن عمر، عن الإمام الصادق عليه السلام، الدالّة على عظمة خلق هذا الإنسان الملكوتيّ:

عجائب الجنين:

«نبتدئ يا مفضّل بذكر خلق الإنسان، فاعتبر به، فأوّل ذلك ما يدبّر به الجنين في الرحم، وهو محجوبٌ في ظلماتٍ ثلاثٍ: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاءٍ، ولا دفع أذىً، ولا استجلاب منفعةٍ، ولا دفع مضرّةٍ، فإنّه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات، فلا يزال ذلك غذاؤه، حتّى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه،

وقوي أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقات الضياء، هاج الطلق بأُمه، فأزعجه أشدّ إزعاجٍ، وأعنفه حتّى يولد...

اعتبر يا مفضّل فيما يدبّر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى يمكن أن يكون بالإهمال؟! أفرأيت لو لم يجرِ إليه ذلك الدم وهو في الرحم، ألم يكن سيذوي ويجفّ كما يجفّ النبات إذا فقد الماء؟! ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقى في الرحم كالموؤود في الأرض؟!»[1].

عجائب المولود:

« وإذا وُلِدَ صُرف ذلك الدم الّذي كان يغذوه من دم أُمِّه إلى ثدييها، فانقلب الطعم واللون إلى ضربٍ آخر من الغذاء، وهو أشدّ موافقةً للمولود من الدم، فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمظ وحرك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثديي أمّه كالأداوتين المعلّقتين لحاجته إليه، فلا يزال يغتذي باللبن ما دام رطب البدن، رقيق الأمعاء، ليّن الأعضاء، حتّى إذا تحرّك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتدّ ويقوّي بدنه، طلعتْ له الطواحن من الأسنان والأضراس؛ ليمضغ به الطعام فيلين عليه؛ ويسهل له إساغته فلا يزال كذلك حتّى يدرك...

ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً؟! أو يغتذي بغذاء لا

---

(١) بحار الأنوار – العلاّمة المجلسيّ ج ٣، ص ٦٢– ٦٣.

يلائمه ولا يصلح عليه بدنه؟! ولو لم تطلع عليه الأسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام وإساغته؟! أو يقيمه على الرضاع فلا يشدّ بدنه ولا يصلح لعملٍ؟! ثمّ كان تشتغل أُمّه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد، ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته، ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء فلا ترى له جلالةً ولا وقاراً؟!

ولو كان المولود يولد فهماً عاقلاً، لأنكر العالم عند ولادته، ولبقي حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم يرَ مثله، من اختلاف صور العالم من البهائم والطير، إلى غير ذلك مما يشاهده، ساعةً بعد ساعةٍ، ويوماً بعد يومٍ، واعتبر ذلك بأنَّ من سبي من بلدٍ إلى بلدٍ وهو عاقلٌ يكون كالواله الحيران، فلا يسرع في تعلم الكلام، وقبول الأدب، كما يسرع الّذي يسبى صغيراً غير عاقلٍ، ثم لو وُلد عاقلاً، كان يجد غضاضةً إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً، معصّباً بالخرق، مسجّىً في المهد؛ لأنَّه لا يستغني عن هذا كلّه؛ لرقّة بدنه؛ ورطوبته حين يولد، ثمّ كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل، فصار يخرج إلى الدنيا غبيّاً غافلاً عمّا فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهنٍ ضعيفٍ، ومعرفةٍ ناقصةٍ، ثمّ لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً، وشيئاً بعد شيءٍ، وحالاً بعد حالٍ، حتّى يألف الأشياء، ويتمرّن ويستمرّ عليها، فيخرج من حدِّ التأمّل لها، والحيرة فيها، إلى التصرّف والاضطراب إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الاعتبار، والطاعة، والسهو، والغفلة، والمعصية، وفي هذا أيضاً وجوه أخر، فإنَّه لو كان يولد تامّ العقل، مستقلاً بنفسه، لذهب موضع

حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أنْ يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة، وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكلفات بالبر والعطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم، ثمّ كان الأولاد لا يألفون آباءهم، ولا يألف الآباء أبناءهم؛ لأنَّ الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم، فيتفرقون عنهم حين يولدون، فلا يعرف الرجل أباه وأمّه، ولا يمتنع من نكاح أمّه، وأخته، وذوات المحارم منه إذا كان لا يعرفهنّ، وأقلُّ ما في ذلك من القباحة - بل هو أشنع وأعظم وأفظع وأقبح وأبشع - لو خرج المولود من بطن أمّه وهو يعقِل أن يرى منها ما لا يحلّ له، ولا يحسن به أنْ يراه.

أفلا ترى كيف أُقيم كلّ شيءٍ من الخلقة على غاية الصواب، وخلا من الخطأ دقيقه وجليله؟!»[1].

عجائب الأعضاء:

«فكِّر يا مفضّل في أعضاء البدن أجمع، وتدبير كلٍّ منها لمآرب، فاليدان للعلاج، والرجلان للسعي، والعينان للاهتداء، والفم للاغتذاء، والمعدة للهضم، والكبد للتخليص، والمنافذ لتنفيذ الفضول، والأوعية لحملها، والفرج لإقامة النسل، وكذلك جميع الأعضاء، إذا تأمّلتها، وأعملت فكرك فيها ونظرك، وجدت كلّ شيءٍ منها قد قدّر لشيءٍ على صوابٍ وحكمةٍ...

---

(١) بحار الأنوار - العلاّمة المجلسيّ ج ٣، ص ٦٣- ٦٤.

يا مفضّل، انظر إلى ما خُصَّ به الإنسان في خلقه تشريفاً وتفضيلاً على البهائم، فإنّه خلق ينتصب قائماً، ويستوي جالساً؛ ليستقبل الأشياء بيديه وجوارحه؛ ويمكنه العلاج والعمل بهما، فلو كان مكبوباً على وجهه كذات الأربع لما استطاع أن يعمل شيئاً من الأعمال.

انظر الآنَ يا مفضّل إلى هذه الحواسّ الّتي خصَّ بها الإنسان في خلقه، وشرّف بها على غيره، كيف جعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة؛ ليتمكن من مطالعة الأشياء، ولم تجعل في الأعضاء الّتي تحتهنّ كاليدين والرجلين فتعرضها الآفات، وتصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعلّلها، ويؤثّر فيها، وينقص منها، ولا في الأعضاء الّتي وسط البدن، كالبطن، والظهر، فيعسر تقلّبها، وإطلاعها نحو الأشياء، فلمّا لم يكن لها في شيءٍ من هذه الأعضاء موضعٌ كان الرأس أسنى المواضع للحواسّ، وهو بمنزلة الصومعة لها، فجعل الحواسّ خمساً تلقي خمساً؛ لكي لا يفوتها شيءٌ من المحسوسات، فخلق البصر؛ ليدرك الألوان، فلو كانت الألوان ولم يكن بصرٌ يدركها لم يكن منفعةٌ فيها، وخلق السمع؛ ليدرك الأصوات، فلو كانت الأصوات ولم يكن سمعٌ يدركها لم يكن فيها إربٌ، وكذلك سائر الحواسّ، ثم هذا يرجع متكافئاً، فلو كان بصرٌ ولم يكن ألوانٌ لما كان للبصر معنىً، ولو كان سمعٌ ولم يكن أصواتٌ لم يكن للسمع موضعٌ، فانظر كيف قدر بعضها يلقي بعضاً، فجعل لكلّ حاسّةٍ محسوساً يعمل فيه، ولكلّ محسوسٍ حاسّةً تدركه، ومع هذا فقد جعلت أشياء متوسطةً بين الحواسّ والمحسوسات، لا يتمّ الحواسّ إلا بها، كمثل الضياء والهواء، فإنّه لو

لم يكن ضياءٌ يظهر اللون للبصر لم يكن البصر يدرك اللون، ولو لم يكن هواءٌ يؤدّي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت، فهل يخفى على من صحّ نظره، وأعمل فكره، أنَّ مثل هذا الّذي وصفت من تهيئة الحواسّ والمحسوسات بعضها يلقي بعضاً، وتهيئة أشياء أُخر بها تتمّ الحواسّ لا يكون إلا بعمدٍ وتقديرٍ من لطيفٍ خبيرٍ؟!

فكِّر يا مفضَّل فيمَن عدم البصر مِن الناس، وما يناله من الخلل في أموره، فإنَّه لا يعرف موضع قدمه، ولا يبصر ما بين يديه، فلا يفرِّق بين الألوان، وبين المنظر الحسن والقبيح، ولا يرى حفرةً إنْ هجم عليها، ولا عدوّاً إنْ أهوى إليه بسيفٍ، ولا يكون له سبيلٌ إلى أنْ يعمل شيئاً من هذه الصناعات، مثل الكتابة، والتجارة، والصياغة، حتى أنّه لو لا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى، وكذلك من عدم السمع يختلّ في أمورٍ كثيرةٍ؛ فإنَّه يفقد روح المخاطبة والمحاورة، ويعدم لذَّة الأصوات واللحون بالشجيّة المطربة، ويعظم المؤونة على الناس في محاورته، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم، حتّى يكون كالغائب وهو شاهدٌ، أو كالميّت وهو حيٌّ. فأمّا من عدم العقل فإنَّه يلحق بمنزلة البهائم، بل يجهل كثيراً مما يهتدي إليه البهائم، أفلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل وسائر الخلال الّتي بها صلاح الإنسان، والّتي لو فقد منها شيئاً لعظم ما يناله في ذلك من الخلل، يوافي خلقة على التمام، حتى لا يفقد شيئاً منها، فلمَ كان كذلك إلا لأنَّه خلق بعلم وتقدير؟!

قال المفضّل: فقلتُ: فلمَ صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح

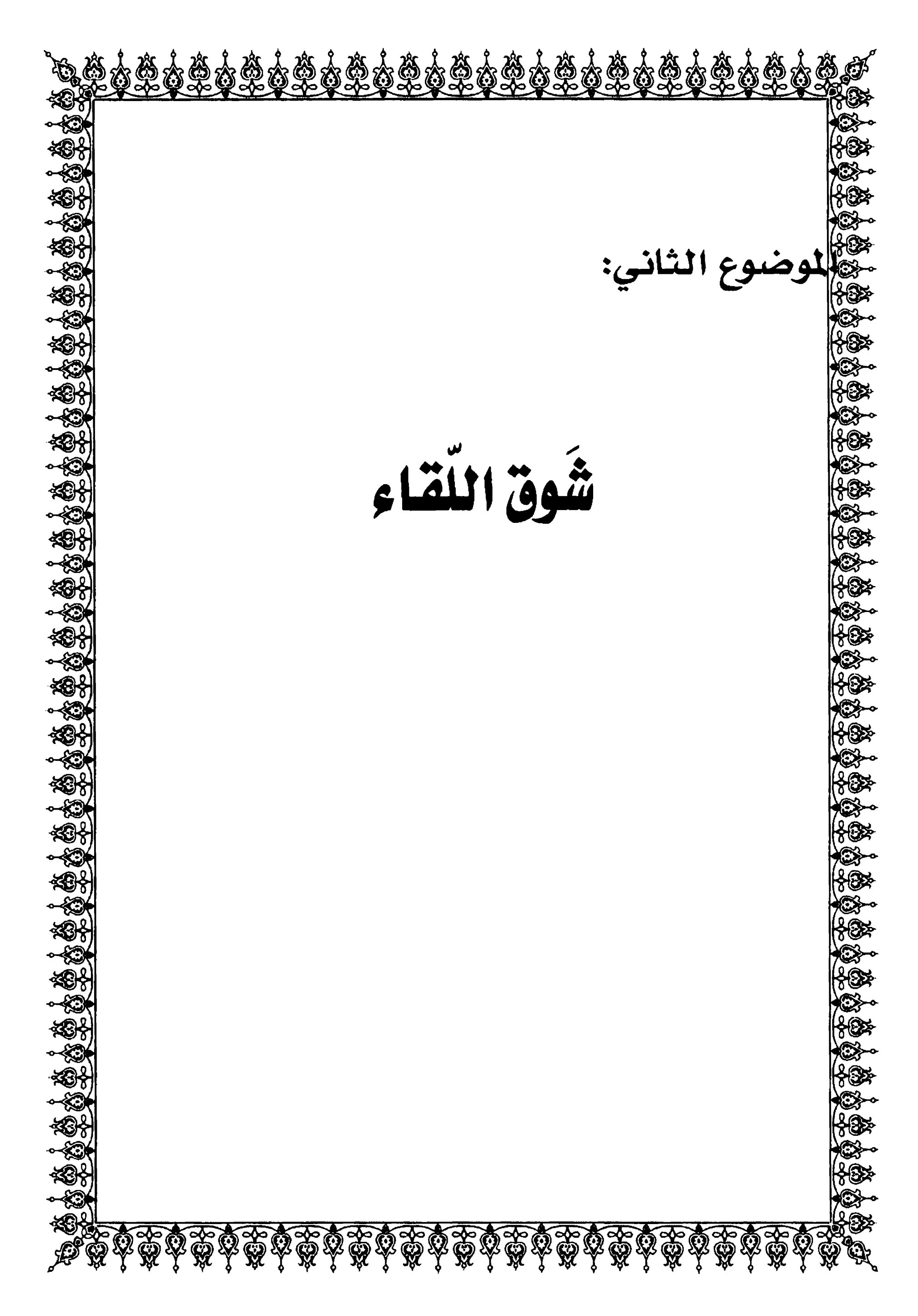
فيناله في ذلك مثل ما وصفته يا مولاي؟

قال عليه السلام: ذلك للتأديب والموعظة لَمن يحلّ ذلك به ولغيره بسببه، كما قد يؤدِّب الملوك الناس للتنكيل والموعظة، فلا ينكر ذلك عليهم، بل يحمد من رأيهم، ويصوّب من تدبيرهم، ثم للّذين ينزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت، إنْ شكروا وأنابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها، حتّى أنَّهم لو خيِّروا بعد الموت لاختاروا أن يردّوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب.

فكِّر يا مفضل في الأعضاء الّتي خلقتْ أفراداً وأزواجاً، وما في ذلك من الحكمة والتقدير، والصواب في التدبير، فالرأس مما خلق فرداً، ولم يكن للإنسان صلاحٌ في أن يكون أكثر من واحدٍ، ألا ترى أنّه لو أضيف إلى رأس الإنسان رأسٌ آخر لكان ثقلاً عليه من غير حاجةٍ إليه؟! لأنَّ الحواسّ الّتي يحتاج إليها مجتمعةٌ في رأسٍ واحدٍ، ثمّ كان الإنسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان فإنْ تكلّم من أحدهما كان الآخر معطّلاً لا إرب فيه ولا حاجة إليه، وإنْ تكلَّم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلاً لا يحتاج إليه، وإنْ تكلم بأحدهما بغير الذي تكلَّم به من الآخر لم يدرِ السامع بأي ذلك يأخذ، وأشباه هذا من الأخلاط، واليدان مما خلق أزواجاً ولم يكن للإنسان خير في أنْ يكون له يد واحدة، لأنَّ ذلك كان يخلّ به فيما يحتاج إلى معالجته من الأشياء ألا ترى أن النجّار والبنّاء لو شلَّت إحدى يديه لا يستطيع أن يعالج صناعته، وإنْ تكلَّف ذلك لم يحكمه، ولم يبلغ منه ما يبلغه إذا كانت له يدان يتعاونان على

العمل...»[١].

(١) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ٣، ص ٦٣- ٧١. بتصرّفٍ قليلٍ، من حيث التقديم والتأخير، والرواية طويلةٌ جدّاً، ولم نطلْ فيها مخافة الخروج من هدف الكتاب، فإن شئت المزيد فعليك الرجوع إلى مصدرها، علماً بأنّنا سنتعرّض لبعض فقرات هذه الرواية من جهاتٍ متعدّدةٍ في أبحاث هذا الكتاب.



الموضوع الثاني:

شَوق اللّقاء

شَوقُ اللّقاءِ

إنّ هذا الحبّ الإلهيّ اللامتناهي، والاهتمام البالغ بالعباد، وإسداء الله ﷻ سوابغ نعمه وآلائه، جعل قلوب الأنبياء، والأئمة، والأولياء متعلّقةً به ﷻ، مشتاقةً إلى فرحة لقائه، طالبةً إيّاه، منصرفةً عن سواه، فعبدوه عبادة الأحرار، لا طمعاً في جنّته، ولا خوفاً من ناره، بل لأنّه أهلٌ للعبادة، وشكراً لنعمه السابغة ﷻ.

كما أنّ عذوبة خطابه ﷻ لعباده، وحلاوة ودّه في ندائه، مع أنّه جبّار السماوات والأرض، جعل قلوب الأولياء تطير إلى ساحة برّه، ومناجاته، ومجالسته، فافترشوا وجوههم له، متأوّهِين، باكين، خاشعين، خاضعين بين يديه، بين قيامٍ، وركوعٍ، وسجودٍ.

يا خليفة الرحمن، سأنقل لك حديثاً قدسيّاً، يدعوك فيه ربّ العزّة والجلال لمجالسته، ومحادثته، ودعائه، وانظر مدى عذوبة كلامه، وبلاغة بيانه، ورقّة خطابه، كلّ ذلك شوقاً منه للقائك:

«يا داود، أبلغ أهل أرضي أنّي حبيبٌ من أحبّني، وجليسٌ من جالسني، ومؤنسٌ لمن أنس بذكري، وصاحبٌ لمن صاحبني، ومختارٌ لمن اختارني، ومطيعٌ لمن أطاعني، ما أحبّني أحدٌ - أعلم ذلك يقيناً من قلبه - إلا قبلته لنفسي، وأحببته حبّاً

لا يتقدّمه أحدٌ من خلقي، من طلبني بالحقّ وجدني، ومن طلب غيري لم يجـدني، فارفضوا يا أهلَ الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلمّوا إلى كرامتي، ومصاحبتي، ومجالستي، ومؤانستي، وآنسوني أؤنسكم، وأسارع إلى محبّتكم.

وأوحى الله إلى بعض الصدِّيقين أنَّ لي عباداً مـن عبيـدي يحبُّـوني، وأحـبُّهم، ويشتاقون إليَّ، وأشتاق إليهم، ويذكروني، وأذكرهم، فإنْ أخذت طريقهم أحببتُك، وإنْ عدلت عنهم مقتُّك.

قال: يا ربّ، وما علامتهم؟

قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الشفيق غنمـه، ويحنّـون إلى غـروب الشمس كما تحنُّ الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنَّهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، ونصبت الأسرّة، وخلا كلّ حبيبٍ بحبيبـه، نصـبوا إليَّ أقـدامهم، وافترشوا إليَّ وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملّقوني بأنعامي، ما بين صارخٍ وبـاكٍ، وبين متأوِّهٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعدٍ، وبين راكعٍ وساجدٍ، بعيني ما يتحمّلوني مـن أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبِّي.

أوّل ما أعطيهم ثلاثاً:

الأوّل: أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عنّي، كما أخبر عنهم.

والثاني: لو كانت السماوات والأرضون، وما فيهما من مواريثهم لاستقللتها لهم.

والثالث: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلتُ عليه بوجهي يعلم أحـدٌ مـا

أريد أنْ أعطيه؟!»[١].

ومن جملة الآيات القرآنية الواردة في هذا السياق، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٢] أيْ: إلى متى؟! وحتّى متى؟! وقلبك أيها – الإنسان – لاهٍ، قاسٍ، جافٍ، مشغولٌ بالمعاصي والذنوب، ألمْ يأتِ الوقت كي تتوب، وإلى ربك تعود؟!

فشمِّر عن ساعديك، وعُد إلى ربّك؛ فإنَّه غفورٌ رحيمٌ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٣].

ينقل صاحب تحفة الأحوذي: «**أنّ فُضيل بن عياض كان شاطراً، يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنّه عشق جاريةً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾.**

فلمّا سمعها، قال: بلى يا ربّ، قد آنَ. فرجع، فآواه الليل إلى خربةٍ، فإذا فيها قافلةٌ، فقال بعضهم: نرتحل. وقال بعضهم: حتّى نصبح؛ فإنّ فضيلاً على الطريق

---

(١) بحار الأنوار – العلاّمة المجلسيّ ج ٦٧، ص ٢٦.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٣) سورة الزمر: الآية ٥٣.

يقطع علينا.

قال: ففكَّرت، قلتُ: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقومٌ من المسلمين يخافونني ههنا، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع:

اللهم إنّي قد تبتُ إليك، وجعلتُ توبتي مجاورة البيت الحرام»[١]، فتاب، ورجع، فورد مكّة، وجاور بها الحرم، ومات بها سنة ١٨٧.

قال عنه ابن عساكر: كان ثقةً، نبيلاً، فاضلاً، عابداً، ورعاً، كثير الحديث[٢].

وقد نقل التاريخ بعض كلماته ومواعظه، منها: إذا أحبَّ الله عبداً أكثر غمَّه، وإذا أبغض عبداً وسَّع عليه دنياه.

ومنها: لو أنَّ الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ، لا أحاسب بها، لكنتُ أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أنْ تصيب!

وقال: ترك العمل لأجل الناس هو الرياء، والعمل لأجل الناس هو الشرك[٣].

---

(١) تحفة الأحوذيّ- المباركفوريّ ج ٧، ص ٢٥٠.

(٢) حاشية ردّ المحتار- ابن عابدين ج ١، ص ٦٢.

(٣) تاريخ مدينة دمشق- ابن عساكر ج ٤٨، ص ٣٨٢.



المـوضـوع الثـالـث:

عبادَةُ المُحبِّين

عبادةُ المُحبِّين

ورد في صحيفة إدريس عليه السلام: «**طوبى لقومٍ عبدوني حبّاً، واتّخذوني إلهاً، وربّاً، سهروا الليل، ودأبوا النهار؛ طلباً لوجهي، من غير رهبةٍ، ولا رغبةٍ، ولا لنـارٍ، ولا جنّةٍ، بل للمحبّة الصحيحة، والإرادة الصريحة، والانقطاع عن الكل إليَّ**»[1].

اعلم أيّها العزيز:

إنّه تعالى يُعبد بأحد أنحاء ثلاثةٍ: الخوف، والرجاء، والحبّ، وطباع النـاس مختلفـةٌ في إيثار هذه الأنحاء الثلاثة واختيارها:

الأوّل: وهو الغالب، يغلب على نفسه الخـوف، وكلّمـا فكَّـر فيمـا أوعـد الله الظالمين، والّذين ارتكبوا المعاصي والذنوب، من أنواع العذاب الّـذي أُعـدَّ لهم، زاد في نفسه خوفاً، ولفرائصه ارتعاداً، ويساق بذلك إلى عبادته تعالى؛ خوفاً من عذابه.

الثاني: وهو مَنْ يغلب على نفسه الرجاء، وكلّما فكَّـر فيمـا وعـد الله الّـذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة، والكرامة، وحسن العاقبة، زاد رجـاءً،

---

(١) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج٩٢، ص ٤٦٧، الصحيفة العشرون، صحيفة المحبّة.

وبالغ في التقوى، والتزام الأعمال الصالحات؛ طمعاً في المغفرة والجنة.

الثالث: وهم العلماء بالله، لا يعبدون الله خوفاً من عقابه، ولا طمعاً في ثوابٍ، وإنَّما يعبدونه لأنَّه أهلٌ للعبادة؛ وذلك لأنَّهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى، والصفات العليا، فعلموا أنَّه ربّهم الّذي يملكهم... وليس للعبد إلا أنْ يعبد ربّه، ويقدِّم مرضات الله، وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله، ولا يريدون في شيءٍ من أعمالهم - فعلاً أو تركاً - إلا وجهه، ولا يلتفتون فيها إلى عقابٍ يخوِّفهم، ولا إلى ثوابٍ يرجيهم، وإنْ خافوا عذابه، ورجوا رحمته، وإلى هذا يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا رغبةً في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة، فعبدتك**».

وهؤلاء لّما جعلوا رغباتهم المختلفة هي بابتغاء مرضات ربهم، ومحّضُوا أعمالهم في طلب غايةٍ، وهي الله لا غير، تظهر في قلوبهم المحبَّة الإلهيّة، فيعرفون ربَّهم بما عرَّفهم به نفسه، وقد سمَّى نفسه بأحسن الأسماء، ووصف ذاته بكلّ صفة جمالٍ وكمالٍ، ومن خواصِّ النفس الإنسانيّة أنّها تنجذب إلى الجميل، فكيف بالله الجميل على الإطلاق؟![1].

وهذا الانجذاب لجناب الحق تبارك وتعالى يفسِّر ما سمعناه لتلك الحالات العباديِّة النادرة والعجيبة للأنبياء، والأئمة، والأولياء عليهم السلام، وهو أنَّ حبَّ الله تبارك وتعالى قد هيمَنَ على قلوبهم، وعقولهم، وجوارحهم، وجوانحهم، فقاموا بين يديه شاكرين، حامدين،

---

(١) تفسير الميزان– العلاّمة السيّد الطباطبائيّ ج ١١، ص ١٥٨– ١٥٩. بتصرّفٍ فيه.

مستغفرين، منيبين، يرجون الوصال، ولا شيء سواه.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: بكى شعيب عليه السلام من حبِّ الله عزّ وجلّ حتّى عمي، فردَّ الله عزّ وجلّ عليه بصره، ثم بكى حتّى عمي، فردَّ الله عليه بصره، ثم بكى حتّى عمي فردَّ الله عليه بصره، فلمّا كانت الرابعة أوحى الله إليه:

يا شعيب، إلى متى يكون هذا أبداً منك؟! إنْ يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإنْ يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك.

قال: إلهي، وسيدي، أنت تعلم أنّي ما بكيتُ خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنّتك، ولكن عقد حبُّك على قلبي، فلستُ أصبر أو أراك.

فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أمّا إذا كان هذا هكذا، فمن أجلِ هذا سأخدّمك كليمي موسى بن عمران[1].

وعن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، قال: «**كنّا جلوساً في مجلسٍ في مسجد** رسول الله صلى الله عليه وآله، **فتذاكرنا أعمال أهل بدرٍ، وبيعة الرضوان.**

فقال أبو الدرداء: يا قوم، ألا أخبركم بأقلِّ القوم مالاً، وأكثرهم ورعاً، وأشدَّهم اجتهاداً في العبادة؟!

قالوا: مَنْ؟

قال: أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، قال: فوالله إن كان في جماعة أهل

---

(١) بحار الأنوار– العلاّمة المجلسيّ ج١٢، ص ٣٨١.

المجلس إلا معرضٌ عنه بوجهه، ثمّ انتدب له رجلٌ من الأنصار، فقال له: يا عويمر، لقد تكلّمت بكلمةٍ ما وافقك عليها أحدٌ منذ أتيت بها.

فقال أبو الدرداء: يا قوم، إنّي قائلٌ ما رأيت، وليقلْ كلّ قومٍ منكم ما رأوا:

شهدتُ عليّ بن أبي طالب بشويحطات النجّار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممّن يليه، واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته، وبَعُدَ عليٌّ مكانه، فقلت: لَحِقَ بمنزله، فإذا أنا بصوت حزينٍ، ونغمة شجيٍّ، وهو يقول:

إلهي، كم مِنْ موبقةٍ حلمتَ عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرةٍ تكرّمتَ عن كشفها بكرمك، إلهي، إنْ طال في عصيانك عُمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمّلٍ غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك.

فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاستترت

له، وأخملت الحركة، فركع ركعاتٍ في جوف الليل الغابر...

ثمّ قال: ثم أنعم في البكاء، فلم أسمع له حسّاً، ولا حركةً.

فقلُت: غلب عليه النوم؛ لطول السهر، أوقظُه لصلاة الفجر، قال أبو الدرداء: فأتيته، فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته، فلم يتحرّك، وزويته، فلم ينزوِ، فقلتُ: "إنّا لله، وإنّا إليه راجعون"، مات والله عليّ بن أبي طالب، قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم.

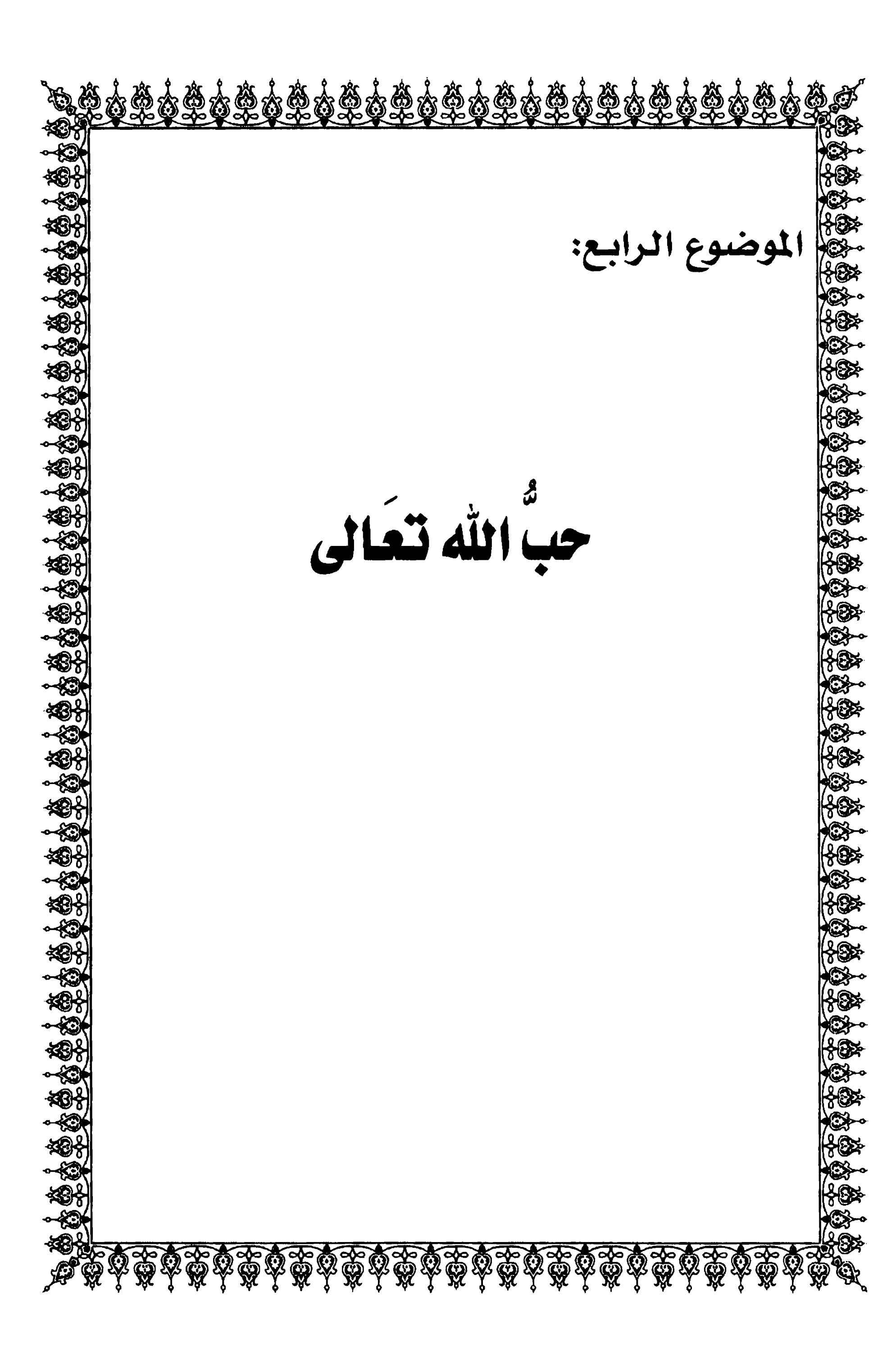
فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه ومن قصّته؟

فأخبرتُها الخبر.

فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية الّتي تأخذه من خشية الله، ثم أتوه بمـاءٍ، فنضحوه على وجهه، فأفاق»[1].

---

(١) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج٤١، ص ١١،١٣. بتصرّفٍ، حيث ذكرنا مورد الشاهد فقط.



الموضوع الرابع:

حبُّ الله تعَالى

حبُّ الله تعَالى

مِن النعم الإلهية الّتي أودعها الله ﷻ في الكيان الإنسانيّ، وجعلها من الغرائز الفطريّة في وجود كلّ إنسانٍ، مع اختلاف شرائعهم، وشرائحهم، هو حبّه للكمال، وبغضه للنقص، فكلّ إنسانٍ يفرح، ويبتهج إذا وُصف أنّه مؤمنٌ، أو أمينٌ، أو عالمٌ، أو غير ذلك من صفات الكمال، كما أنّه يبغض ويهرب من كلّ صفة نقصٍ، فلا يحبّ أنْ يوصف بأنّه فاسقٌ، أو خائنٌ، أو جاهلٌ، وغير ذلك من الصفات السلبيّة، الّتي تُعَدّ نقصاً، ورذيلةً.

وهذا الأمر يكشف عن فطريّة حب الكمال، والانجذاب نحو كلّ كاملٍ، وكلّما كان الكمال أكمل، وأعظم شأناً، كلّما كان الشوق إليه أكثر، والابتهاج أوفر، وكذلك في الجهة المخالفة للكمال، وهي النقيصة والرذيلة.

ومن هنا نجد أنَّ ثلةً من البشر، حينما ينكشف لهم شيءٌ من الكمالات الإلهيّة المطلقة الّتي لا حدَّ لها، ولا مقدار، تنجذب قلوبهم نحوه ﷻ من دون إرادةٍ أو شعورٍ، فيسعون للاتصاف بصفاته الجماليّة، والجلاليّة قدر سعيهم، وقابليّتهم.

ومقدار قابليّتهم - سعةً وضيقاً - منوطٌ بمقدار ما يملك هذا الإنسان من علمٍ

وعملٍ، كثرةً وقلّةً، ولهذا تجد -غالباً- توأميّة العلم والعمل في الكثير من الآيات القرآنيّة، نحو قوله ﷻ: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(٢).

الإيمان الّذي هو تعبيرٌ ثانٍ عن العلم، إذا اقترن مع العمل كانت لهما جذباتٌ، وتأثيراتٌ عظيمةٌ على النفس الإنسانيّة، وخصوصاً بالانجذاب نحو الكمال، وبالأخصّ إلى الكمال المطلق ﷻ.

إنّ اختلاف مراتب الأنبياء من حيث القرب، والمقام، والمنزلة عند الله ﷻ، راجعٌ إلى هذين الأمرين الأساسيّين، فخاتم الأنبياء أفضل الرسل على الإطلاق؛ لما له من تميُّزٍ في هذين الأمرين على غيره من الرسل، وكذا القول في التمايز الحاصل عند سائر البشر.

إنّ شغف المقرّبين، والأبرار، والأولياء بالله ﷻ واضحٌ وجليٌّ في أحوالهم، وأفعالهم، وأقوالهم، وحين نقرأ دعاء كميل نجد أنّ أمير المؤمنين يكشف جانباً من جوانب تعلّقه وحبّه لله ﷻ، حيث يقول:

«فهبني يا إلهي، وسيّدي، ومولاي، وربّي، صبرتُ على عذابك، فكيف أصبر

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩.

على فراقك؟! وهبني صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك؟! أم كيف أسكن في النار، ورجائي عفوك؟! فبعزّتك يا سيدي، ومولاي أقسم صادقاً، لئن تركتني ناطقاً، لأضجّنَّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنَّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، ولأنادينَّك: أين كنت يا وليّ المؤمنين؟! يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين»[(١)].

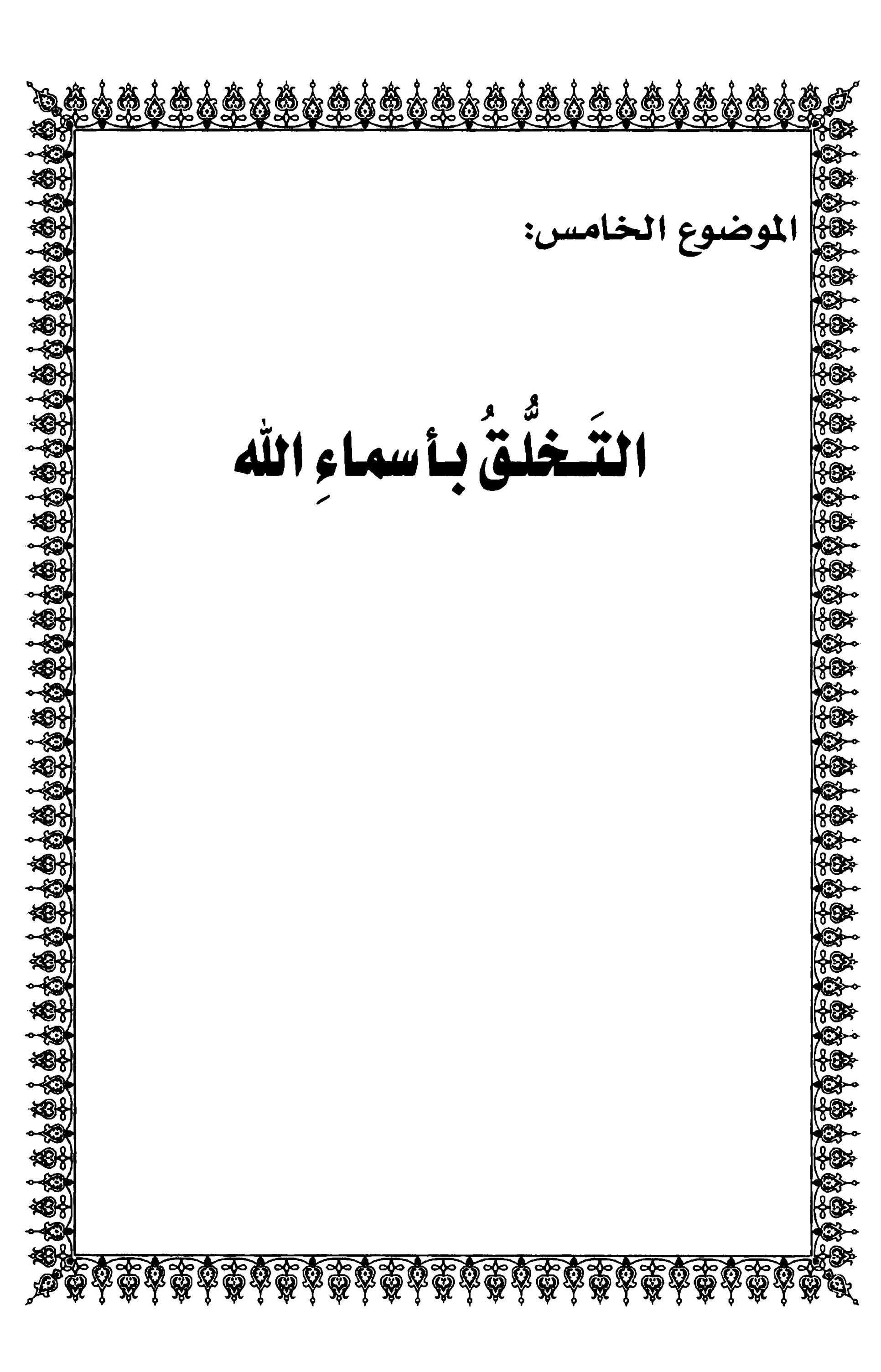
كما تلاحظ، إنَّ الأنس، واللذَّة، والحبَّ يتجلّى في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام، في مناجاة المحبّين، في الصحيفة السجّاديّة:

«اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك، والحنين، ودهرهم الزفرة، والأنين، جباههم ساجدةً لعظمتك، وعيونهم ساهرةً في خدمتك، ودموعهم سائلةً من خشيتك، وقلوبهم متعلّقةً بمحبّتك، وأفئدتهم منخلعةً من مهابتك، يا من أنوار قدسه لأبصار محبّيه رائقةً، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقةً، يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبّين، أسألك حبّك، وحبّ من يحبّك، وحبّ كلّ عملٍ يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحبّ إليّ ممّا سواك، وأن تجعل حبّي إيّاك قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك عليّ، وانظر بعين الود والعطف إليّ، ولا تصرف عنّي وجهك، واجعلني من أهل الإسعاد والحظوة عندك، يا مجيب، يا أرحم الراحمين»[(٢)].

---

(١) مصباح المتهجّد- الشيخ الطوسيّ، ص ٨٤٧.

(٢) الصحيفة السجّاديّة- الإمام زين العابدين عليه السلام، مناجاة المحبّين.



الموضوع الخامس:

التَـخلُّقُ بأسماءِ الله

التخلُّقُ بأسمَاءِ اللّٰه

إنَّ الأبرار والمقرّبين لم ينحصر حبّهم في الانجذاب نحو المحبوب بالدعاء، والعبادة فقط، وإنْ كان ذلك تجليّاً من تجلّيات الحبّ، ومظهَراً من مظاهر هيمنة العشق الإلهيّ في نفوسهم، وقلوبهم، يطفئون بذلك نار العشق الملتهبة في قلوبهم، وألمَ الفراق، ولو لا الأجل الّذي كتب لهم، لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عينٍ[1].

إلا أنّهم ولشدّة حبّهم، وأنسهم بالله ﷻ، وانجذابهم نحو كمالاته المطلقة، من صفاته الجماليّة، والجلاليّة، وأسمائه الحسنى، تجدهم أخذوا بالاتصاف بتلك الصفات والأسماء، وتخلّقوا بها، كلٌّ بحسب سعته، وقالبه لتلك الكمالات، فتخلّقوا بأخلاق الله، وجسّدوا الخلافة الإلهيّة في الأرض، وتشبّهوا بالمقرّبين، والكرُّوبين من ملائكة الله تعالى.

نعم، فمِنْ شأن الخلافة أنْ يحاكي الخليفة مَنْ استخلفه في صفاته، وأعماله، فعلى خليفة الله في الأرض أنْ يتخلّق بأخلاق الله، وأن يريد، ويفعل ما يريده الله، ويحكم، ويقضي بما يقضي به الله – والله يقضي بالحق –، ويسلك سبيل الله، ولا

---

(١) نهج البلاغة– الشيخ محمّد عبده ج ٢، ص ١٦١ من خطبة المتّقين، خطبة: ١٩٣.

يتعدّاه[١].

فإذا ما كان كذلك، صار إنساناً ملكوتيّاً، ربّانيّاً، متألّهاً، مقدّساً، ينكشف له الغطاء، فيرى عالم الملكوت ببصرٍ من حديد، فلا يرى لهذه النشأة الدنيويّة - عالم المُلك والشهادة - من قيمةٍ وثمنٍ، فيحظى عندها بالسعادة الأبديّة، واللذّة الدائميّة، بجوارِ ربّ البريّة تعالى فمات في حبّ الله قبل الموت.

«إلهي، هب لي كمال الانقطاع اليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك؛ حتّى تخرق أبصارُ القلوب حجبَ النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقةً بعزّ قدسك، إلهي، واجعلني ممّن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سراً، وعمل لك جهراً»[٢].

قال المحقّق الداماد رحمه الله:

«الإنسان المتألّـه المتقدّس، إذا كان ذا نفسٍ شريفة الجوهر، شديدة الاتصال بعالم القدس، طفيفة الالتفات إلى عالم الحسّ،- فليس بمستغربٍ إن تيسّر لذلك المتقدّس - وهو في صريح اليقظة الحقّة، لا في شبه نومٍ، ولا في شبه سِنَةٍ - أن يتّصل بعالم النور، ويصير إلى عالم الغيب، فيتلقىَ روعه من روح القُدُس، ويطالع شيئاً من الملكوت»[٣].

---

(١) تفسير الميزان- العلاّمة الطباطبائيّ ج ١٧، ص ١٩٤- ١٩٥.

(٢) إقبال الأعمال- السيّد ابن طاووس الحسنيّ ج ٣، ص ٢٩٩.

(٣) الرواشح السماويّة- المحقّق الداماد، ص ٢٠٦.

وقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله لحارث بن مالك: كيف أصبحت؟**

فقال: أصبحت - والله يا رسول الله - من المؤمنين.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لكلِّ مؤمنٍ حقيقةٌ، فما حقيقة إيمانك؟

قال: أسهرتُ ليلي، وأنفقتُ مالي، وعزفتُ عن الدنيا، وكأنّي أنظر إلى عرش ربّي جلّ جلاله وقد أبرز للحساب، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة في الجنّة يتزاورون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار يتعاوون.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا عبدٌ قد نوَّر الله قلبَه، قد أبصرتَ فالزم. فقال: يا رسول الله، ادعُ الله لي بالشهادة، فدعا له، فاستشهد يوم الثامن»[١].

إلا إنَّ التخلّق بأخلاق الله تعالى، وبأسمائه، وصفاته يحتاج إلى همّةٍ كبيرةٍ، عاليةٍ، فلكي تتخلّق بأخلاق الله تعالى فتكون – مثلاً – ستّاراً للعيوب، وحليماً، وعليماً، ورحيماً، ولطيفاً، وشكوراً، ومحسناً، وغير ذلك من الصفات الكماليّة، والأسماء الإلهيّة الحسنى، فإنّك تحتاج إلى إرادةٍ قويّةٍ، وهمّةٍ عاليةٍ؛ لأنّ التخلّق بذلك صعب المنال، وإنّما يشتاق إليه أصحاب الهمم العالية، والنفوس العاشقة؛ إذ أنّهم يرون في صعاب وأشواك ذلك الطريق لذّةً لا توصف، حيث إنّها الطريقة الوحيدة للفيض بالجلوس على بساط الحبيب.

إنّهم يرون أنَّ تحملهم المشاق والصعاب بعين الله، وفي محضره، وأنّه يراهم، كيف

---

(١) بحار الأنوار– العلاّمة المجلسيّ ج ٢٢، ص ١٤٦.

يتحمّلون كل ذلك من أجل الوصال والقرب الإلهيّ، فيزيدهم هذا العلم شوقاً، ولذّةً في تحمّل الأمر بكلّ شوقٍ وابتهاجٍ.

وأوّل ما يجب فعله على السالك إلى الله تعالى، والمتخلّق بأسماء الله ﷻ، هو الانقياد لأوامر المولى، والانتهاء عن نواهيه ﷻ.

روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض**»[1].

وهذا يدلّ بوضوحٍ على أنّ أهم موانع عروج الإنسان في عالم الملكوت، والخروج من نشأة الملك، والدنيا، هو ارتكابه للذنوب، والمعاصي، ومن هنا تجد أنّ أهمّ الشروط عند أصحاب السير والسلوك هو عدم اقتراف الذنوب، والابتعاد - قدر المستطاع - عن المعاصي، والقبائح.

وقد«كان طلاب العلوم من جميع أنحاء إيران يقصدون شيراز؛ للاستفادة من درس صدر المتألّهين، ولكنّه لم يكن يقبل التلميذ إلاّ إذا قبل أربعة شروطٍ، وعمل بها:

الأوّل: ألا يكون بصدد تحصيل المال، إلا بمقدار تحصيل الحاجة.

الثاني: ألا يكون همّه الحصول على موقعٍ اجتماعيٍّ.

الثالث: ألا يعصي.

الرابع: ألا يقلد، أي أن يكون مجتهداً.

---

(١) بحار الأنوار - العلاّمة المجلسيّ ج٦٠، ص ٣٣٢.

فإذا قبل التلميذ هذه الشروط، وعمل بها، كان صدر المتألّهين يقبله في عداد تلامذته، ويبقيه في مدرسته، وإلا يطلب منه مغادرة المدرسة»[١].

وهكذا كان دأب أستاذه، فحينما انتهت أوّل جلسةٍ اشترك فيها صدر المتألّهين في درس الميرداماد، انتحى به جانباً، وقال له:

«يا محمّد، لقد قلتُ أنا اليوم: إنَّ الشخص الّذي يريد دراسة الحكمة يجب أنْ يهتمّ بالحكمة العمليّة. وها أنا ذا أقول لك: إنَّ الحكمة العمليّة أمران:

الأوّل: القيام بجميع واجبات الإسلام.

الثاني: اجتناب كلّ ما تطلبه النفس الأمّارة من أجل أنسها، وأداء الواجبات الدينيّة ضروريّ؛ لأنَّ الطالب عندما يؤدّيها يستفيد من كلٍّ منها فائدةً هي لمصلحته»[٢].

وقد نُقِلَ عن العارف الكبير، ملا حسين قلي الهمداني في إحدى رسائله:

«وما استفدتُه أنا الضعيف، من العقل، والنقل، إنَّ أهمّ الأشياء لطالب القرب هو الجدّ، والسعي في ترك المعصية... - إلى أنْ قال -: فافهم ممّا ذكرتُ أنّ طلبك محبّةً إلهيّةً مع كونك مرتكباً للمعصيةٍ أمرٌ فاسدٌ جداً، وكيف يخفى عليك كون المعصية سبباً للنفرة؟! وكون النفرة مانعة الجمع مع المحبة؟! وإذا تحقّق عندك أنَّ ترك المعصية أوّل الدين، وآخره، وظاهره، وباطنه، فبادر إلى المجاهدة، واشتغل بتمام الجدّ في المراقبة، من أوّل قيامك من نومك، في جميع آناتك، والزم الأدب في مقدّس

(١) سيماء الصالحين- الشيخ رضا مختاري ص٢٩.

(٢) المصدر السابق.

حضرته[1].

وروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**ما أحبَّ اللهَ من عصاه، ثمّ تمثّل:**

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه   هذا محالٌ في الفعال بديع

لو كان حبُّك صادقاً لأطعته   إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع»[2]

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**لو لم يتوعَّد الله على معصيته، لكان يجب أنْ لا يُعصى؛ شكراً لنعمه**»[3].

ولا تستعظم الأمر، وشمِّر عن ساعديك، واسعَ نحو ترك الذنوب، فهناك مراتب للخواصّ أعلى مقاماً ومنزلةً مِنْ هذا، وهو تركهم المباحات والمكروهات؛ لما يرونه في ذلك من هبوط درجتهم، ومقامهم عند الله تعالى، فهم يتسابقون ليكونوا أقرب الناس منزلةً، ومقاماً عند الله تعالى، فهؤلاء هم العبّاد حقاً، والعلماء العاملون، والمقرّبون، والمتألّهون الربّانيُّون، من قبيل الشهيد الأوّل؛ حيث يكشف الستار عن أمرٍ هو يعيشه قائلاً:

«بل معدودٌ من الخسران صرف الزمان في المباح، وإنْ قلّ؛ لأنّه ينقص من الثواب؛ ويخفض من الدرجات»[4].

---

(١) سيماء الصالحين- الشيخ رضا مختاري، ص ٨٧.

(٢) وسائل الشيعة، الشيخ الحرّ العامليّ ج ١٥، ص ٣٠٨، ح٩.

(٣) وسائل الشيعة، الشيخ الحرّ العامليّ ج ١٥، ص ٣٠٨، ح١٠.

(٤) سيماء الصالحين، الشيخ رضا مختاري، نقلاً عن القواعد والفوائد- الشهيد الأوّل ج ١، ص ١١٩.

وينقل عن الشيخ عباس القمّـيّ: أنّـه لم يصـدر مـن الميرداماد - الفيلسـوف الإسلاميّ الكبير - فعل مباحٍ طيلة عشرين عاماً[١].

وحيث إنّ هؤلاء عشّاق الله ﷻ، فهم بفطرتهم، وشدّة تعلّقهم به سبحانه، يمتثلون كلّ طلبٍ صادرٍ منه ﷻ، بغضّ النظر عن أنّه واجبٌ أو مستحبٌّ، وينتهون عن كلّ نهيٍ، سواءً كان تحريميّاً، أو كراهتيّاً، أمّا المباح فلا يأتون به، إلا إذا كان بداعي التقوّي على العبادة، والإعانة عليها، فيصيِّر المباح مستحبّاً بهذا النحو.

بل تجدهم يتسابقون تسابقاً لا نظير له، بالاتصاف بأسماء الله الحسنى، والتخلّق بأخلاق الله، والتحلّي بأوصافه ونعوته ﷻ؛ لفنائهم فيه ﷻ؛ ولما علموا من حثّ الشارع الأقدس لذلك، كما ورد: «**تخلّقوا بأخلاق الله**»[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[٣].

وقد قال الفلاسفة - في تعريفهم للفلسفة - بأنها: التشبّه بالإله، أو التخلّق بأخلاق الله، علماً، وعملاً[٤].

وهذا يكشف عن أهمّيّة التحلّي والتخلّق بأسماء الله (عزّ اسمه)، وصفاته، عقلاً، ونقلاً، والّذي ينسجم مع فطرة الإنسان الّتي تنجذب نحو كلّ كمالٍ يتجلّى له.

---

(١) المصدر السابق. الشيخ رضا مختاري، نقلاً عن الفوائد الرضويّة، ص ٤٣٢.

(٢) بحار الأنوار، العلاّمة المجلسيّ ج ٥٨، ص ١٢٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧٩.

(٤) شرح الأسماء الحسنى، الملا هادي السبزواريّ ج ٢، ص ٢٣.

وسأحاول أنْ أستعرض بعض أسمائه الحسنى، وبيان حظّ العبد من تلك الأسماء، ودوره في التحلّي والتخلّق بتلك الأسماء الكماليّة، قدر وسعي، وعلمي المحدودين جداً، وعليه توكّلتُ، وبه أستعينُ.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1].

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٣.



الموضوع السادس:

الله جلَّ جلاله

١- تجلّيات الله تعالى.

٢- العبد والله تعالى.

أ- العبوديّة لله.

ب- التألّه.

٣ - المرعشيّ في عهد البهلويّ.

٤- استجماع الكمالات.

٥- استغراق القلب بالله.

٦- موانع الرؤية والاستغراق.

٧- أهمّيّة الصبر والعزم.

٨- ذكر الله.

اللهُ جلَّ جلاله

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢.

تجلّيات الله تعالى:

الإيمان بوجود الله تعالى وخالقيّته للكون من الأمور البديهيّة والفطريّة الّتي فطر الناس عليها؛ صوناً لهم من الضياع، والانحراف عن ساحة برِّه ورحمته(١)، وإنَّ كثيراً من تلك الأدلّة والبراهين المذكورة في الكتب الكلاميّة ما هي إلا منبِّهات، وإشارات إلى تلك الحقيقة الحقّة، وهي أنَّ جود الله تعالى وخالقيّته لهذا العالَم - الّذي يتقطّر ويترشّح منه الكمال، والإتقان في جميع جوانبه وأجزائه - واضحٌ وجليٌّ.

والّذي ينبِّهك ويرشدك على فطريّة هذه المسألة -أيّها القارئ الكريم- هو أنّك تأبى جدّاً أن يُقال لك بأنَّ هذا الكتاب الّذي بين يديك وُجِدَ من تلقاء نفسه، ومن دون أنْ يكون للإنسان - أو غيره من الموجودات - دوراً في إعداده بالطريقة الّتي هو عليها، ولا تقبل أبداً بدعوى أنّه وُجِدَ فجأةً، أو صدفةً، أو أنّه أوجد نفسه بنفسه، بل قد تحمل ذلك كلّه على السخرية، والمزاح؛ لعدم معقوليّته.

إنّك لتستغرب من هذه المقولة، وقد تضحك على قائلها، وإنْ كان القائل بها طبيباً، أو مهندساً، أو غيرهما.

أليس منشأ الاستغراب هو إيمانك بأنَّ كلّ الأمور في عالم الإمكان والمخلوقات يسودها نظام العلِّيّة والمعلوليّة، والسبب والمسبَّب، ولا يمكن أن يكون غير ذلك؟!

والكتاب - كغيره من الأمور- لو لا وجود علّةٍ قادرةٍ تسبّبت في إيجاده

---

(١) رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، حتّى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه. بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ٣، ص ٢٨١، ح٢٢.

وتحقّقه، لما كان له حظٌّ من الوجود والتحقُّق، وإنّك إذا تأمّلتَ في شيءٍ مصنوعٍ، ووجدت فيه الدقّة، والنظم، والإتقان، فستنتقل مباشرةً إلى دقّة الصانع، وخبرته، وعلمه في صنعه، بمقدار ما ينكشف لك من كمالات ذلك المصنوع وإتقانه.

وهذا أمرٌ لا يختلف فيه أحدٌ، حتّى ذلك البدويّ الأمّيّ في الصحراء، فإنّه يحكم بوجود العلّة بمجرد رؤية المعلول، ويثبِت لتلك العلّة من الكمالات بمقدار ما ينكشف له من كمالات المعلول أو المصنوع؛ وما هذا إلا لبداهة قانون العلّيّة والمعلوليّة، وفطريّته عند الإنسان.

وما يؤيّد ذلك أنّ أعرابيّاً سُئل عن دليله في إثبات خالقٍ قديرٍ عليمٍ لهذا الكون، فأجاب بفطرته السليمة:

«البعرة[1] تدلّ على البعير، وأثر الأقدام يدلّ على المسير، أفسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج[2]، لا تدلان على اللطيف الخبير؟!»[3].

ونظراً لوضوح هذه المسألة وبداهتها، وعدم تسرُّب الشكّ إليها، أو وقوع الريب فيها، خاطب الباري (جلّ وعلا) أولئك الّذين وقعوا في شبهةٍ أمام بديهةٍ من بديهيّات الفطرة السليمة، مستنكراً اعوجاج فطرتهم قائلاً: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

---

(١) البعرة: وهي من البعير والغنم بمنزلة العذرة من الإنسان- مجمع البحرين، الشيخ الطريحيّ ج ١، ص٢١٩.

(٢) الفجّ: الطريق الواسع بين جبلين، وجمعه فجاجٌ وأفجّةٌ، الأخيرة نادرةٌ. لسان العرب، ابن منظور ج ٢، ص٣٣٨.

(٣) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ٦٦، ص ١٣٤.

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[(١)].

وحينما نمعن النظر في هذه المخلوقات العجيبة المتقنة، ومدى انسجامها ونظمها مع بعضها البعض، وكيف جرت يد القدرة على بسط وتهيئة مستلزمات البقاء لكلّ مخلوقٍ، والسير به نحو كماله المنشود، نعلم كم هو ﷻ جامعٌ لصفات الكمال، والجمال، والجلال، وهنالك نشهد ونقول بقلوبٍ مطمئنةٍ صادقةٍ، واصفين إيّاه بما وصف نفسه به في قوله ﷻ: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٢)].

وهذا يدلُّنا على أنَّ ذاته المقدّسة لها جامعيّة الأسماء الحسنى، والصفات العليا بنحوٍ مطلقٍ، وما الأسماء الحسنى، والصفات العليا، إلا تجلّياتٍ لتلك الذات المستجمعة لصفات الكمال والجلال، بل هي عين الذات المقدّسة، والّتي يرشد إليها اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: الله.

وحينما نمعن النظر ثانيةً، ونسير في آيات الأفلاك، والآفاق، والأنفس، ينكشف لنا كم أنَّ هذه الموجودات ضعيفةٌ، محتاجةٌ في نفسها، محتاجةٌ في بقائها، وأينما نظرت في هذه الموجودات الإمكانيّة، وعلى أيّها وضعت يدك، فستجدها تنادي بكلّ فصاحةٍ، وتفصح بكلّ صراحةٍ عن حاجتها لبقائها إلى عشرات الوسائل، إنْ لم نقل: المئات منها، وكلّما تقدّم العلم كشف لنا من ذلك ما يدعم هذه الحقيقة ويجلّيها.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٤.

ويكفيك لتذعن لما قلناه: أنْ تتأمّل في نفسك، ألستَ أكمل موجودٍ، وسُخّر الوجود لأجلك، وراحتك، بما تمتلك من علومٍ وقدراتٍ؟!

أليس «هذا البدن يحوي من الأجهزة والخلايا ما يعجز عنه الوصف؟! ويقول فيه رائد الحكمة والبيان في الإسلام، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«أتحسب أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر»[(١)]

أليس هذا البدن – ومع كلّ هذه العظمة والقدرة – يصرخ مقرّاً، معترفاً بعجزه، وبفقره، قائلاً: «أستغفر الله الّذي لا إله إلا هو، الحي، القيّوم، الرحمن، الرحيم، ذو الجلال والإكرام، وأسأله أنْ يتوب عليَّ توبة عبدٍ، ذليلٍ، خاضعٍ، فقيرٍ، بائسٍ، مسكينٍ، مستجيرٍ، لا يملك لنفسه نفعاً، ولا ضرّاً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً»[(٢)].

وقد أشار المولى جلّ وعلا إلى هذه الحقيقة الحقّة قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(٣)].

فأثبتَ النقص والفقر للإنسان في جميع شؤون حياته، وأثبتَ لذاته المقدّسة

---

(١) حياة الإمام الرضا عليه السلام، الشيخ باقر شريف القرشيّ ج ١، ص ٢٠٤. ومجمع البحرين– الشيخ الطريحيّ ج ١، ص ١٢٢.

(٢) مصباح المتهجّد–الشيخ الطوسيّ، ص ٧٥: تعقيب صلاة العصر. لعلّ منشأ جعل هذا التعقيب من الأدعية اليوميّة هو كي يعيش الإنسان عظمة الخالق في وجوده، ويلقّن نفسه ذلك، مع أنه مسخّر الكون في خدمته.

(٣) سورة فاطر: الآية ١٥.

الكمال والغنى على جميع الأصعدة على الإطلاق.

«فلا يستحقّ غيره لأنْ يُعبد، فالبشر - وكلّ موجودٍ مدركٍ - يجب أنْ يكون خضوعه وتوجّهه لله وحده، وبرهان ذلك:

هو أنَّ العاقل إنَّما يخضع لِمَن سواه ويعبده، ويتوجّه إليه بحوائجه؛ لوجوهٍ:

الأوّل: إمّا لكمالٍ في ذلك المعبود المستعان، والناقص مجبولٌ على الخضوع للكامل.

الثاني: إمّا لإحسانه، وإنعامه عليه.

الثالث: إمّا لاحتياج الناقص في جلب منفعةٍ، أو دفع مضرّةٍ.

الرابع: وإمّا لقهر الكامل، وسلطانه، فيخضع له؛ خوفاً من مخالفته وعصيانه.

هذه هي الأسباب الموجبة للعبادة والخضوع، وأيّها ينظر فيه العاقل يراه منحصراً في الله سبحانه.

فالله هو المستحقّ للحمد؛ فإنَّه المستجمع لجميع صفات الكمال، بحيث لا يتطرّق إلى ساحة قدسه شائبة نقصٍ.

والله هو المنعم على جميع العوالم الظاهريّة، والباطنيّة، المجتمعة والمتدرِّجة، وهو مربّيها تكويناً، وتشريعاً.

والله هو المتّصف بالرحمة الواسعة غير القابلة للزوال.

والله هو المالك المطلق، والسلطان على الخلق، بلا شريكٍ ولا منازعٍ.

فهو المعبود بالحقّ؛ لكماله؛ وإنعامه؛ ورحمته؛ وسلطانه، فلا يتوجّه الإنسان العاقل إلا إليه، ولا يعبد إلا إيّاه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكّل إلا عليه؛ لأنَّ ما سوى الله ممكنٌ، والممكن محتاجٌ في ذاته، والاستعانة والعبادة لا تكونان إلا للغنيّ»[١].

«وعلى أيّ تقديرٍ، فلفظ الجلالة - الله - هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى التسعة والتسعين، أو الثلاثمائة والستيّن، الّتي مَن أحصاها دخل الجنّة - على ما رواه الفريقان -، وهذه الأسماء المباركة - كلّها - منطويةٌ في لفظ الجلالة انطواء الشعاع في نور الشمس، مع المسامحة في هذا التشبيه»[٢].

العبد والله:

ويمكن بيان بعض حظّ العبد السالك إلى الله تعالى، والمتخلّق بأخلاقه سبحانه، -وخصوصاً لفظ الجلالة الّذي هو جامعٌ لجميع كمالاته الجماليّة، والجلاليّة - في نقاطٍ:

أ- العبوديّة لله

يمكن تقريب معنى العبوديِّة لله تعالى بما نراه ونسمعه بعبوديّة فردٍ لآخر، مثله في الإنسانيّة، مع وجود فارقٍ بينهما نحاول الإشارة له قدر المستطاع في محلّه المناسب له، والحديث في جهاتٍ:

---

(١) البيان في تفسير القرآن- آية الله العظمى السيّد الخوئيّ، ص ٤٢٠- ٤٢١. بتصرّفٍ قليلٍ.

(٢) مواهب الرحمن- آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى الموسويّ السبزواريّ ج١، ص ١٧.

الجهة الأولى: ما عليه علماء الكلام – وكثيرٌ من الحضارات – من أنَّ العبد وما يملك فهو لمولاه، والمراد من هذا الكلام: أنَّ العبد لا يملك ذاته، فلا يحقّ له التصـرّف بما يحلو لنفسه، وبما يشتهي، ويرغب، بل عليه في كلّ تصرّفاته – كـبيرةً كانـت أو صغيرةً – أنْ يجعلها مطابقةً لرغبات سيِّده ومولاه ومالكه، وكلّ تصرّفٍ خلاف ذلك يُعدّ تجاوزاً لحقوق مالكه ومولاه.

ومِن جانبٍ آخر فإنّ كلّ ما هو في حوزته من أموالٍ، وأعيانٍ، وغير ذلك تكون من أملاك مولاه، لا يحقّ – ولا يجوز له – التصرّف فيها إلا بما يريده ويرتئيه مولاه، وكلّ تصرّفٍ خلاف ذلك يُعدُّ تعدّياً على حقوق مولاه، وهو ظلمٌ وقبيحٌ؛ وذلك لأنَّه أعطى لنفسه ما ليس لها، وتجاوز دائرة حدوده وصلاحيّاته.

وهذا من أحد أبرز جوانب العبوديّة لله تعالى، وهو أنَّ العبد يرى في نفسه ذلك حقيقةً وواقعاً، فالبشريّة جمعاء عبيد لله ﷻ، هـو مـالكهم حقيقـةً وواقعـاً، وليسـت ملكيّته ﷻ اعتباريّةً وجعليّةً، كما في ملكيّة البشر الاعتباريّـة للأشـياء الّـتي تحـت أيديهم.

فالأموال الّتي نملكها – بحسب الظاهر – ما هي إلا أموال وممتلكات قد أودعهـا الباري جلَّ وعلا عندنا أمانات، وملَّــكنا إيّاها ملكيّةً اعتباريّةً، لا حقيقيّةً، فالمُلـك لله تعالى وحده، فينبغي لنا التصرّف بهذه الأمور على وفق ما يرضاه ويرتئيه ﷻ، وإلا كان ذلك التصرّف منّا تصرفاً عدوانيّاً، قبيحاً، يقبِّحه كلّ عاقلٍ مُدركٍ.

فمقتضى العبوديّة هو: تسخير كلّ ما نملك من أجل الله، وفي طاعة الله، وإلاّ كنّا

قد

خرجنا من دائرة العبوديّة، ورأينا أنفسنا أحراراً لا عبيداً، والسعيد مَن رأى العبوديّة في نفسه، والتعيس مَن لم يرَ عبوديّتها لله ﷻ.

جاء في سبب توبة بشر الحافي أنّه اجتاز مولانا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على داره ببغداد، فسمع الملاهي، وأصوات الغناء، والقصب تخرج من تلك الدار، فخرجتْ جاريةٌ وبيدها قمامة، فرمت بها في الدرب.

فقال عليه السلام لها: يا جارية، صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ؟!

فقالت: بل حرٌّ.

فقال: صدقتِ، لو كان عبداً خاف مِن مولاه.

فلمّا دخلت قال مولاها – وهو على مائدة السكر –: ما أبطأك؟

فقالت: حدّثني رجل بكذا وكذا.

فخرج حافياً حتّى لقي مولانا الكاظم عليه السلام، فتاب على يده، واعتذر، وبكى لديه؛ استحياءً مِن عمله[1].

---

(١) الكنى والألقاب- الشيخ عبّاس القمّيّ ج ٢، ص ١٦٨- ١٦٩. وهذا تتمّة ما جاء في المصدر: قال الخطيب: إنّه كان ابن عمّ علي بن خشرم، وكان ممّن فاق أهل عصره في الورع والزهد، وتفرّد بوفور العقل وأنواع الفضل، قال: وكان كثير الحديث، إلا أنّه لم ينصب نفسه للرواية، وكان يكرهها، ودفن كتبه لأجل ذلك، وحكي عن إبراهيم الحربي قال: ما أخرجت بغداد أتمّ عقلاً، ولا أحفظ للسانه من بشر بن الحرث، في كلّ شعرةٍ منه عقلاً. وله كلماتٌ حكيمةٌ، منها: عقوبة العالم في الدنيا إن يعمى بصر قلبه. وقال: من طلب الدنيا فليتهيّأ للذلّ. وقال: اجعل الآخرة رأس

⬅

⬅

مالك، فما أتاك من الدنيا فهو ربحٌ. وقال: حسبك أنّ قوماً موتى يحيي القلوب بذكرهم، وأنّ قوماً أحياء يقسو القلوب برؤيتهم. وقال لأصحاب الحديث: أدّوا زكاة هذا الحديث. قالوا: وما زكاته؟ قال: اعملوا من كلّ مائتي حديثٍ بخمسة أحاديث، وقيل له: بأيّ شيءٍ تأكل الخبز؟ قال: أذكر العافية فأجعلها إداماً.

ويحكي عنه أنه كان يقول:

أقسم بالله لمصّ النوى ... وشرب ماء القلب المالحة

أعزّ للإنسان من حرصه ... ومن سؤال الأوجه الكالحة

فاستغنِ بالله تكن ذا الغنى ... مغتبطاً بالصفقة الرابحة

اليأس عزٌّ والتقى سؤددٌ ... ورغبة النفس لها فاضحة

من كانت الدنيا له برّة ... فإنّها يوماً له ذابحة

وسُئل عن القناعة، فقال: لو لم يكن في القناعة شيءٌ إلاّ التمتّع بعزّ الغناء، لكان ذلك يجزي، ثمّ أنشأ يقول:

أفادتني القناعة أيّ عزٍّ ... ولا عزّ أعزّ من القناعة

فخذ منها لنفسك رأس مالٍ ... وصيّر بعدها التقوى بضاعة

تحز حالين تغنى عن بخيل ... وتسعد في الجنان بصبر ساعة

روى الخطيب عن محمّد بن نعيم قال: دخلت على بشر في علّته، فقلت: عظني. فقال: إنّ في هذه الدار نملةً تجمع الحبّ في الصيف؛ لتأكله في الشتاء، فلمّا كان يومٌ أخذت حبّةً في فمها، فجاء عصفورٌ، فأخذها والحبّةَ، فلا ما جمعت أكلت، ولا ما أملت نالت. قلت: زدني. قال: ما تقول فيمن القبر مسكنه، والصراط جوازه، والقيامة موقفه، والله مسائله، فلا يعلم إلى الجنّة فيهنأ، أو إلى النار فيعزّى؟! فوا طول حزناه، وأعظم مصيبتاه، زاد البكاء فلا عزاء، واشتدّ الخوف فلا أمن. انتهى.

توفّي سنة ٢٢٧ (ركز) وهو ابن ٧٥ سنة، وقبره ببغداد.

فالعبد الحقيقيّ هو من يجعل جميع طاقاته، وممتلكاته، وهواه، ورغبته، وزهده في دائرة إرادة مولاه، ورضا سيّده، ممتثلاً لأوامره، ومنتهياً عن نواهيه.

وتراه كلّما استشعر العبوديّة أكثر، ورأى كرم وجود مولاه أوفر مما بذله من طاعةٍ وانقيادٍ، ازداد حبّاً لطاعته سبحانه، ويجعل هواه مطابقاً لهواه، فيجعل مستحبّات مولاه في حكم الأوامر، ومكروهاته بحكم النواهي الإلزاميّة، ويجعل مباحاته تصبّ في دائرة رضا مولاه الجواد الكريم، لينال بذلك القربى والزلفى لديه أكثر فأكثر، ويتسابق مع أقرانه العبيد لكسب رضا مولاهم.

واعلم أنَّ لهذه العبودية أثراً وعطاءً منقطع النظير، لا تجد شيئاً منها عند الموالي الاعتياديّين الاعتباريّين، وهيهات هيهات أنْ يكون لعطائه مثيلٌ، أو نظيرٌ، وكيف يمكن أنْ يُساوى أكرم الأكرمين مع أحدٍ من عالم النقص، والفقر، والإمكان.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله عزّ وجلّ: **«وعزّتي، وجلالي، وعظمتي، ونوري، وعلوّي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبدٌ هوايَ على هواه إلا استحفظته ملائكتي، وكفلت السماوات والأرضين رزقه، وكنتُ له من وراء تجارة كلّ تاجرٍ، وأتته الدنيا وهي راغمة»**[1].

انظر إلى هذا العطاء الوافر، أيمكن لأحدٍ من الخلق إعطاؤك معشار ذلك؟! ثمّ انظر لمن ذلك العطاء؟! هو لذلك العبد الّذي يؤثر هوى سيّده على هواه، ورغباته

---

(١) وسائل الشيعة – الشيخ الحرّ العامليّ ج ١٥، ص ٢٧٩، ح٣. والروايات كثيرةٌ في المقام، اكتفينا بواحدةٍ للاختصار، يمكنك الرجوع إلى المصدر للاستزادة.

سبحانه على رغباته وميوله.

كما أنَّ الويل والهوان لِمَن لا يعيش العبوديّة لله تعالى، ويتصرّف تصرّف الأحرار مع مولاه، ويقدِّم هواه على هوى خالقه ومَن ربّاه.

روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله عزّ وجلّ: «**وعزّتي، وجلالي، وكبريائي، ونوري، وعلوّي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبدٌ هواه على هواي إلا شتّت عليه أمره، ولبست عليه دنياه، وشغلت قلبه بها، ولم آته منها إلا ما قدّرتُ له**»(١).

الجهة الثانية: إنَّ مقتضى العبوديّة هو الاستعانة، واللجوء، والرجوع إلى مولى الموالي، ومالك الملوك، في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وعدم اللجوء والاستعانة بالعبيد، والموالي أمثالنا، الّذين لا يملكون الخير لأنفسهم، فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم، وتصوُّر أنّهم قادرون على جلب خيرٍ، أو دفع شرٍ من دون إرادة الله، أو إجازته، يُعدُّ استخفافاً بمولى الموالي، وهو حرامٌ، وذنبٌ عظيمٌ، يسلِب الإنسان التوفيق، ويجعله من المحرومين، والهالكين.

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: قال الله عزّ وجلّ: «**ما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني إلا قطعت أسباب السماوات وأسباب الأرض من دونه، فإنْ سألني لم أعطه، وإنْ دعاني لم أجبه، وما من مخلوقٍ يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنتِ السماوات والأرض رزقه، فإنْ دعاني أجبتُه، وإنْ سألني أعطيتُه، وإنْ استغفرني غفرتُ له**»(٢).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ٩٠، ص ٣٠٤، ح ٣٩.

وفي الحديث القدسيّ: «**يا موسى، سَلْني كلّ ما تحتاج إليه حتّى عَلَفَ شاتك، وملح عجينك**»[1].

ولهذا تجد أنَّ بطل الموحّدين - إبراهيم الخليل عليه السلام - لم يطلب حتّى من جبرائيل الملك المقرّب حاجته ونجاته مِن نار نمرود، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ أول منجنيق عُمِلَ في الدنيا منجنيق عُمِلَ لإبراهيم بسور الكوفة، في نهرٍ يُقال له كوثى، وفي قريةٍ يقال لها قنطانا، قال: عمل إبليس المنجنيق، وأجلس فيه إبراهيم عليه السلام، وأرادوا أنْ يرموا به في نارها، أتاه جبرائيل عليه السلام، قال: السلام عليك يا إبراهيم، ورحمة الله وبركاته، ألك حاجةٌ؟**

قال: ما لي إليك حاجةٌ، بعدها قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[2]»[3].

وإنَّ زهد العظماء، وعدم اعتنائهم، ولا اكتراثهم بالبشر؛ لعلمهم أنَّهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً، وعلى العاقل المُدرك الرجوع إلى مولى الموالي جلّ جلاله، ولهذه الحقيقة يشير الإمام زين العابدين عليه السلام في صحيفته قائلاً:

«**مولاي، مولاي، أنت المولى، وأنا العبد، وهل يرحم العبدَ إلاّ المولى؟! مولاي، مولاي، أنت العزيز، وأنا الذليل، وهل يرحم الذليلَ إلا العزيز؟! مولاي، مولاي،**

---

(١) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ٩٠، ص ٣٠٤، ح ٣٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية٦٩.

(٣) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ١٢، ص ٣٦، ح ١٤.

أنت الخالق، وأنا المخلوق، وهل يرحم المخلوقَ إلا الخالق؟! مولاي، مولاي، أنت المعطي، وأنا السائل، وهل يرحم السائلَ إلا المعطي؟! مولاي، مولاي، أنت المغيث، وأنا المستغيث، وهل يرحم المستغيثَ إلا المغيث؟! مولاي، مولاي، أنت الباقي، وأنا الفاني، وهل يرحم الفاني إلا الباقي؟! مولاي، مولاي، أنت الدائم، وأنا الزائل، وهل يرحم الزائلَ إلا الدائم؟! مولاي، مولاي، أنت الحيّ، وأنا الميّت، وهل يرحم الميّتَ إلا الحيّ؟! مولاي، مولاي، أنت القويّ، وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيفَ إلا القويّ؟! مولاي، مولاي، أنت الغنيّ، وأنا الفقير، وهل يرحم الفقيرَ إلا الغنيّ؟! مولاي، مولاي، أنت الكبير، وأنا الصغير، وهل يرحم الصغيرَ إلا الكبير؟! مولاي، مولاي، أنت المالك، وأنا المملوك، وهل يرحم المملوكَ إلا المالك؟!»[(١)].

إذن يجب الرجوع إلى الله تعالى – دون غيره – في جميع شؤون الحياة ومجالاتها.

الجهة الثالثة: نيّة امتثال العبد لأوامر مولاه ومالكه، يمكن تصويرها على أنحاء، منها:

الخوف: وهو الخوف من عدله، وغضبه، في فرض مخالفة أوامره ونواهيه، فيتقرّبُ إليه من خلال الانقياد والانصياع لكلّ الأوامر والنواهي، فهذه النيّة وإنْ كانت موجبةً لرضا المولى بانقياد العبد إليه، ويتحقّق الغرض منها – وهو الانقياد له سبحانه –، إلا أنَّ ذلك الانقياد، والامتثال، والطاعة، من المراتب الضعيفة للعبد؛ إذ لولا ذلك الخوف من عدله ﷻ، أو من غضبه، لما انقاد إلى تلك الأحكام، فالانقياد منشؤه دفع ضررٍ عن النفس لا أكثر.

---

(١) الصحيفة السجّاديّة – الإمام زين العابدين عليه السلام، ص ٣٨٦– ٣٨٨، دعاء التذلّل.

الرغبة: وهو الميل إلى النعيم الدائم والوافر، الّذي أعدّه أكرم الأكرمين للمطيعين في جنّته، تلك الجنّة الّتي عرضها السموات والأرض، فيتقرّب إلى الباري من أجل نيل الخيرات، والبركات الأخرويّة والدنيويّة، الّتي هي أضعاف أضعاف عمله، ويصل العبد إلى هدفه، والنعيم الدائم السرمديّ.

إلا أنَّ هذه النيّة، وهذا النحو من العمل، وإنَّ كان مقرّباً إلى الله تعالى، ولكنّها تقرّب بدرجةٍ ضعيفةٍ، حيث إنَّ منشأ الانقياد والطاعة هو حبّ الخير للنفس، وجلب المنفعة لها، ولو لاها لما أطاع المولى، وانقاد لأوامره ونواهيه.

الشكر والحبّ: وهو نحو تعلّقٍ وانجذابٍ إلى المولى جلّ وعلا؛ لما يرون من جوده، وكرمه، وإحسانه، وبرِّه، ولطفه، ومدى اهتمامه بعبيده وخلقه اهتماماً لا مثيل ولا شبيه له في العوالم السفليّة، ولا العلويّة، فتتعلق قلوبهم به؛ لأنّه أهلٌ للعبادة والطاعة، ولما تتجلّى لهم من كمالات المولى الّتي لا تستطيع العقول إدراكها وتصوّرها، فتنجذب إليه، وتتعلّق به حبّاً وشوقاً له، لا لشيء آخر من جنّةٍ، أو نارٍ، أو غير ذلك، وإنْ خافوا النار، ورغبوا في الجنّة.

ومن الواضح أنّ المولى جلّ وعلا لا يساوي بين تلك المراتب من الانقياد والعبوديّة له تبارك وتعالى، وإنْ كانت تشترك جميعاً بمرتبةٍ من القرب والرضا عند المولى، إلا أنَّ القرب الّذي يحظى به الأخير لا يمكن أنْ يناله أولئك الّذين انقادوا خوفاً، أو طمعاً.

روي عن الصادق عليه السلام: «**إنَّ الناس يعبدون الله عزّ وجلّ على ثلاثة أوجهٍ: فطبقةٌ يعبدونه رغبةً في ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء، وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار، فتلك عبادة العبيد، وهي رهبةٌ، ولكنّي أعبده حبّاً له عزّ وجلّ، فتلك عبادة**

الكرام، وهو الأمن؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[(١)]؛ ولقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[(٢)] فمَن أحبّ الله عَزَّوَجَلَّ أحبّه الله، ومَن أحبّه الله تعالى كان من الآمنين»[(٣)].

ويمكن للإنسان بلوغ تلك المرتبة بإمعان النظر في نعم الله تعالى عليه، فإنَّ الإنسان مجبولٌ على حُبٍّ من أحسن إليه، وإلى هذه الحقيقة الفطريّة أشار مولى الموحّدين، وأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ قال: «**الإنسان عبد الإحسان**»[(٤)].

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**بالإحسان تملك القلوب**»[(٥)].

فالإحسان من جملة الوسائل الّتي ملك الباري عَزَّوَجَلَّ بها قلوب العارفين، والصدّيقين، والأبرار.

واعلم: أنَّ العبادة المنبثقة عن الشوق، والحبّ، والرغبة، لها الدور الفاعل في ارتقاء الإنسان، وكماله بشكلٍ مذهلٍ وعجيبٍ، يشير السيّد الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ذلك قائلاً:

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٣) وسائل الشيعة -الشيخ الحرّ العامليّ ج ١، ص ٦٢، ح٢.

(٤) عيون الحكم والمواعظ -عليّ بن محمّد الليثيّ الواسطيّ، ص ٦١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٨٦. يمكنك معرفة نعم الله - تعالى - عليك، وكذلك معرفة بعض أسرار الخلق، والحكم الداعية لخلقها، بالرجوع إلى كتاب توحيد المفضّل بن عمر، وقد أشرنا - وسنشير - إلى الكثير من تلك الأسرار والمعارف الواردة في تلك الرواية في هذا الكتاب.

«من الآداب القلبيّة للصلاة وسائر العبادات وله نتائج حسنة، بل هو موجبٌ لفتح بعض الأبواب، وكشف بعض أسرار العبادات، أنْ يجتهد السالك في أنْ تكون عبادته عن نشاطٍ وبهجةٍ في قلبه، وفرحٍ وانبساطٍ في خاطره...

وإنَّ الأنس بالحقّ وبذكره من أعظم المهمّات، ولأهل المعرفة بها عنايةٌ شديدةٌ، وفيها يتنافس المتنافسون من أصحاب السير والسلوك، وكما أنَّ الأطباء يعتقدون بأنَّ الطعام إذا أكل بالسرور والبهجة يكون أسرع في الهضم، كذلك يقتضي الطبّ الروحانيّ بأنَّ الإنسان إذا تغذّى بالأغذية الروحانيّة - بالبهجة والاشتياق محترزاً من الكسل والتكلُّف - يكون ظهور آثارها في القلب، وتصفية باطن القلب بها أسرع»[1].

التألُّه:

قال الغزالي: «ينبغي أن يكون حظُّ العبد من هذا الاسم - **الله** - التألُّه، وأعني به أنْ يكون مستغرق القلب والهمّة بالله تعالى، لا يرى غيره، ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو، ولا يخاف إلا إيَّاه.

وكيف لا يكون كذلك؟! وقد فهم من هذا الاسم أنّه الموجود الحقيقيّ الحقّ، وكلّ ما سواه فإنّه هالكٌ، وباطلٌ إلا به، فيرى أوّلاً نفسه أوّل هالكٍ وباطلٍ، كما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: أصدق كلمةٍ قالها الشاعر كلمة لبيدٍ: ألا كلّ شيء ما

(١) الآداب المعنويّة للصلاة - آية الله العظمى الإمام الخمينيّ قدس سره، ص ٥٦- ٥٧.

خلا الله باطل»[١].

وقد ثبت في الفلسفة وعلم الكلام أنَّ كلّ ما في عالم الوجود من المخلوقات هي معاليل لعلَّة العلل، وهو الله ﷻ، فهي لم تكن موجودةً فوجدت، أخرجها الله ﷻ من ظلمة العدم إلى نور الوجود، فبقاؤها رهن بقاء العلّة، وإفاضة الوجود عليها، فالموجودات موجوداتٌ متزلزلة الوجود والبقاء، مرتبطةٌ بالعلّة وجوداً واستمراراً، من قبيل المصباح الكهربائيّ الّذي إضاءته مرهونةٌ بجريان التيار الكهربائيّ، ولو لاه لما كان له حظٌّ من الإضاءة والإنارة، فهو وجودٌ ينتظر الفناء لحظةً بلحظةٍ، وآناً بعد آنٍ.

وهكذا الإنسان الّذي هو أشرف المخلوقات، وجوده وبقاؤه لم يكن من فيض إرادته، فهو متزلزل البقاء، يترقّب لحظةً بلحظةِ الأمر الإلهيّ، الّذي يأمر ملائكة الموت لإيقاف ضربات القلب، أو جهاز التنفّس، فيفنى، ويموت، ولا يدري هذا المسكين متى وأين يأتي هذا النداء، وتمتثّل الملائكة الأمر، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[٢].

فالوجود الحقيقيّ الّذي لا يعرف الموت والفناء وغير ذلك من النقص والإمكان، هو الله تعالى، ولا شيء سواه.

فحريٌّ بالعاقل أنْ يرتبط ويتّصل بالباقي الأزليّ؛ ليكون لاتّصاله بقاءٌ

---

(١) المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى- الغزاليّ، ص ١٠٣.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٦- ٢٧.

واستمرارٌ، ويستمدّ منه العون، والمدد.

ولا يختلجه خوفٌ، أو رعبٌ مِن غيره؛ إذ أنَّ كلّ موجودٍ باقٍ، فهو رهن إرادة الله ﷻ، وكلّ فعلٍ لو لا إرادته لما كان له تحقّقٌ أو وجودٌ، والشواهد كثيرةٌ جداً.

المرعشيّ في عهد البهلويّ:

ينقل صاحب كتاب القبسات، عن آية الله العظمى، السيد شهاب الدين المرعشيّ رحمه الله: «أنّه في عصر البهلوي رضا خان عليه اللعنة والعذاب، حينما أمر بكشف الحجاب، وترويج السفور في بلاد إيران، باسم - تحرير المرأة -، بأمرٍ من أسياده المستعمرين؛ لإشاعة الفحشاء والمنكر، ومن ثمّ سلب ثروات الأمّة الإسلاميّة، وتزلزل قيمتها الأخلاقيّة، وتحطيم المثل الإنسانيّة، ونزع الروح الدينيّة...

في ذلك العصر المكفهرّ، كان رئيس شرطة قمّ المقدّسة من الأنذال المجرمين، وكان طويل القامة، ضخم الجثّة، فسمعتُ يوماً بعد صلاة الجماعة في حرم السيدة المعصومة عليها السلام عويل وصراخ النساء، فاستفسرت عن ذلك، فقالوا: إنَّ فلان - رئيس الشرطة - دخل قسم النساء بقصد كشف حجابهنّ، فأسرعتُ إليه، فوجدتُه يكشف القناع عن الرؤوس، والنساء يبكين خوفاً وذرعاً، فانتفخت أوداجي غيظاً، ومن حيث لا أدري رفعتُ يدي وصفعتُ وجهه صفعةً داخ منها، وقلتُ له: ويحك، يا قبيح، في حرم السيّدة تتجاسر؟!

فنظر إليّ وقال: أنا لك يا سيّد. وعلمتُ أنّه قصد قتلي.

ومن لطف الله سبحانه في اليوم الثاني، أُخبرتُ أنّه دخل السوق، وسقط عليه

بعض السقف، فمات من حينه، فإلى جهنم وبئس المصير»[١].

وينقل عن الشيخ محسن اليزدي، صاحب - مثير الأحزان - أنّه عندما رأى ﵀ حاكم يزد يمعن في ظلم الناس، عبّأ الناس، واستنفرهم ضدّه، حتى أخرجه من اليزد ذليلاً، وعندما وصل الحاكم إلى بلاط الشاه، لم يحدِّثه بظلمه للناس بطبيعة الحال، وإنّما أوغر صدره على الشيخ...

وقرّر الشاه إحضار قائد الثورة في يزد إلى طهران؛ ليحاصر التحرّك الجماهيريّ.

وفي أوّل لقاءٍ بين الشيخ والشاه، أغلظ الشاه للشيخ في القول، وطلب منه أنْ يحدِّثه بما جرى، وكان الشاه يريد أنْ يسمع من الشيخ محاولة تبرئة نفسه.

قال الشيخ بمنتهى الشهامة: أنا أخرجته من المدينة؛ لأنّه حاكمٌ ظالمٌ، ضجّ الفقراء من ظلمه؛ لذلك ثرت عليه، أمام هذه الصلابة والصراحة، استبدّ الغضب بالشاه، وأمر جلاوزته أنْ يحضروا الفلقة لمعاقبة الشيخ.

أحضرتْ الفلقة، وجُهّزت، وأصبحتْ رجلا الشيخ جاهزتين للضرب والتعذيب.

فقال الشاه لأمين الدولة الأصفهانيّ: يقيناً ليس للشيخ أيّ دخلٍ فيما جرى، فهو لا يلوّث نفسه بما حدث، إنّما كان ذلك من الأوباش، والناس العاديّين.

كان يريد بذلك أنْ يلقِّن الشيخ أنْ يقول ولو بكلمةٍ واحدةٍ: صحيح، لا دخل لي، أنا بريءٌ.

---

(١) قبساتٌ من حياة سيّدنا الأستاذ آية الله العظمى السيّد شهاب الدين المرعشيّ النجفيّ- العلاّمة السيّد عادل العلويّ.

وأدرك - أمين الدولة - قصد الشاه، فهزَّ رأسه موافقاً، وقال: إنَّه وفيّ لجلالة الشاه المقدّس، ولا يصدر منه أيّ سوءٍ للمقام الملكيّ العظيم.

وفجأةً صرخ الشيخ مغضباً، ورجلاه في الفلقة: لماذا يكذب السلطان؟! أنا أخرجت الحاكم، أنا بنفسي، الناس لا ذنب لهم.

وفوجئ الشاه بهذا الإصرار، إلا إنَّه أفهم أمين الدولة أنْ يتوسط لإنقاذ الشيخ.

فخاطب أمين الدولة الشاه: إنَّه محترمٌ، ومن كبار العلماء، اعفُ عنه إكراماً لي، امنحه العفو الملكيّ. فأطلق سراح الشيخ، وعاد إلى منزله»[1].

إذنْ على المتألّه أنْ يعلم علماً لا يشوبه شكٌّ ولا ريبٌ أنَّ (لا إله إلا الله) تعني لا معبود إلا الله، وأنّ (لا إله إلا الله) تعني أنْ لا مؤثّر في الوجود إلا الله تعالى، وأنّ (لا إله إلا الله) تعني لا رازق في الكون إلا الله تعالى، وأنّ (لا إله إلا الله) تعني...

استجماع الكمالات:

ممّا أجمع عليه علماء الكلام والعرفان أنَّ لفظ الجلالة - **الله** - مستجمعٌ لجميع الكمالات من دون أيّ استثناءٍ، فذاته المقدّسة متصفةٌ بجميع الأسماء الحسنى، من قبيل الرازق، والرحمن، والرحيم، والودود، والجبّار، و...

ومن هنا نعلم أنَّ العبد المتخلّق بأسماء الله تعالى، والمتألّه القاصد للقرب الإلهيّ، لا بدّ له - لنيل القرب والزلفى لديه سبحانه - من السعي الحثيث نحو الاتّصاف

---

(١) سيماء الصالحين- الشيخ رضا مختاري ص ٤١٤- ٤١٥.

بجميع صفاته العليا، وأسمائه الحسنى، وهو غاية المطلوب، ونهاية المقصود لدى العرفاء، والحكماء، والفلاسفة، لذا يقول العارف الكامل، المتألّه البارز، والفيلسوف المتألّه، الملا هادي السبزواري ما يلي:

«قالوا: الفلسفة هي التشبّه بالإله، أو التخُّلق بأخلاق الله، علماً، وعملاً، وجعلوا أخيرة مراتب العمل...»[1].

فكيف لا يمكن تصوُّر لفظ الجلالة وذاته المقدّسة من دون تلكم الصفات والأسماء؟! فلا يمكن أنْ يُتصور عبدٌ متألّهٌ، وسالكٌ وفانٍ في ذات الله تعالى، وهو غير مستجمعٍ لتلك الأسماء والكمالات.

ولتقريب الفكرة نقول: النموّ والتكامل المعنويّ يشبه النموّ والتكامل المادّي في هذه الجهة، فكما أنَّ جميع أعضاء البدن تسعى نحو الكمال بنحوٍ متناسقٍ ومنتظمٍ إلى كماله المنشود، وأنَّ أيّ اختلالٍ في هذا النموّ التكامليّ يعدّ نقصاً، ومستهجناً لدى العُرف، وأنّه مخالفٌ لطبيعة وقانون نموّ البدن، كما لو تصوَّرنا نُموّ بعض أجزائه وتكامله كاليدين والرأس دون سائر الأعضاء.

وكذلك الحكم في مَنْ اتَّصف ببعض تلك الصفات، وتخلَّق بها، ولم يسعَ في تكميل الصفات الكماليّة الأخرى في سيره التخلـّقيّ التكامليّ إلى الله تعالى.

ولعلّ من أسرار بعثة الرسول الكريم هو سوق البشريّة إلى تكميل كمالاتهم الّتي لم تكن بعدُ قد اكتملتْ من خلال الأديان السماويّة الأخرى، لهذا يبيِّن – عليه

---

(١) شرح الأسماء الحسنى– الملا هادي السبزواريّ ج ٢، ص ٢٣.

وآله أفضل الصلاة والسلام - أهمّ هدفٍ بُعثَ من أجله، فقد روي أنّه قال: «**إنّما بُعِثْتُ لأتمّم مكارم الأخلاق**»[١].

ولهذا تجد الحث على تحصيل بقيّة مكارم الأخلاق، وإنَّ البعض منها مقدّمةٌ، وطريقٌ للبقيّة.

كما عن علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إذا دعاك القرآن إلى خلَّةٍ جميلةٍ فخذ نفسك بأمثالها**»[٢].

أيّها العزيز: وإذا رأيت في نفسك خُلق كمالٍ، وصفة جمالٍ باديةٍ ظاهرةٍ، فاستبشر الخير، فإنَّ ذلك كاشفٌ عن وجود أرضيّةٍ مناسبةٍ للرّقيّ والكمال عندك، وإنَّ أول الغيث قطرة، والبقيّة في الطريق إن شاء الله تعالى.

وأُبشِّرك بذلك، ففي الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا كان في الرجل خلّةٌ رائعةٌ فانتظر أخواتها**»[٣].

وهذا النحو من الخطاب فيه إشارةٌ إلى وجود نحو ترابطٍ بين الأخلاق بعضها ببعضٍ، وهذا ما يسهّل على الإنسان التحلّي بمكارم الأخلاق جميعاً بعد أنْ تحلّى ببعضها، وترك أضدادها، كما عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ خصال المكارم بعضها**

---

(١) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ٦٨، ص ٣٨٢.

(٢) ميزان الحكمة – الريشهري ج١، ص٨٠٩.

(٣) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج٦٩، ص ٤١١.

مقيَّدٌ ببعضٍ»[1].

استغراق القلب بالله:

كما على المؤمن السالك طريق الله تعالى ورضاه، وطالب التقرّب منه دون سواه، بعد أنْ انكشف له أنّه ﷻ هو المتصرِّف الوحيد في عالم الإمكان على نحو الحقيقة، وأنّه الوحيد المستجمع للكمالات دون غيره، أنْ يرتبط به ويكون مستغرق القلب، والنفس، والفكر به دون سواه، فسواه ليس إلا آيةً وعلامةً على حكمته وقدرته وعلمه ﷻ، وكاشفاً عن جميع كمالاته، وأسمائه الحسنى، فالعارف ينظر إلى عالم المخلوقات نظرة الطريقيّة والمرآتية لوجود الله تعالى، وتجلّياته الجماليّة، والجلاليّة، فينظر من خلالها إلى عظمة الخالق، وقدرته، وعلمه، وحياته، وحكمته، وغير ذلك من صفات الكمال، ولهذه الرؤية العرفانية يشير مولى الموحِّدين عليه السلام: «**وما رأيتُ شيئاً إلا ورأيت الله قبله**»[2].

بل له سبحانه من الظهور والتجلّي عندهم بما لا يشوبه الشكّ والريب، ويكشف الستار عن هذه الحقيقة أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «**لو كُشِفَ لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً**»[3].

ويشير ابنه سيّد الشهداء، الحسين بن عليٍّ عليه السلام أنَّ التعرّف على الله تعالى من

---

(١) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج٦٩، ص ٣٧٥.

(٢) شرح أصول الكافي- مولى محمّد صالح المازندرانيّ ج ٣، ص ٨٣.

(٣) مستدرك سفينة البحار- الشيخ علي النمازي ج ٥، ص١٦٣.

خلال الآثار من المراتب الدانية عند البشر؛ فإنّهم إنِ استدلّوا عليهم السلام بذلك النحو، فهذا من باب تنبيه الغافل، وإرجاعه إلى صوابه، وفطرته، وإلاّ فإنَّ شأنهم أرفع وأجلّ من هذه المرتبة.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهِر لك؟! متى غبت حتّى تحتاج إلى دليلٍ يدلّ عليك؟! ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك؟! عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً**»[1].

ومثله قول بعض الأولياء: «**رأيتُ ربّي بربّي، ولولا ربّي ما رأيت ربّي**»[2].

موانع الرؤية والاستغراق:

ويشير الإمام زين العابدين عليه السلام إلى أحد تلك المناشئ الّتي تحجبنا عن تلك

---

(١) بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ٥٩، ص ٢٢٥- ٢٢٦. فقرةٌ من دعاء عرفة. للإمام الحسين عليه السلام.

(٢) شرح أصول الكافي- مولى محمّد صالح المازندرانيّ ج ٣، ص ٨٣. واعلم - يا أخي - أنّ المراد من الرؤية ليست الرؤية البصريّة؛ فإنّها محالةٌ على الله تعالى، وهذا ما عليه مذهب أهل البيت عليهم السلام؛ إذ أنّ ذلك من شؤون الجسمانيّات، والله - تعالى - منزّهٌ عنه، وليس كمثله شيءٌ، ففي الخبر عن الأصبغ- في حديثٍ- قال: قام إليه رجلٌ يُقال له: ذعلب، فقال: يا أمير المؤمنين، هل رأيت ربّك؟ فقال: ويلك يا ذعلب، لم أكن بالّذي أعبد ربّاً لم أره. قال: فكيف رأيته؟ صفه لنا. قال: ويلك، لم تره العيون بمشاهدة الإبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان.- بحار الأنوار- العلاّمة المجلسيّ ج ٤/ ٢٧، ح٢.

المرتبة السامية قائلاً في دعائه عليه السلام: «**وإنّك لا تحتجب عن خلقك، وإنّما تحجبهم الآمال دونك**»(١).

فالآمال والأماني غير الصحيحة، والذنوب والانقياد إلى الوساوس المنحرفة، هي من جملة أبرز تلك العوامل، وقد أشرنا سابقاً للحديث المرويّ عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله: «**لولا أنَّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض**»(٢).

إذنْ فقلب الإنسان محطّ تجلّي الله تعالى، وبيته الّذي اختاره لنفسه دون السماوات والأرض، ولكن بشرط أنْ يُفرغ البيت لصاحبه، ولا يُسكِنُ فيه غيره، وحينئذٍ يتجلَّى النور الإلهيّ في قلب العبد، ويقول: ألغيرك من الظهور ما ليس لك؟!

ففي الخبر: «**إنّه أوحى الله تعالى إلى داوود: يا داود، فرّغ لي بيتاً أسكن فيه، فقال عليه السلام: إنّك تجلّ عن المكان والمسكن!**

فأوحى الله إليه: يا داوود، فرّغ لي قلبك»(٣).

وروي أيضاً في حديثٍ قدسيّ: «**لم يسعني سمائي، ولا أرضي، وسعني قلب عبدي**»(٤).

---

(١) الصحيفة السجّاديّة (أبطحيّ)- الإمام زين العابدين عليه السلام، ص٥٢٦: دعاؤه في الشكوى.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج٦٠، ص ٣٣٢.

(٣) شجرة طوبى- الشيخ محمد مهدي الحائري ج ١، ص ١٥.

(٤) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٥٥، ص ٣٩.

وهذا يكشف جانباً آخر من سرٍّ تلك العبادات العجيبة للأنبياء، والأئمّة، والعلماء الأبرار عليهم السلام، من قبيل ما روي من سيرة مولانا أبي الحسن، الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عن أحمد بن عبد الله الغرويّ، عن أبيه، قال: «**دخلتُ على الفضل بن الربيع وهو جالسٌ على سطحٍ، قال لي: ادنُ، فدنوتُ حتّى حاذيتُه، ثم قال لي: اشرف إلى بيت الدار، فأشرفت.**

فقال: ما ترى في البيت؟

فقلت: ثوباً مطروحاً.

فقال: انظر حسناً.

فتأمّلتُ، ونظرتُ، فتيقّنتُ، فقلتُ: رجلٌ ساجدٌ.

فقال لي: تعرفه؟

قلت: لا.

قال: مولاك.

قلت: ومَن مولاي؟

فقال: تتجاهل عليّ؟

فقلت: ما أتجاهل، ولكنّي لا أعرف لي مولىً.

فقال: هذا أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، إنّي أتفقّده الليل والنهار، فلا أجده في وقتٍ من الأوقات إلا على الحال الّتي أخبرك بها، إنّه يصلي الفجر فيعقّب ساعةً

دبر الصلاة، إلى أنْ تطلع الشمس، ثم يسجد سجدةً فلا يزال ساجداً حتّى تزول الشمس، وقد وكَّلَ من يترصَّد له الزوال، فلستُ أدرى متى يقول الغلام: قد زالت الشمس! إذ يثب فيبتدئ الصلاة من غير أنْ يُحدِث، فأعلم أنّه لم يَنَمْ في سجوده، ولا أغفى، ولا يزال إلى أنْ يفرغ من صلاة العصر، فإذا صلّى سجد سجدةً، فلا يزال ساجداً إلى أنْ تغيب الشمس، فإذا غابت الشمس وثب مِن سجدته، فصلّى المغرب من غير أنْ يحدث حدثاً، ولا يزال صلاته وتعقيبه إلى أنْ يصلّي العتمة، فإذا صلَّى العتمة أفطر على شويٍ يؤتى به، ثمّ يجدّد الوضوء، ثمّ يسجد، ثمّ يرفع رأسه، فينام نومته خفيفةً، ثمّ يقوم، فيجدّد الوضوء، ثمّ يقوم، فلا يزال يصلّي في جوف الليل، حتّى يطلع الفجر، فلستُ أدري، متى يقول الغلام: إنَّ الفجر قد طلع! إذ قد وثب هو لصلاة الفجر، فهذا دأبه منذ حُوِّلَ إليَّ.

فقلتُ: اتّق الله، ولا تحدثنّ في أمره حدثاً يكون فيه زوال النعمة، فقد تعلم إنَّه لم يفعل أحدٌ بأحدٍ منهم سوءاً إلا كانت نعمته زائلةً...»[١].

وقد نقل عن بعض العلماء الأبرار رحمهم الله أنّهم لم يمدّوا أرجلهم؛ تأدُّباً؛ لعلمهم بحضور الله تعالى في محضرهم، كما عن المقدَّس الأردبيليّ، فإنَّه لم يمدّ رجله مدّة أربعين سنة، ولم يصدر عنه فيها فعلٌ مباحٌ، فضلاً عن الحرام والمكروه[٢]، وغيره كثيرون.

(١) عيون أخبار الرضا- الشيخ الصدوق ج ٢، ص ٩٨- ٩٨. وبحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٤٨، ص ٢١١، ح٩.

(٢) لآلئ الأخبار- الشيخ محمد نبي التوسيركاني ج١، ص ١١٥.

فهم كما يصفهم أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد النخعي: «**وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقةٌ بالمحلّ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آهِ، آهِ، شوقاً إلى رؤيتهم**»(١).

وفي روايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**العارف شخصه مع الخلق، وقلبه مع الله، لو سَها قلبُه عن الله طرفة عينٍ لمات شوقاً إليه، والعارف أمين ودائع الله، وكنز أسراره، ومعدن نوره، ودليل رحمته على خلقه، ومطيّة علومه، وميزان فضله، وعدله، قد غني عن الخلق، والمراد، والدنيا، فلا مؤنس له سوى الله، ولا نطق، ولا إشارة، ولا نفس إلا بالله، ولله، ومن الله، ومع الله، فهو في رياض قدسه متردّدٌ، ومن لطائف فضله إليه متزوّدٌ، والمعرفة أصلٌ فرعه الإيمان**»(٢).

أهمّيّة الصبر والعزم:

ولا يخفى عليك - أيّها القارئ الكريم - أنَّ هذه المراتب لا تتأتّى بسهولةٍ ويسرٍ، ومن هنا، تتجلّى أهمّيّة الصبر، والعزم في الوصول إلى المراتب العالية، فإنَّ تلك المراتب كسائر المراتب الكماليّة في حياة الإنسان، لا يمكن بلوغها إلا بصبرٍ، وحزمٍ دائمين.

ينقل أعجوبة العصر، آية الله العظمى، روح الله الموسويّ الخمينيّ قدس سره عن أحد أساتذته العظماء - مشيراً إلى أهمية ذلك -: «يقول أحد مشايخنا - أطال الله في

---

(١) نهج البلاغة- محمد عبده ج ٤، ص ٣٧- ٣٨. الخطبة: ١٤٧.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٣، ص ١٤، ح ٣٥.

عمره-: إنَّ العزم هو جوهر الإنسانيَّة، ومعيار ميزة الإنسان، وإنَّ اختلاف درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه»[١].

أقول: لعلَّ أحد أبرز الأمور الّتي أثَّرت إيجابيّاً في سلوك هذا العالم الربّانيّ العظيم - الّذي حقَّق أمنية الأنبياء على وجه الأرض، بإقامته الحكومة الإلهيّة على هذا الكوكب الترابيّ - هو هذه الكلمة الّتي ينبغي أنْ تُكْتَبَ بماء الذهب، ويجعلها الإنسان نصب عينيه، ولا يغفل عنها أبداً.

وفي اعتقادي: إنّ سبب حرمان أكثر البشر من هذه المدارج الإيمانيّة الرفيعة يعود إلى أمرين:

الأوّل: هو عدم علمهم بهذه الحقائق والكمالات، فلا يتولَّد لديهم الشوق لتلك المراتب والفضائل.

والثاني: فقدانهم الصبر والعزم، فلا يتأتَّى منهم العمل، فيبقون في مراتب دانيةٍ هابطةٍ بقدر هممهم الضعيفة، كالسواد الأعظم من البشر في تسابقهم وسعيهم في نيل العلم والدراسة الّتي هي أحد مناشئ تأمين الحياة السعيدة لهم في هذه النشأة.

فكم منّا نحن البشر يصبر لينال التخصّص في الطبابة، والهندسة، وغير ذلك؟! أليس الفائزون هم أصحاب الهمم العالية دون غيرهم؟!

ولعلّنا نفصّل الكلام في محلٍّ آخر حول أهمّيّتهما ودورهما في نيل الإنسان

---

(١) الأربعون حديثاً- آية الله العظمى الإمام الخمينيّ، ص ٢٤.

الكمال والسعادة، ومن الله نطلب العون والتوفيق.

ذكر الله:

ورد في كتاب المصباح، نقلاً عن الشيخ رجب بن محمد بن رجب الحافظ البرسي[١] أنَّ: «لفظ الجلالة - **الله** - ذكره ضحى، وعصراً، وفي الثلث الأخير من الليل، ستة وستين مرَّة بغير ياء - النداء - يوصل إلى المطلوب»[٢].

ولا يخفى أنَّ الّذي له الدور الأساس في ذلك التأثر هو مدى ما يعيشه الإنسان

---

(١) جاء في ترجمته: الحافظ الشيخ رضي الدين رجب بن محمّد بن رجب البرسيّ الحلّي، من عرفاء علماء الأماميّة، وفقهائها المشاركين في العلوم، على فضله الواضح في فنّ الحديث، وتقدّمه في الأدب وقرض الشعر وإجادته، وتضلّعه في علم الحروف وأسرارها، واستخراج فوائدها، وبذلك كلّه تجد كتبه طافحةً بالتحقيق ودقّة النظر، وله في العرفان والحروف مسالك خاصّةٌ، كما أنّ له في ولاء أئمة الدين عليهم السلام آراء ونظريّات لا يرتضيها لفيفٌ من الناس، ولذلك رموه بالغلوّ والارتفاع، غير أنّ الحقّ أنّ جميع ما يثبته المترجم لهم عليهم السلام من الشؤون هي دون مرتبة الغلوّ، غير درجة النبوّة، وقد جاء عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قوله: إيّاكم والغلوّ فينا، قولوا: إنا عبيدٌ مربوبون، وقولوا في فضلنا ما شئتم. الغدير - العلامة الأميني ج ٧، ص ٣٣- ٣٤.
وجاء في الذريعة ما يلي: لمعة الكاشف: في أسرار الأسماء، والصفات، والحروف، والآيات، وما يناسبها من الدعوات، ويقاربها من الكلمات، مرتّباً بترتيب الساعات، وتعاقب الأوقات، في الليالي والأيام؛ لاختلاف الأمور والأحكام، للشيخ العارف، رضيّ الدين رجب بن محمّد بن رجب الحلي، المعروف بـ (حافظ البرسيّ)، صاحب (الألفين)، و(مشارق الأنوار)، من أواخر المائة الثامنة، والمقارب لعصر العلاّمة الحلي.- الذريعة - آقا بزرگ الطهراني ج ١٨، ٣٥٤.

(٢) المصباح- الشيخ تقيّ الدين الكفعميّ، ص ٤٧٦.

من هذا الذكر، ويُلقِّن به قلبه، ليكون مطبِّقاً له في الواقع العمليّ، فيؤثِّر حينئذٍ ذلك التأثير العجيب المناسب في سلوك الإنسان، ويصل الإنسان من خلال الذكر إلى هدفه المنشود.

وانطلاقاً من أنَّ للذكر أثره المناسب مع توفر شرائطه، نحاول في نهاية كلّ بحثٍ أنْ نورد ما ورد من الأخبار، ومن أهل الفنّ والاختصاص من الأذكار ليلقِّن العبد قلبه، ويعيش تلك الصفة الكماليّة، فيحظى - إن شاء الله تعالى - بعناية الله وألطافه.

يقول السيّد الإمام رحمه الله في الذكر وأهمّيّته:

«وليعلم أنّ من الإسرار تكرار الأذكار، والأدعية، ودوام الذكر، والعبادة انفتاح لسان القلب، فيكون القلب ذاكراً، وداعياً، وعابداً، وما دام لم يلاحظ الأدب المذكور لا ينفتح لسان القلب، ولقد أشير إلى هذا المعنى في الأحاديث الشريفة، كما في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام، أنَّ عليّاً عليه السلام قال -في ضمن بيان بعض آداب القراءة-: «**ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة**»»[1].

وفيه أيضاً أنَّ أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال لأبي أسامة: «**يا أبا أسامة، أوعوا**

---

(١) هكذا ورد النصّ في الكتاب، إلاّ أنّ الوارد في متن الكافي هو: عن عبد الله بن سليمان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ قال: قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): بيّنه تبياناً، ولا تهذه هذي الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن أفزعوا قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة. الكافي، الشيخ الكليني ج ٢، ص ٦١٤،ح ١، من أبواب ترتيل القرآن بالصوت الحسن.

قلوبكم ذكر الله، واحذروا النكت»[١].

وقد كان أولياء الله يلاحظون هذا الأدب، حتّى الكمّل منهم، كما في الحديث: أنَّ مولانا جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام كان في صلاته، فغشي عليه، فلمّا أفاق سُئِلَ عن سببه.

فقال: **«ما زلت أردّد هذه الآية على قلبي، حتّى سمعتها من المتكلّم بها، فلم يثبت جسمي؛ لمعاينة قدرته»**.

وروي عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله ليلةً يردّد قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

وبالجملة: إنّ حقيقة الذكر والتذكّر هي الذكر القلبيّ، أمّا الذكر اللسانيّ فهو بدونه ذكرٌ بلا لُبٍّ، وساقطٌ عن درجة الاعتبار بالمرّة، كما أشير إلى ذلك في الأحاديث الشريفة غير مرّةٍ، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال لأبي ذرٍّ: **«يا أبا ذر، ركعتان مقتصدتان في تفكُّرٍ، خيرٌ من قيام ليلةٍ والقلبُ لاهٍ (ساهٍ)»**[٣].

---

(١) هكذا ورد النصّ في الكتاب، إلاّ أنّ الوارد في متن الكافي هو: عن أبي أسامة قال: زاملت أبا عبد الله عليه السلام قال: فقال لي: اقرأ [قال]: فافتتحت سورةً من القرآن، فقرأتها، فرقّ، وبكى، ثمّ قال: يا أبا أسامة، ارعوا قلوبكم بذكر الله عزّ وجلّ، واحذروا النكت...– الكافي، الشيخ الكليني ج ٨، ص ١٦٧،ح ١٨٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.

(٣) الآداب المعنويّة للصلاة– آية الله العظمى الإمام الخميني، ص ٦٦– ٦٧.

الموضوع السابع:

الرَّحمَنُ

١- تجلّيات الرحمن.

٢- إبراهيم الخليل عليه السلام وضيفه الكافر.

٣- موسى الكليم عليه السلام مع ربّه.

٤- دعاء عرفة.

٥- الإمام الصادق عليه السلام مع المفضّل

٦- رحمانيّة العبد.

٧- رحمة النبيّ صلى الله عليه وآله .

٨- شبيه لك في الخلق.

٩- الرفق بالحيوان.

١٠- ناقة الإمام السجاد عليه السلام .

الرَّحمَـــنُ

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[3].

«**الرحمن**: مأخوذٌ من الرحمة، ومعناها معروفٌ، وهي ضدّ القسوة، والشدّة، قـال الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[4]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٣.

(٣) سورة النمل: الآية ٣٠.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٥) سورة المائدة: الآية ٩٨.

وهي من الصفات الفعليّة، وليست رقَّة القلب مأخوذةً في مفهومها، بل هي من لوازمها في البشر، فالرحمة - دون تجرّدٍ عن معناها الحقيقيّ- من صفات الله الفعليّة[1]، كالخلق، والرزق، يوجدها حيث يشاء، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ

(١) قسّم المتكلّمون صفاته – سبحانه – إلى صفة الذات، وصفة الفعل، والأوّل: ما يكفي في وصف الذات به، فرض نفس الذات فحسب، كالقدرة والحياة والعلم. والثاني: ما يتوقّف توصيف الذات به على فرض الغير وراء الذات، وهو فعله سبحانه.

فصفات الفعل هي المنتزعة من مقام الفعل، بمعنى أنّ الذات توصف بهذه الصفات عند ملاحظتها مع الفعل، وذلك كالخلق، والرزق، ونظائرهما من الصفات الفعليّة الزائدة على الذات بحكم انتزاعها من مقام الفعل. ومعنى انتزاعها: أنّا إذ نلاحظ النعم الّتي يتنعّم بها الناس، وننسبها إلى الله سبحانه، نسميها رزقاً رزقه الله سبحانه، فهو رزّاقٌ.

ومثل ذلك الرحمة والمغفرة، فهما يطلقان عليه على الوجه الّذي بيّناه.

وهناك تعريفٌ آخر لتمييز صفات الذات عن الفعل، وهو أنّ كلّ ما يجري على الذات على نسقٍ واحدٍ (الإثبات دائماً) فهو من صفات الذات، وأمّا ما يجري على الذات على وجهين، بالسلب تارةً، وبالإيجاب أخرى، فهو من صفات الأفعال.

وعلى ضوء هذا الفرق فالعلم، والقدرة، والحياة لا تحمل عليه سبحانه، إلا بوجهٍ واحدٍ، وهو الإيجاب، ولكنّ الخلق، والرزق، والمغفرة، والرحمة تحمل عليه بالإيجاب تارةً، وبالسلب أخرى، فتقول: خَلَقَ هذا. ولم يخلق ذلك. غفر للمستغفر. ولم يغفر للمصرّ على الذنب.

وباختصارٍ: إنّ صفات الذات لا يصحّ لصاحبها الاتّصاف بأضدادها، ولا خلوّه منها، ولكنّ صفات الفعل يصحّ الاتّصاف بأضدادها.

ثمّ إنّ الصفات الفعليّة حيثيّاتٌ وجوديّةٌ نابعةٌ من وصفٍ واحدٍ، وهي القيّوميّة، فإنّ الخلقَ

يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾[١]، ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[٢]، حسب ما تقتضيه حكمته البالغة، وقد ورد في الآيات طلب الرحمة من الله سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[٣].

وقال غير واحدٍ من المفسرين، وبعض اللغويين: إنَّ صيغة الرحمن مبالغةٌ في الرحمة، وهو كذلك في خصوص هذه الكلمة، سواء أكانت هيئة (فعلان) مستعملةً في المبالغة، أم لم تكن، فإنَّ كلمة (الرحمن) في جميع موارد استعمالها محذوفة المتعلَّق، فيستفاد منها العموم، وأنَّ رحمته وسعت كلّ شيءٍ.

وممّا يدلنا على ذلك أنَّه لا يُقال: إنَّ الله بالناس - أو بالمؤمنين - لرحمنٌ، كما يُقال: إنَّ الله بالناس - أو بالمؤمنين - لرحيمٌ.

وكلمة (الرحمن) بمنزلة اللقب من الله سبحانه، فلا تُطلق على غيره تعالى، ومن أجل ذلك استُعْمِلَتْ في كثيرٍ من الآيات الكريمة من دون لحاظ مادّتها، قال سبحانه: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾[٤]، ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي

والرزقَ والهدايةَ كلّها حيثيّاتٌ وجوديّةٌ قائمةٌ به سبحانه، مفاضةٌ من عنده بما هو قيّومٌ. الإلهيات- محاضرات للشيخ جعفر السبحاني، ص ٨٤- ٨٥.

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٤.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢١.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١١٨.

(٤) سورة يس: الآية ١٥.

شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾[١]، ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[٢]، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[٣].

ومما يقرِّب اختصاص هذا اللفظ به قولُه تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[٤]، فإنَّ الملحوظ أنَّ الله تعالى قد اعتنى بكلمة (الرحمن) في هذه السورة (مريم)، حتّى كرّرها فيها ستّ عشرة مرة، وهذا يقرّب أنَّ المراد بالآية الكريمة أنّه ليس لله سميٌّ بتلك الكلمة»[٥].

«ورحمته أعمّ صفاته، وأوسعها، شملت جميع ما سواه، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٦].

فكلّما يطلق عليه: (شيءٌ) في جميع العوالم يكون من رحمته تعالى، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٧] إشارةٌ إلى مظاهر رحمته الواسعة»[١].

---

(١) سورة يس: الآية ٢٣.

(٢) سورة يس: الآية ٥٢.

(٣) سورة الملك: الآية ٣.

(٤) سورة مريم: الآية ٦٥.

(٥) البيان في تفسير القرآن– آية الله العظمى السيد الخوئي، ص ٤٢٨– ٤٢٩.

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٧) سورة لقمان: الآية ٢٧.

خلاصة ما تقدّم في نقاط:

(١) إنَّ الرحمن مشتقّةٌ من الرحمة، وهي تقابل الشدّة، والقسوة[٢].

(٢) إنَّ الرحمة من صفات الله الفعليّة، كالخلق، والرزق، يوجدها حيث يشاء.

(٣) إنَّ صيغة الرحمن مبالغةٌ في الرحمة، شملت جميع ما سواه.

(٤) إنَّها بمنزلة اللقب من الله سبحانه، فلا تُطلق على غيره تعالى.

(٥) كلّ ما يُطلق عليه: (شيءٌ) في جميع العوالم يكون من رحمته تعالى، وإشارةً إلى مظاهر رحمته الواسعة.

تجلّيات الرحمن:

أ- رحمانيّة الله عزّوجلّ في القرآن:

إنَّ القرآن الكريم لمليءٌ بذكر رحمته تبارك وتعالى من ابتداء الخلق من العدم، وثمَّ تهيئتهم بما يحتاجونه من الوسائل؛ للسير نحو الكمال؛ والارتقاء، ويكفي أنْ ننظر إلى سورةٍ واحدةٍ في القرآن الكريم؛ لتتجلّى لنا رحمانيّة الله تبارك وتعالى، ومدى سعة رحمته، ونعمه، وجوده على عالم الإمكان جميعاً، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ

---

(١) مواهب الرحمن- آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري ج١، ١٧- ١٨.

(٢) يقول الراغب في مفرداته: إنَّ الرحمة من الله تعني الإنعام والإفضال، مادّة رحم.

(٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[(١)].

ب- الرحمانيّة في الروايات:

إنَّ من فيض رحمانيّة الله تعالى إيجاده الوجود من العدم، وهيّأ لكلّ موجود النظام الأكمل، والأفضل؛ لبقائه؛ وضمان سيره نحو كماله، ولم يمنع عدم معرفته - أو إنكاره من البعض، أو مجاهرته بالمعاصي، والذنوب - من إسدال رحمانيّته، وإفضال نعمه على الخلق؛ لأنّه رؤوفٌ رحيمٌ[(٢)].

قال الإمام عليه السلام: «**الرحمن: العاطف على خلقه بالرزق، لا يقطع عنهم موادّ**

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١-١٦.

(٢) مِن الأدعية الواردة الدالّة على هذه الحقيقة ما يُقرأ أعقاب كلّ صلاةٍ في شهر رجب: يا مَن أرجوه لكلّ خيرٍ، وآمن سخطه عند كلّ شرٍّ، يا مَن يعطي الكثير بالقليل، يا مَن يعطي مَن سأله، يا مَن يعطي مَن لم يسأله ومَن لم يعرفه؛ تحنّنا منه ورحمةً، أعطني بمسألتي إيّاك جميع خير الدنيا وجميع خير الآخرة، واصرفْ عنّي بمسألتي إيّاك جميع شرّ الدنيا وشرّ الآخرة، فإنّه غير منقوصٍ ما أعطيت، وزدني مِن فضلك يا كريم. إقبال الأعمال- السيّد ابن طاووس الحسنيّ ج ٣، ص ٢١١. وهذا الدعاء الشريف واردٌ في أكثر كتب الأدعية، وهي مِن الأدعية المشهورة.

رزقه، وإنْ انقطعوا عن طاعته...»[١].

لاحظ - أيّها العزيز - تعبيرَ الإمام عليه السلام: **(على خلقه)، فهو تعبيرٌ يشمل جميع** الخلْق، وليس المراد هنا الإنسان فقط، وإنْ كان هو أشرف المخلوقات، وأكملها، كما أنَّ رزق كلّ شيءٍ بحسب احتياجاته، ومقتضياته، فرزق الشجر يختلف عن رزق الحيوان، أو الإنسان، وهكذا.

وكذلك طاعاتهم مختلفةٌ، ومتفاوتةٌ كمّاً وكيفاً بحسب مراتبهم، وإنْ لم نفقه نحو عبادتهم، وكنّا محجوبين عن حقيقة تسبيحهم، الّتي أشار إليها القرآن الكريم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢].

إلا أنَّ الإنسان هو الفرد الأكمل، والقدر المتيقّن من الخطاب في الرواية المتقدّمة، ونظائرها، فرحمانيّة الله تعالى شاملةٌ عامّةٌ، تشمل المطيع، والعاصي على حدٍّ سواءٍ، والكافر، والمسلم، ومن يعرفه، ومن لم يعرفْه، بل سائر المخلوقات، حتّى الحيوانات، والعجماوات؛ تحنُّناً منه ورحمةً ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٤، ص ١٨٣، ح ١٠.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٣) سورة غافر: الآية ٧.

إبراهيم الخليل وضيفه الكافر:

رُوِيَ «أنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام كان لا يأكل وحده، فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقي يوماً رجلاً، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم: سمّ الله.

قال الرجل: لا أدري ما الله؟

فقال له: فاخرج عن طعامي.

فلما خرج نزل إليه جبريل، فقال له: يقول الله: إنّه يرزقه على كفره مدى عمره، وأنتَ بخلتَ عليه بلقمةٍ؟! فخرج إبراهيم فزعاً، يجرّ رداءه، وقال: ارجع.

فقال: لا أرجع حتّى تخبرني: لم تردّني؟! لغير معنى؟! فأخبره بالأمر.

فقال: هذا ربٌّ كريمٌ، آمنتُ، ودخل، وسمّى الله، وأكل مؤمناً»[١].

موسى الكليم مع ربه:

في الخبر: «إنّه قال الله تعالى: يا موسى، أتدري ما بلغت برحمتي إياك؟!

فقال موسى: أنت أرحم بي من أبي وأمي.

قال الله تعالى: يا موسى، وإنّما رحمتْكَ أمّك لفضل رحمتي، فأنا الّذي رقّقتها عليك، وطيّبت قلبها؛ لتترك طيب وَسَنِهَا لتربيتك، ولو لم أفعل ذلك بها لكانت هي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن– القرطبي ج ٩، ص ٦٨.

وسائر النساء سواءٌ»[1].

وواضحٌ أنَّ هـذه الرحمـة غـير مختصّـةٍ بـالنبيّ موسـى، أو بأصـحاب الأديـان السماويّة، بل هي شاملةٌ لجميع البشر، وكذلك الحيوانات، كمـا سـيأتي بيانـه عمّـا قريب - إن شاء الله تعالى -.

﴿...فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ...﴾[2].

دعاء عرفة:

الإمام الحسين عليه السلام كسائر المعصومين عليهم السلام، يبـيِّن جانبـاً مـن تلـك الرحمـات الإلهيّة البالغة، والجسيمة على العباد، ويكشف الستار عن مدى شمول رحمة الله تعالى على العباد من خلال دعائه في يوم عرفة، نقرأ بعضها معاً:

«روي أنَّ بشراً وبشيراً - ولَدَا غالب الأسديّ - قالا: لمّا كان عصر عرفـة في عرفات، وكنّا عند أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فخرج عليه السلام من خيمةٍ مع جماعةٍ من أهل بيته، وأولاده، وشيعته، بحال التذلّل، والخشوع، والاستكانة، فوقف في الجانب الأيسر من الجبل، وتوجّه إلى الكعبة، ورفع يديه قبالة وجهـه، كمسـكينٍ يطلـب طعاماً، وقرأ هذا الدعاء: الحمد لله الّذي ليس لقضائه دافعٌ، ولا لعطائه مانعٌ...

اللهم إنّي أرغب إليك، وأشهد بالربوبيّة لك، مقرّاً بأنّك ربي، وإليـك مـردّي،

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٣، ص ٣٨٧، ح ١٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤٧.

ابتدأتني بنعمتك قبل أنْ أكون شيئاً مذكوراً، وخلقتني من التراب، ثم أسكنتني الأصلاب، آمناً لريب المنون، واختلاف الدهور، والسنين، فلم أزل ظاعناً من صلبٍ إلى رحمٍ، في تقادمٍ من الأيّام الماضية، والقرون الخالية، لم تخرجني؛ لرأفتك بي؛ ولطفك لي؛ وإحسانك إليَّ في دولة أئمّة الكفر، الّذين نقضوا عهدك، وكذّبوا رسلك، لكنّك أخرجتني للّذي سبق لي من الهدى، الّذي له يسّرتني، وفيه أنشأتني، ومن قبل ذلك رؤفت بي بجميل صنعك، وسوابغ نعمك، فابتدعت خلقي من منيٍّ يُمنى، وأسكنتني في ظلماتٍ ثلاثٍ، بين لحمٍ ودمٍ وجلدٍ، لم تُشْهِدْني خلْقي، ولم تجعل إليَّ شيئاً من أمري، ثمّ أخرجتني للّذي سبق لي من الهدى إلى الدنيا، تامّاً سويّاً، وحفظتني في المهد طفلاً صبيّاً، ورزقتني من الغذاء لبناً مريّاً، وعطّفتَ عليَّ قلوب الحواضن، وكفّلتني الأمّهات الرواحم، وكلأتني من طوارق الجانّ، وسلّمتني من الزيادة، والنقصان، فتعاليتَ يا رحيم، يا رحمن...»[١].

﴿...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾[٢].

الإمام الصادق مع المفضّل:

ولكي يتجلّى لك - أيُّها القارئ العزيز - شمولية رحمة الله تعالى على الخلْق، وأنّها غير مختصّةٍ بالإنسان، أنقل لك جانباً من رواية الإمام الصادق عليه السلام مع مفضّل بن عمر؛ لتتجلّى لك نقطةٌ في بحور رحماته الرحمانيّة الواسعة، حيث قال عليه السلام له:

---

(١) مقتطفات مِن دعاء عرفة.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

«يا مفضّل، وآكلات اللحم لمّا قُدِّر أنْ تكون معائشها من الصيد، خُلِقَتْ لهم أكُفٌّ لطافٌ مدمّجةٌ[١]، ذوات براثن[٢]، ومخالب[٣]، تصلح لأخذ الصيد، ولا تصلح للصناعات، وآكلات النبات قدِّر أنْ يكونوا لا ذوات صنعةٍ ولا ذات صيدٍ، خُلقت لبعضها أظلافٌ، تقيها خشونة الأرض إذا حاولتْ طلب المرعى، ولبعضها حوافر ململمةٌ[٤]ذوات قعرٍ[٥]، كأخمص القدم، تنطبق على الأرض عند تهيئتها للركوب والحمولة.

تأمَّل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان حين خلقتْ ذوات أسنانٍ حدادٍ، وبراثن شدادٍ، وأشداق[٦]، وأفواهٍ واسعةٍ، فإنَّه لَمَّا قدّر أنْ يكون طعمها[٧] اللحم خلقتْ خلقة تشاكلٍ، وأعينت بسلاحٍ وأدواتٍ تصلح للصيد، وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيَّئةٍ لفعلها، ولو كانتْ الوحوش ذوات مخالب كانت قد أعطيتْ ما لا تحتاج إليه؛ لأنَّها لا تصيد؛ ولا تأكل اللحم، ولو كانت السباع ذوات أظلافٍ كانت قد منعت ما تحتاج إليه، أعني السلاح الّذي تصيد به، وتتعيّش، أفلا ترى كيف أعطى كلّ واحدٍ من الصنفين ما يشاكل صنفه وطبقته؟!

---

(١) مدمجة: أي: مستقيمة محكمة متداخلة.

(٢) البراثن: جمع برثن – بالضم – من السباع والطير بمنزلة الأصبع من الإنسان.

(٣) المخالب: جمع مخلب– بالكسر– وهو الظفر خصوصا من السباع.

(٤) ململمة: أي مجموعة بعضها إلى بعض.

(٥) قعر كل شيء أقصاه.

(٦) الأشداق: جمع شدق– بالفتح أو الكسرة– زاوية الفم من باطن الخدين.

(٧) الطُعم– بالضم–: الطعام.

بل ما فيه بقاؤه وصلاحه؟!

انظر الآن إلى ذوات الأربع كيف تراها تتّبع أمّاتها[١]، مستقلّةً بأنفسها، لا تحتاج إلى الحمل والتربية - كما تحتاج أولاد الإنس - ، فمن أجل أنّه ليس عند أمّاتها ما عند أمّهات البشر من الرفق، والعلم بالتربية، والقوّة عليها بالأكفّ والأصابع المهيّأة، لذلك أعطيت النهوض، والاستقلال بأنفسها، وكذلك ترى كثيراً من الطير - كمثل الدجاج، والدُرَّاج[٢]، والقَبَج[٣]- تدرج، وتلقط حين تنقاب عنها البيضة، فأمَّا ما كان منها ضعيفاً لا نهوض فيه - كمثل فراخ الحمام واليمام[٤] والحمر[٥]- فقد جعل في الأمّهات فضل عطف عليها، فصارتْ تمجّ[٦] الطعام في أفواهها، بعد ما توعيه[٧] حواصلها[٨]، فلا تزال تغذوها [حتى] تستقل بأنفسها، ولذلك لم ترزق الحمام فراخاً كثيرةً مثل ما ترزق الدجاج؛ لتقوى الأمّ على تربية فراخها، فلا تفسد، ولا تموت،

---

(١) الأمّات: جمع أم، وقيل إنها تستعمل في البهائم، وأما في الناس فهي أمهات.

(٢) الدراج - بضم فتشديد -: طائر شبيه بالحجل وأكبر منه، أرقط بسواد وبياض، قصير المنقار، يطلق على الذكر والأنثى، جمعه دراريج، وواحدته دراجة، والتاء للوحدة لا للتأنيث.

(٣) القبج - بفتحتين -: طائر يشبه الحجل، وفي القاموس: هو الحجل، والواحدة قبجة، تقع على الذكر والأنثى.

(٤) اليمام: الحمام الوحشي.

(٥) الحمر - بضم فتشديد -: طائر أحمر اللون والواحدة حمرة.

(٦) تمج الطعام: أي ترمي به.

(٧) توعيه: من أوعى الزاد ونحوه، أي: جعله في الوعاء.

(٨) الحواصل: كأنها جمع حوصلة وحوصلاء، وهي من الطير بمنزلة المعدة من الإنسان.

فكلاً أعطى بقسطٍ من تدبير الحكيم اللطيف الخبير»[١].

وفي روايةٍ أخرى قال الإمام عليه السلام في معنى الرحمن: «ومن رحمته أنّه لمّا سلب الطفل قوّة النهوض، والتغذي جعل تلك القوّة في أمّه، ورقّقها عليه؛ لتقوم بتربيته؛ وحضانته، فإن قسا قلب أمٍّ من الأمّهات لوجب تربية هذا الطفل، وحضانته على سائر المؤمنين، ولمّا سلب بعض الحيوان قوّة التربية لأولادها، والقيام بمصالحها، جعل تلك القوّة في الأولاد؛ لتنهض حين تولد، وتسير إلى رزقها المسبّب لها»[٢].

وما هذه الرحمة الرحمانيّة الّتي تجدها مفاضةً على عالم الإمكان إلا قطرة من بحر رحمته الواسعة، قال تعالى - مشيراً إلى هذه الحقيقة الّتي لا ريب فيها -: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٣].

واعلم - أيّها المؤمن- أنّه وإنْ كان ظاهر هذا الخطاب الشريف هو الإنسان، إلا أنَّ المراد منه هو الأعمّ منه، أي أنَّ جميع الخلائق لا يستطيعون إحصاء نعمه، وأفضاله على الخلق، وإنَّما كان الإنسان هو المخاطب؛ لأنَّه أشرف الموجودات؛ ولأنَّه هو المستفيد الأوّل من هذه النعم؛ ولأنَّه المعتدّ بنفسه أكثر من غيره من الخلائق؛ لما تميّز وتفرّد بالقابليات والإمكانات أكثر من غيره، وما الحديث الوارد عن الإمام

---

(١) التوحيد، مفضل بن عمر الجعفي، ص ٥٣- ٥٥. تعليق كاظم المظفر.

ملاحظة: إن الهوامش المتقدمة مأخوذة من نفس المصدر.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٨٩، ص ٢٤٨. ولعل القائل هو الإمام العسكري عليه السلام.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله - أنّه قال: «**إنّ لله مائة رحمة، أنزل منها رحمةً واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم، وأخّر تسعةً وتسعين رحمةً يرحم بها عباده**»[1] - إلا تقريباً لعقولنا البسيطة والضعيفة الّتي لا تستطيع إدراك الحقائق على ما هي عليه، فإنْ كانت رشحةٌ من رشحات فيض رحمته تعالى خَلَقَ بها الأكوان، والأفلاك الّتي عجز الفلاسفة، والعلماء عن إحاطتها، فما بالك بذات المفيض تبارك وتعالى ؟! كيف يمكن للبشر إحاطته؟!

ومن هنا، يقف الأنبياء، والعظماء أذلاَّء بين يديه، رافعين راية الإقرار، والعجز عن إدراك عظمة رحمته تبارك وتعالى، فإنْ كان هذا حال الأنبياء الّذين هم الكُمّل من عباده، فما ظنّك بهذا الكاتب المسكين الّذي لا يعرف من العلم إلا اسمه ورسمه؟!

لذا نكتفي بهذا المقدار، ونشرع ببيان حظّ العبد المؤمن من هذه الصفة القدسيَّة، لعلّ الله تعالى يحيطنا برشحةٍ من رشحات رحمته، فننال خير الدنيا والآخرة.

رحمانيّة العبد:

مِن أبرز خصوصيّات الرسالة المحمّديّة أنّها رسالة إحسانٍ، وأنّها رحمةٌ للعالمين جميعاً، وقد خاطب الله تعالى نبيَّه الكريم - مبيِّناً له الهدف من بعثته وإرساله - قائلاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

فكان بحقٍّ رحمةً للعالمين، كما وصفه أمير المؤمنين عليه السلام، سفير وحيه، ورسول

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٦، ص ٢١٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

رحمته(١)، إذ كانت تتقاطر من كلّ جوانبه الرحمة، والإحسان، والخير لجميع خلق الله تعالى، فلم تكن خاصّةً بالمسلمين دون غيرهم، لذا شمل من لم يؤمن به وبرسالته رحمةٌ منه بهم.

وحيث إنّه متخلّق بأخلاق الله تعالى، وإنّه على خلقٍ عظيمٍ، تجد رحمانيّته ﷺ تسع كلّ شيءٍ، وتتجاوز أقصى الحدود، ليشمل الطير، والدوابّ، والنبات، وغيرها، تخلّقاً منه ﷺ ببارئه، وخالقه الّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ.

ولشمولية رحمانيّته ﷺ بشكلٍ لا نظير له بين الخلق، وكونه المظهر الأتمّ لأسماء الله الحسنى، والإنسان الأكمل في تجسيد مكارم الأخلاق، امتدحه القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

ولقد أمرنا الله تعالى وأرشدنا إلى التأسّي بأخلاق نبيّه ﷺ؛ لأنّه مرآةٌ لصفاته سبحانه الكماليّة بقدر القالب الإنسانيّ – مع التسامح في التعبير – ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٣).

واسمح لي هنا – يا خليفة الرحمن – أنْ أذكر لك بعض النماذج من رحمانيّة الأنبياء، والأولياء، والكُمّل من البشر في جوانب متعدّدةٍ، فهم خير قدوةٍ وأسوةٍ لنا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ

---

(١) نهج البلاغة– محمد عبده ج ٢، ص١٧٢، الخطبة: ١٩٨.

(٢) سورة القلم: الآية ٤.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١].

رحمة النبيّ صلى الله عليه وآله:

عن أنس بن مالك قال: «إنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله أدركه أعرابيٌّ، فأخذ بردائه، فجبذه[٢] جبذةً شديدةً، حتّى نظرتُ إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أثّرتْ بها حاشية الرداء من شدّة جذبته، ثمّ قال له: يا محمّد، مُر لي من مال الله الّذي عندك. فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، فضحك، وأمر له بعطاءٍ»[٣].

لاحظ مدى رقّته، ورحمته على الخلق، مع أنّه أشجع الناس، وأشدّهم بأساً على المجرمين، يقول أمير المؤمنين - أسد الله الغالب عليه السلام - في شجاعته صلى الله عليه وآله:

«كنّا إذا احمرَّ البأس، ولقي القومُ القومَ، اتّقينا برسول الله، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه»[٤].

وقال عليه السلام: «لقد رأيتني يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبيّ صلى الله عليه وآله، وهو أقربنا إلى العدوّ، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ بأساً»[٥].

ومع هذا فهو كما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٦.

(٢) جبذه: أي جذبه.

(٣) مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي، ص ١٧.

(٤) مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي، ص ١٨.

(٥) مكارم الأخلاق- الشيخ الطبرسي، ص ١٨.

غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾(١).

شبيهٌ لك في الخلق:

إنَّ من جملة مفاخر الإسلام هو بناء أحكامه الشرعيّة على أساس الرحمة، والعطف على الخلق، وعدم التمييز بين أفراده بلحاظ أنسابهم، أو قوميّاتهم، أو ألوانهم، وغير ذلك، وهذا ما يتجلّى في خطابات قادة الإسلام الحقيقيّين، من قبيل أمير المؤمنين عليه السلام، حيث تجده يعطي مجموعة تعليماتٍ لمالك الأشتر حينما ولاّه مصر، ليكون له المرجع في حكمه وولايته هناك، وهذا جزءٌ ممّا أوصاه:

«وأشعِرْ قلبك الرحمة للرّعيّة، والمحبّة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً، تغتنم أكلهم؛ فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين، وإمّا نظيرٌ لك في الخلْق»(٢).

ولم تخصّص الرحمة والمحبة للرّعيّة بفئةٍ دون فئةٍ، أو قومٍ دون قومٍ، بل شملتْ جميع رعايا الدولة الإسلاميّة، كاليهود، والنصارى، وغيرهم ممّن كانوا يعيشون في كنف تلك الدولة (مصر)، وما ذلك إلا للرّحمة الّتي بُني عليها أمر هذا الدين، وتخلّق بها قادته.

وترى ذلك واضحاً في التأكيد على حقوق الأقلّيّات الدينيّة - الّذين لا ينسجم معهم عقيدةً وفكراً - بحفظ حقوقهم، وأن لا يكون الاختلاف العقائديّ سبباً لظلمهم، فيقول: فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين، وإمّا [أو] نظيرٌ لك في الخلْق.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد ج ١٧، ص ٣٢، الخطبة: ٥٣.

وقد رُوِيَ عن محمّد بن أبي حمزة، عن رجلٍ بلغ به أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «مرّ شيخٌ مكفوفٌ كبيرٌ يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما هذا؟!

قالوا: يا أمير المؤمنين، نصرانيٌّ.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: استعملتموه حتّى إذا كبر وعجز منعتموه؟! أنفقوا عليه من بيت المال»(١).

الرفق بالحيوان:

عن جابر بن يزيد الجعفيّ، عن الباقر عليه السلام، قال: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام جالساً مع جماعةٍ، إذا أقبلتْ ظبيةٌ من الصحراء، حتّى وقفتْ قدّامه، فهَمْهَمَتْ، وضَرَبَتْ بيدها الأرض، فقال بعضهم: يا ابن رسول الله، ما شأن هذه الظبية قد أتتك مستأنسةً؟

قال: تذكر أنَّ ابناً ليزيد طلب عن أبيه خشفاً، فأمر بعض الصيّادين أنْ يصيد له خشفاً، فصاد بالأمس خشف هذه الظبية، ولم تكن قد أرضعته، فإنّها تسأل أنْ يحمله إليها؛ لترضعه؛ وتردّه عليه. فأرسل عليّ بن الحسين عليه السلام إلى الصيّاد فأحضره.

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص٦٦، ح ١ من الباب ١٩. وقد أفتى صاحب الوسائل على وفق هذا الخبر، حيث عنون الباب بـ(باب أن نفقة النصراني إذا كبر وعجز عن الكسب من بيت المال)، وقد أشار الفقهاء أن آراء صاحب الوسائل هي تلك العناوين التي تتصدر كل باب.

فقال: إنَّ هذه الظبية تزعم أنَّك أخذتَ خشفاً لها، إنَّك لم تسقه لبناً منذ أخذتَه، وقد سألتني أنْ أسألك أنْ تتصدّق به عليها، فقال: يا ابن رسول الله، لست أستجرئ على هذا، قال: إنِّي أسألك أنْ تأتي به إليها؛ لترضعه، وتردّه عليك، ففعل الصيّاد، فلمّا رأته هَمْهَمَتْ، ودموعها تجري.

فقال عليّ بن الحسين عليه السلام للصيّاد: بحقّي عليك، إلا وهبته لها، فوهبه لها، وانطلقت مع الخشف.

وقال: أشهد أنَّك من أهل بيت الرحمة، وأنَّ بني أميّة من أهل بيت اللعنة»[١].

ناقة الإمام السجاد عليه السلام:

ورد في الأخبار أنَّ مولانا السجاد عليه السلام حجّ على ناقته عشرين حجّةً، ولم يقرعها بسوطٍ[٢].

ورُوِيَ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لمّا كان الليلة الّتي وعدها عليّ بن الحسين، قال لمحمّدٍ: «يا بنيّ: أبغي وضوءاً.

قال: فقمتُ، فجئتُ بوضوءٍ.

قال: لا ينبغي هذه؛ فإنَّ فيه شيئاً ميتاً.

قال: فخرجتُ، فجئتُ بالمصباح، فإذا فيه فأرةٌ ميتةٌ، فجئتُ بوضوءٍ غيره.

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٤٦، ص ٣٠، ح٢١.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٠٩، ص١٩٤.

قال: فقال: يا بنيّ، هذه الليلة وُعِدتُهَا، فأوصى بناقته أنْ يُحْضَرَ لها عصامٌ، ويُقامَ لها علفٌ، فجعلت فيه، فلم نلبث أنْ خرجتْ، حتّى أتتْ القبر، فضربتْ بجرانها، ورغتْ، وحملتْ عيناها، فأتاها.

فقال: مه الآن، قومي - بارك الله فيكِ - ، فسارتْ، ودخلتْ موضعها، فلم نلبث أنْ خرجتْ، وأتت القبر، فضربتْ بجرانها، ورغتْ، وهملتْ عيناها، فأوتي محمّد بن عليٍّ، فقيل له: إنَّ الناقة قد خرجتْ، فما نفعل؟

قال: دعوها، فإنَّها مودَّعةٌ.

فلم تلبثْ إلا ثلاثةً، حتّى نفقتْ، وإن كان ليخرج عليها إلى مكّة فيتعلّق السوط بالرحل، فما يقرعها قرعةً حتّى يدخل المدينة»[١].

يا خليفة الرحمن: إنَّ الناقة فارقت الحياة؛ بسبب شدَّة تعلّقها بسيدها الإمام زين العابدين؛ لما عاملها بالإحسان؛ والرقّة؛ والرحمة، ولم تستطع أن تتحمّل فراق ذلك الطيّب، وصاحب الخُلُق الرفيع عليه السلام، مع أنَّ الإمام عبدٌ من عبيد الله تعالى، وكلّ ما يبذل من إحسانٍ، ورحمةٍ، وإنعامٍ على الخلق، إنّما هو محدودٌ، بل لا شيء في قبال سعة رحمة الله تعالى، فكيف يجب أن نكون - نحن البشر، ذووا العقول، والإدراك، والشعور-؟! لو مات أحدنا حياءً من الرحمن كان خيراً له من البقاء حيّاً متجاهراً أمام الله تعالى بالمعاصي والذنوب.

يا للقباحة، والشناعة، نخالفه، ونعصيه بنعمه، وخيراته، أما آنَ لنا أنْ نفيق من

---

(١) بصائر الدرجات- محمد بن الحسن الصفار: ص٥٠، ح ١١٠.

نوم الغافلين؟! وننقاد للرحمن الرحيم؟!

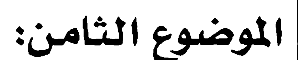
إلهي، أعترف بنعمتك عندي، وأبوء بذنوبي، فاغفر لي، يا مَن لا تضرّه ذنوب عباده، وهو الغنيّ عن طاعتهم، وإنّما الموفّق من عمل منهم صالحاً بمعونته، ورحمته، فلك الحمد.

إلهي، أمرتَني فعصيتُك، ونهيتَني فارتكبتُ نهيَك، فأصبحتُ لا ذا براءةٍ فأعتذر، ولا ذا قوّةٍ فأنتصر، فبأيّ شيءٍ أستقبلك يا مولاي؟! أبسمعي؟! أم ببصري؟! أم بلساني؟! أم بيدي؟! أم برجلي؟! أليس كلّها نعمك عندي؟! وبكلّها عصيتك، يا مولاي، فلك الحجّة والسبيل عليّ.

يا مَن سترني مِن الآباء، والأمّهات أنْ يزجروني، ومن العشائر، والإخوان أنْ يعيّروني، ومن السلاطين أنْ يعاقبوني، ولو اطّلعوا - يا مولاي - على ما اطّلعتَ عليه منّي إذاً ما أنظروني، ولرفضوني، وقطعوني، فها أنا ذا بين يديك، يا سيّدي، خاضعاً ذليلاً حقيراً، لا ذو براءةٍ فأعتذر، ولا ذو قوّةٍ فأنتصر، ولا حجّة لي فأحتجّ بها[1].

---

(١) مقتطفات من دعاء عرفة، إقبال الأعمال- السيد ابن طاووس الحسني ج ٢، ص٨٣.



الموضوع الثامن:

الرَّحِيم

١- الفرق بين الرحمن والرحيم.

٢- من آثار رحيميّة الله.

٣- حسن الظنّ بالله.

٤- الصدقة ودخول الجنة.

٥- هل رحمت عصفوراً؟!

٦- تنبيهٌ.

٧- شفاعة المؤمن.

٨- رحيميّة العبد.

٩- العبد والرحيم.

١٠- ذكر الرحيم.

الرَّحِيم

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

تقدَّم أنَّ الرحمن والرحيم مشتقتان من الرحمة، «ورحمته أعمّ صفاته، وأوسعها، شملت جميع ما سواه، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2].

فكلّما يطلق عليه: (شيءٌ) - في جميع العوالم - يكون من رحمته تعالى، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3] إشارةٌ إلى مظاهر رحمته الواسعة»[4].

وقد كان الإقرار بهذه الحقيقة حاضراً عند الأنبياء، والأئمة عليهم السلام، وعند جميع

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٤) مواهب الرحمن، آية الله العظمى السيد عبدالأعلى السبزواري ج١، ص ١٧- ١٨.

الفلاسفة المتألّهين، فكلّهم كان يعترف بالقصور عن الإحاطة بحقيقة ذاته، أو أسمائه، أو صفاته.

كيف؟! وهذا سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله - وأعلم الخلق بالله تعالى، وأقربهم منه - يقول- على ما روي عنه -: ما عرفناك حقّ معرفتك(١). ويقول أيضاً: لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك(٢).

وعن أبي جعفر عليه السلام: **كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوقٌ مصنوعٌ مثلكم، مردودٌ إليكم**(٣).

وهكذا الكلام في إدراك حقيقة رحمته تعالى الواسعة، وقد أطال بعض الأعاظم القول في أنَّ وجود كلّ شيءٍ من رحمته تعالى، وأثبت ذلك بالأدلّة الكثيرة، ومع ذلك اعترف بالقصور عن دركها(٤).

وبعد معرفة أنَّ الرحمن والرحيم مشتقتان من الرحمة، لا بدّ من الإشارة إلى بعض الفوارق بينهما فنقول:

الفرق بين الرحمن والرحيم:

بعد أنْ اتّفق العلماء من المفسّرين، والمتكلّمين، وغيرهم على اشتقاق هذين

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ١١٠/ ٣٤.

(٢) شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني: ٦/ ص ١٥١.

(٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٦٦/ ٢٩٢ – ٢٩٣.

(٤) مواهب الرحمن، آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواري، ج١، ص ١٨.

اللفظين الشريفين من الرحمة، اختلفوا في بيان المراد منهما، ومفادهما إلى أقوالٍ نشير إلى بعضٍ منها:

١- إنَّ الرحيم يدلّ على لزوم الرحمة للذّات، وعدم انفكاكها عنها، والرحمن يدلّ على ثبوت الرحمة فقط[1].

٢- إنَّ الرحمة الرحمانيّة تعمّ جميع الخلق، وتشمل كلّ النعم، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[2]، وأمّا الرحمة الرحيميّة بمعنى: التوفيق في الدنيا والدين، فهي مختصّةٌ بالمؤمنين[3].

٣- إنّ جميع ما سواه تعالى مورد إفاضة الوجود منه عزّوجلّ، وهذه هي الرحمة الرحمانيّة، الّتي خرج بها ما سواه من العدم إلى الوجود، كما لا ريب في كلّ نوعٍ من أنواع الموجودات مطلقاً، بل كلّ صنفٍ من أصنافٍ له خصوصيّة لا توجد - تلك الخصوصيّة - في غيرها، وهي غير محدودة بحدٍّ، وتنكشف في طيّ العصور، ومرّ القرون، وتلك الخصوصيّات غير المتناهية المجعولة منه عزّوجلّ مورد الرحمة الرحيميّة[4]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

---

(١) البيان في تفسير القرآن، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي، ص ٤٣١.

(٢) سورة طه: الآية ٥٠.

(٣) تفسير الصافي- الفيض الكاشاني ج١، ص ٨١.

(٤) مواهب الرحمن، آية الله العظمى السيد عبدالأعلى السبزواري ج١، ص ١٩- ٢٠. وقد ذكر في المصدر الآنف: نعم، من أهم مصاديق الرحمانية تنظيم عالم التكوين بأحسن نظام، ومن أجلى مصاديق الرحيمية تنظيم التشريع بأكمل نظام، وأثر التشريع إنما يظهر بالنسبة إلى المؤمنين

وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

من آثار رحيميّة الله:

أ- كمال التشريع:

عرّف علماء الأصول الأحكام الشرعية بأنها: الأحكام الصادرة من المولى؛ لتنظيم حياة الإنسان في جميع الأصعدة، الفرديّة منها والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، وغير ذلك، حتّى قالوا: (ما من واقعةٍ إلا ولها حكمٌ.)؛ إشارةً إلى شمولية الأحكام الشرعيّة لجميع جوانب الحياة من دون استثناءٍ، فأيّ واقعةٍ من وقايع الحياة تجد للشريعة موقفاً محدّداً وواضحاً بإزائها.

وهذه الأحكام تهدف إلى إسعاد الإنسان في النشأتين معاً، لا أنْ تؤْثر نشأةً على نشأةٍ، فهي وإنْ اهتمّت كثيراً بالنشأة الآخرة؛ لكونها نشأة البقاء؛ والخلود؛ والنعيم الدائم السرمديّ الّذي لا انقطاع له، إلا أنّها اهتمّتْ أيضاً بالنشأة الأولى؛ كونها تشكّل واحدةً من نشآت حياة الإنسان؛ ومعبراً مهمّاً لنشأة الخلود.

العاملين به، اختص الرحيمية بالآخرة من هذه الجهة، فهو – تعالى – رحيم في الدنيا بالتشريع، وفي الآخرة بالجراء عليه. وقد ذكر مجموعة فوارق بينهما يمكنك الرجوع إليها في المصدر الآنف الذكر.

(١) سورة الحديد: الآية ٢٨.

فشعار الإسلام هو: السعادة في النشأتين، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

ثمّ إنّ من أسرار خلود هذه الشريعة، وخاتميّتها للشرائع هي: أنّها تتناغم مع الفطرة البشريّة، وتلبّي احتياجاتها، وترشدها إلى كمالها المرجوّ، قال تعالى - مشيراً إلى هذه الحقيقة -: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

أضف إلى ذلك أنّها مبتنيّة على الرأفة، والرحمة، بعيدةٌ تمام البعد عن إيقاع الإنسان في العسر، أو الحرج، أو الإضرار به، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

وقال سبحانه في نفي الأحكام الحرجيّة: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦.

(٥) سورة الحج: الآية ٧٨.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنّه قال: «**لا ضرر ولا ضرار**»(١)، وبذلك نفى أيّ حكمٍ ضرريٍّ في الإسلام.

وما نراه من فسادٍ قد ساد أرجاء العالم في جميع شؤونه هو من جرّاء عدم احترام قوانين الله تعالى، وأحكامه الّتي جاءت لسعادة هذا الإنسان، وقد أشار المولى إلى هذه الحقيقة قائلاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

ب- كمال الجزاء الأخرويّ:

إنّه - وبمجرد الالتفات إلى الجزاء المترتّب على الأعمال - يقطع الإنسان بمدى سعة رحمة الله تعالى، وعظمة رحيميّته تعالى في يوم الجزاء، حيث ينكشف للعبد حينها بأنَّ الله عزّ وجلّ كم كان يهيِّئ الأسباب تلو الأسباب؛ لتكون ذريعةً لإدخالنا الجنّة، وينعِّمنا فيها، ويحرّم أجسادنا على النار، والعذاب فيها، إلا أنَّ الكيِّس مَنْ يعطي هذه الذريعة لله تعالى، ويتمسّك بهذه الأسباب اليسيرة؛ كي يحظى بالسعادة الأبديّة.

رُوِيَ أنّه قيل للإمام عليّ بن الحسين عليه السلام يوماً: «**إنَّ الحسن البصريّ قال: ليس العجب ممّن هلك، كيف هلك؟! وإنّما العجب ممّن نجا، كيف نجا؟!**

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٨، ص ٣٢، ح٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٣) سورة الروم: الآية ٤١.

فقال عليه السلام: أنا أقول: ليس العجب ممّن نجا، كيف نجا؟! وأمّا العجب ممّن هلك، كيف هلك مع سعة رحمة الله؟!»[1].

وكي ينكشف لك - أيّها القارئ العزيز- حقيقة سعة رحمة الله تعالى على العباد في يوم الجزاء، نذكر جانباً يسيراً جدّاً من تلك الروايات:

حسن الظنّ بالله:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«إنّ آخر عبدٍ يؤمر به إلى النار، فيلتفت، فيقول الله جلّ جلاله: اعجلوه. فإذا أُتِيَ به قال له: عبدي لِمَ التفتّ؟**

فيقول: يا ربّ، ما كان ظنّي بك هذا.

فيقول الله جلّ جلاله: عبدي، ما كان ظنّك بي؟

فيقول: يا رب، كان ظنّي بك أن تغفر لي خطيئتي، وتدخلني جنّتك.

قال: فيقول الله جلّ جلاله: ملائكتي، وعزّتي، وجلالي، وآلائي، وارتفاع مكاني، ما ظنَّ بي هذا ساعةً من حياته خيراً قطّ، ولو ظنَّ بي ساعةً من حياته خيراً ما روّعتُه بالنّار، أجيزوا له كذبه، وأدخلوه الجنّة.

ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: ما ظنَّ عبدٌ بالله خيراً إلا كان له عند ظنّه، وما ظنَّ به سوءاً إلا كان الله عند ظنّه به، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧٥، ص ١٥٣، ح ١٧.

أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[(١)]»[(٢)].

لاحظ - أيها العزيز - أنّ مجرّد إظهار حسن الظنّ بالله ﷻ كان له ذلك الأثر البالغ، مع علم الله ﷻ بأنّه كذّابٌ، وأنّه لم يظنّ خيراً بالله ﷻ ساعةً قطّ، فكيف - أيّها العزيز - بمن جاء بشيءٍ يسيرٍ من العمل الصالح، وكان يرجو رحمته الواسعة؟!

الصَدَقة ودخول الجنّة:

عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ الله يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين - شبيهاً بالمعتذر إليهم - فيقول: وعزّتي، وجلالي، ما أفقرتكم في الدنيا من هوانٍ بكم عليَّ، ولترون ما أصنع بكم اليوم، فمن زوَّد منكم في دار الدنيا معروفاً فخذوا بيده اليوم فأدخلوه الجنّة.

قال: فيقول رجلٌ منهم: يا ربّ، إنّ أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم، فنكحوا النساء، ولبسوا الثياب الليّنة، وأكلوا الطعام، وسكنوا الدور، وركبوا المشهور من الدوابّ، فأعطني مثل ما أعطيتهم.

فيقول عزّ وجلّ: ولكلّ عبدٍ منكم مثل ما أعطيتُ أهل الدنيا منذ كانت الدنيا إلى أنْ انقضت الدنيا سبعون ضعفاً»[(٣)].

أقول: لو بذل الإنسان كلّ أموال الدنيا من أجل دخول الجنّة لكان قليلاً بإزاء

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٣.

(٢) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ٢٣١، ح٧.

(٣) الجواهر السنية - الشيخ الحر العاملي، ص ٣٤١- ٣٤٢.

النعيم السرمديّ الّذي لا يخطر على عقل بشرٍ، وما فيه من النعم الوافرة الكاملة.

ومع ذلك نرى أنَّ الباري جلّ وعلا يهبها لأناسٍ تصدَّقوا بعدَّة دراهم في هذه النشأة؛ وما ذلك إلا لأنَّه أرحم الراحمين؛ ورحيمٌ كريمٌ.

هل رحمت عصفوراً؟!

من الأمور الّتي توجب الرحمة الإلهيّة في الآخرة، ويحظى الإنسان بالسعادة الأبديّة، بذْل الإنسان الخير لمطلق خلْق الله تعالى، والتحلّي بأخلاقه تعالى، وحيث إنَّ الرحمة من أعظم صفاته وأشملها، يكون حظّ المتخلّق بهذا الخلق يوم القيامة أوفر وأشمل، ولا يخفى أنَّ بذْل الرحمة على الخلق يشمل جميع المخلوقات، ابتداءً من الإنسان - الّذي هو أشرف المخلوقات -، ومروراً بالحيوان، والطير، والشجر، والنبات، وغيرها.

ففي الخبر: «**ينادي منادٍ في النار: يا حنّان، يا منّان، نجّني من النار، فيأمر الله ملكاً فيخرجه، حتّى يقف بين يديه، فيقول الله عزّ وجلّ: هل رحمت عصفوراً؟**»[1]. أرأيت كيف أنّ الله تعالى يريد من الإنسان أن يوجد أيّة ذريعةٍ ليرحمه بها، وينجّيه من عذابه، حتّى لو كانت من قبيل رحمة عصفورٍ؟!

فما قيمة هذا العصفور الصغير والشفقة عليه بكسرة خبزٍ، أو حبّة قمحٍ، أو ما شابه؟! إلا أنّ ذلك يكشف - وبجلاءٍ - كيف أنّ الله تعالى يريد من الإنسان أن يهيِّئ أيّ مقتضٍ لإفاضة الرحمة عليه.

---

(١) كنز العمال- المتقي الهندي ج ٣، ص ١٦٧.

والّذي يؤيّد ما قلناه هو ورود نصوصٍ أخرى في المقام تكشف أنَّ من موجبات الرحمة هو بذْل الرحمة لأيّ شيءٍ من خلق الله، كما في الخبر:

«إنَّ العبد ليقف بين يدي الله تعالى، فيطول وقوفه، حتّى يصيبه من ذلك كربٌ شديدٌ، فيقول: يا ربّ، ارحمني اليوم.

فيقول له: هل رحمت شيئاً من خلقي من أجلي فأرحمك؟»[(١)].

فمن رحم شيئاً يسيراً، وحقيراً من أجل الله تعالى شملته - إن شاء الله ﷻ - رحمة الله الواسعة.

تنبيهٌ:

أيّها العزيز، إنَّ سرد هذه الروايات الشريفة كان بداعي الإشارة إلى سعة رحمة الله ﷻ في النشأتين، وبالخصوص في نشأة البقاء والخلود؛ كي يعيش الإنسان الأمل، والرجاء بالفوز بالجنّة، ويسعى - قدر المستطاع - إلى تحصيل أكثر أسباب النجاة والفوز، وليس الغرض من عرضها - أو سردها - هو إيجاد حالة التواكل، أو الخمول في العبد بعد صدور بعض الأعمال الصالحة منه، حيث إنّ كلّ ما أوردناه إنّما هو بمنزلة المقتضي، والسبب لنيل الرحمة الإلهيّة، وهي مشروطةٌ بعدم وجود مانعٍ لذلك الجزاء، من قبيل الرياء في العمل، أو العجب، أو اقتراف بعض الذنوب الكبيرة الّتي توجب الخلود في النار، نستجير بالله تعالى منها.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير- المناوي ج ١، ص ٦٠٦.

شفاعة المؤمن:

إنّ سعة رحمة الله ﷻ لا تقتصر على الدنيا، بل تشمل عـالم الآخـرة، بـل إنّهـا تتجلّى في ذلك العالم بدرجةٍ يطمع فيها حتّى إبليس الرجيم - كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات - .

وهذا من الأمور الواضحة عند المسلمين، ولذلك سنكتفي بروايةٍ واحدةٍ؛ لتـرى عظمة وسعة رحمة الله ﷻ، وكيف أنّه يريد لنا الخير، والفوز بالجنّة، ويتفضّل علينـا بنعيمها، والخلاص من النار، وسرابيل القطران.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**الله رحيمٌ بعباده، ومن رحمته أنّـه خلـق مائة رحمةٍ، جعل منها رحمةً واحدةً في الخلق كلّهم، فبها يتراحم النـاس، وتـرحم الوالدة ولدها، وتتحنّن الأمّهات من الحيوانات على أولادها، فإذا كان يوم القيامـة أضاف هذه الرحمة الواحدة إلى تسعٍ وتسعين رحمة، فيرحم بها أمّة محمّـدٍ ﷺ، ثمّ يشفّعهم فيمن يحبّون له الشفاعة من أهل الملّة، حتّى أنّ الواحد ليجيء إلى مؤمنٍ من الشيعة فيقول: اشفع لي، فيقول: وأيّ حقٍّ لك عليّ؟**

فيقـول: سقيتك يوماً ماءً، فيذكر ذلك، فيشفع له، فيشفّع فيه، ويجيئـه آخـر، فيقول: إنّ لي عليك حقاً، فاشفع لي.

فيقول: وما حقّك عليّ؟

فيقول: استظللت بظل جداري ساعةً في يومٍ حارٍّ، فيشفع له، فيشفّع فيه، ولا يزال يشفع حتّى يشفّع في جيرانه، وخلطائه، ومعارفه، فإنّ المؤمن أكرم على الله مما

تظنّون»[١].

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

رحيميّة العبد:

اتّضح مما تقدّم أنّ من أسباب المغفرة الإلهيّة للعبد يوم القيامة هو تحلّي العبد بشيءٍ من الرحمة، والتخلّق بهذا الخلق الإلهيّ. والروايات الواردة في الحثّ على التخلُّق بهذا الخلق الرفيع السامي كثيرةٌ جدّاً؛ وذلك لأمورٍ، منها:

أوّلاً: لأنّها من أسماء الله الحسنى الكماليّة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣]، والإنسان بفطرته يسعى للتّخلّق بالموجودات الكاملة، فكيف بالكامل المطلق، والتخلّق بأخلاقه تعالى؟!

ثانياً: أنّها من أبرز صفات النبيّ الّذي امتدحه القرآن بها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٤]، وقد أمرنا الباري باتّخاذ الرسول أسوةً ،وقدوةً حسنةً في حياتنا.

ثالثاً: أنّها من صفات المؤمنين الكُمّل، الّذين امتدحهم القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ

---

(١) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ٨، ص ٤٤، ح٤٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١٨.

(٣) سورة النحل: الآية ١٨.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

ﱡالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةًﱠ[1].

قد تُصوِّر للإنسان نفسُه الأمارةُ بالسوء صعوبةَ التخلُّق بأخلاق الله ﷻ، أو نبيِّه العظيم، وأنّه معصومٌ، وأنَّى لنا التخلّق بأخلاق المعصومين؟! فجاءت إشارة المولى أنَّ هناك الكثير من أصحاب النبيّ ﷺ مَن نال هذه الصفة، وتخلّق بها، ولم يكن معصوماً سوى أنّه أراد، فسعى جاهداً لنيل شرف الاتّصاف بذلك، وقد وفّقه الله تعالى، ويسَّر أمره، بعد أنْ رأى الصدق، والجدَّ منه.

رابعاً: وجود حثٍّ مباشرٍ للاتصاف بهذه الصفة، وإسداء الرحمة لخلق الله تعالى، والروايات في ذلك كثيرةٌ، هذه بعضٌ منها:

أ – فعن النبيّ ﷺ أنه قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء**»[2].

ب– وعنه ﷺ: «**إنَّ الله رحيمٌ، يحبُّ الرحيم، يضع رحمته على كلّ رحيمٍ**»[3].

جـ– وهذه الروايات كثيرةٌ في كتب الفرقين، كما أنَّ هناك رواياتٌ ذامّةٌ لمن لم يسعَ للاتّصاف بهذه الصفة اللطيفة الربّانيّة، وتعتبره في عداد الخاسرين، كما عن النبي ﷺ: «**خاب عبدٌ وخسر، لم يجعل اللهُ تعالى في قلبه رحمةً**

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(٢) مستدرك الوسائل– الميرزا النوري ج٩، ص ٥٥– ٥٦،ح٨.

(٣) كنز العمال– المتقي الهندي ج ٤، ص ٢٤٩،ح ١٠٣٨١.

للبشر»[١].

كما أنَّ رحيميّة العبد تعني - في المقام -: السعي نحو إسداء الإحسان والرحمة للأقربين؛ فهم أولى بالمعروف من غيرهم، وإسدائهما للمؤمنين الأخيار، وكلّ من كان له ميزةٌ وخصوصيّةٌ شرعيّةٌ - كالعلم، والتقوى - يكون أولى من غيره، ومقدَّمٌ عليه.

بخلاف رحمانيّة العبد؛ حيث إنَّها تشمل جميع خلق الله تعالى بنحوٍ مطلقٍ، من دون ملاحظة تلك الخصوصيّات.

العبد والرحيم:

نشير في هذه الوريقات إلى بعض جوانب رحيميّة العبد؛ كي يتسنّى للمريد بالتخلّق بأخلاق الله تعالى بعض وجوه ذلك، راجين منه سبحانه العون، والتوفيق.

قد تقدّم[٢] أنَّ الفارق بين الرحمن والرحيم هو كون الأوّل يشمل كلّ خلْق الله تعالى من دون تمييزٍ بينهم، بخلاف الرحيم، الّذي هو خاصٌّ بصنفٍ خاصٍّ من كلّ فئةٍ أو نوعٍ، بحيث يكون له ميزةٌ على غيره تشريعاً، أو تكويناً.

على هذا الأساس واللحاظ يكون أصحاب الميزة والتميُّز مشمولين بالرحمتَين؛ الرحمانيّة والرحيميّة معاً، وتكون الرحمة في حقّهم آكد.

---

(١) كنز العمال- المتقي الهندي ج ٣:١٦٢، ح٥٩٦٨.

(٢) راجع عنوان «الفرق بين الرحمن والرحيم».

أ- صلة الرحم:

إنَّ التواصل والتزاور بين المؤمنين ممّا رغَّب فيه الشارع الأقدس، ففي الخبر: عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إنَّ المؤمن ليخرج إلى أخيه يزوره، فيوكّل الله به ملكاً، فيضع جناحاً في الأرض، وجناحاً في السماء؛ يظلّه، فإذا دخل إلى منزله نادى الجبّار عزّ وجلّ: أيّها العبد المعظّم لحقّي، المتّبِع لآثار نبيّي، حقٌّ عليَّ إعظامك، سلْني أعطِكَ، ادعني أجبْكَ، اسكتْ أبتدئْكَ، فإذا انصرف شيَّعه الملك، يظلُّه بجناحه حتّى، يدخل إلى منزله، ثمّ يناديه عزّ وجلّ: أيّها العبد المعظّم لحقّي، حقٌّ عليَّ إكرامك، قد أوجبتُ لك جنّتي، وشفَّعتُك في عبادي**»(١).

إلا أنَّ التواصل مع الأرحام له من الأجر والثواب ما تقدَّم، ولعلّه أكثر من ذلك، حيث إنّه يصدق عليهم العنوان الأوّل المتقدّم، وهو زيارة أخيه المؤمن في الله، فما كان له من فضلٍ يناله - إن شاء الله تعالى - ، وكذلك ينال أجر صلة الرحم، والروايات في فضلها كثيرةٌ، منها:

١- عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**مَنْ مشى إلى ذي قرابةٍ بنفسه وماله ليصل رحمه، أعطاه الله عزّ وجلّ أجر مائة شهيد، وله بكلّ خطوةٍ أربعون ألف حسنة، ويُمحى عنه أربعون ألف سيئة، ويُرفع له من الدرجات مثل ذلك، وكأنّما عَبَدَ الله مائة سنة صابراً محتسباً**»(٢).

---

(١) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج١٤،٥٨٩،ح٣.

(٢) مستدرك الوسائل - الميرزا النوري ج١٥، ص٢٤٩، ح ٤٥.

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام: «صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»[١].

٣- عن أبي جعفر عليه السلام: «صلة الأرحام تزكّي الأعمال، وتدفع البلوى، وتنمّي الأموال، وتنسئ له في عمره، وتوسّع في رزقه، وتحبّب في أهل بيته، فليتقّ الله، وليصل رحمه»[٢].

واعلم أنّ تحقيق صلة الرحم - الّذي له من الأجر ما قد علمتَ - ليس صعباً، بل له مصاديق في غاية السهولة، وهي كثيرةٌ، ومتنوعةٌ، من قبيل الاتّصال بهم، أو تفقُّد أحوالهم، أو إهداء كتابٍ، وغير ذلك[٣].

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٢، ص ٥٣٤- ٥٣٥،ح٨.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٢، ص ٥٣٤- ٥٣٥،ح١٠.

(٣) سئل السيد آية الله العظمى الخوئي رحمه الله - وكذا آية الله العظمى الشيخ التبريزي رحمه الله - بهذا الخصوص، وهذا نصه:.. ما هو أدنى عمل يمكن أن يقوم به الإنسان لصلة رحمه إذا كان هناك ظرف معين يصعب معه - أو يتعذر - أن يزوره؟

الخوئي:... وأدنى عمل يقوم به الإنسان في صلة أرحامه - مع الإمكان والسهولة - هو أن يزورهم أو يتفقد حالهم ولو بغير زيارة.- صراط النجاة، الميرزا جواد التبريزي ج ١:٣٢٩-٣٣٠. سؤال ٩٠٣.

التبريزي: قد ذكرنا فيما سبق أن صلة الرحم لا تنحصر بالذهاب إليه، فإن هذا لا يجب في مفروض السؤال، ولكن صلة الرحم بإرسال الكتاب إليه، المشتمل على الإرشاد والنصيحة، مع إبلاغ السلام،...صراط النجاة- آية الله العظمى الشيخ ميرزا جواد التبريزي ج ٣، ص ٢٩٥- ٢٩٦.

ب-إكرام السادة الكرام:

ممّا ينبغي للمتخلِّق بأخلاق الله - ورحيميّته بالخصوص - أنْ يُحسِنَ ويعطف على السادة الكرام؛ وذلك لما ندب إليه الشارع الأقدس؛ وحثَّ على إكرامهم؛ واحترامهم؛ والسعي في مساعدتهم؛ ورفع الموانع والمعضلات من أمامهم؛ وقضاء حوائجهم؛ وغير ذلك من الأمور الحسنة؛ تعظيماً لحقِّ جدهم الرسول الأكرم وآله - عليهم أفضل الصلاة والسلام - ؛ ولما بذلوا من جهدٍ وعناءٍ في هداية البشريّة؛ وسوقهم الناس إلى الله تعالى ورضوانه، وهي من أعظم النعم على المؤمنين على الإطلاق.

وفي الأخبار أنَّ إكرامهم وصلتهم صلةٌ لرسول الله ﷺ، وتعظيمٌ له، والتعظيم له - عليه وعلى آله السلام - تعظيمٌ لله تعالى.

ومن تلك الأخبار ما رواه العلامة المجلسيّ رحمه الله، عن التفسير المرويّ عن الإمام العسكريّ عليه السلام أنّه قال: «**وتفسير قوله عزّ وجلّ: (الرحمن)، إنَّ قوله: الرحمان مشتقٌّ من الرحم.**

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله عزّ وجلّ: أنا الرحمان، وهي الرحم، شققتُ لها اسماً مِنْ اسمي، مَنْ وصلها وصلته، ومَنْ قطعها قطعته.

ثم قال عليٌّ عليه السلام: أوَ تدري ما هذه الرحم الّتي مَنْ وصلها وصله الرحمان، ومَنْ قطعها قطعه الرحمان؟!

فقيل: يا أمير المؤمنين، حثَّ بهذا كلّ قومٍ على أنْ يكرموا أقرباءهم، ويصلوا أرحامهم.

فقال لهم: أيحثّهم على أنْ يصلوا أرحام الكافرين؟! وأنْ يعظمّوا مَنْ حقَّره الله، وأوجب احتقاره مِنْ الكافرين؟!

قالوا: لا، ولكنّه يحثّهم على صلة أرحامهم المؤمنين.

قال: فقال: أوجب حقوق أرحامهم لاتّصالهم بآبائهم وأمّهاتهم؟!

قلتُ: بلى يا أخا رسول الله صلّى الله عليه وآله.

قال: فهم إذن إنّما يقضون فيهم حقوق الآباء والأمّهات؟!

قلتُ: بلى يا أخا رسول الله.

قال: فآباؤهم وأمّهاتهم إنّما غذوهم في الدنيا، ووقوهم مكارهها، وهي نعمةٌ زائلةٌ، ومكروهٌ ينقضي، ورسول ربّهم ساقهم إلى نعمةٍ دائمةٍ لا تنقضي، ووقاهم مكروهاً مؤبّداً لا يبيد، فأيُّ النعمتين أعظم؟!

قلتُ: نعمة رسول الله صلّى الله عليه وآله أجلّ، وأعظم، وأكبر.

قال: فكيف يجوز أنْ يحثّ على قضاء حقّ مَنْ صغّر الله حقَّه، ولا يحثّ على قضاء حقّ مَنْ كبّر الله حقه؟!

قلتُ: لا يجوز ذلك.

قال: فإذن حقّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أعظم مِنْ حقّ الوالدين، وحقّ رحمه أيضاً أعظم من حقّ رحمهما، فرحم رسول الله صلّى الله عليه وآله أولى بالصلة، وأعظم في القطيعة، فالويل -

كلّ الويل – لمن قطعها، والويل – كلّ الويل – لمن لم يعظّم حرمتها، أوَ ما علمتَ أنَّ حرمة رحم رسول الله ﷺ حرمة رسول الله ﷺ؟! وأنَّ حرمة رسول الله حرمة الله؟! وأنَّ الله أعظم حقّاً من كلّ منعمٍ سواه؟! فإنَّ كلّ منعمٍ سواه إنَّما أنعم حيث قيّضه[1] له ذلك ربّه ووفّقه»[2].

ح- هداية أيتام آل محمّد:

إنَّ من مصاديق رحمانيّة عباد الله هو السعي الدائم في هداية خلق الله، وسوقهم إلى بارئهم ﷻ، كما أنَّ من مصاديق رحيميّة عباد الله هو هداية شيعة أمير المؤمنين عليه السلام إلى نهجه، وأهدافه، وتقوية عقائدهم، ومبادئهم، بعرض الأدلّة، والبراهين العقليّة، والنقليّة على صحة معتقداتهم، وفساد معتقدات غيرهم؛ رحمةً؛ وعطفاً على الشيعة – زادهم الله عزّاً، وشرفاً – .

ولعلّ هذا الأمر من أهمّ الواجبات المنوطة بالعباد في هذا الزمن، فهي أهمّ بكثيرٍ ممّا يهتم به البعض من المسائل الفرعيّة الّتي لا يقع العبد فيها إلا في السنة حسنةً، ولعمري ما قيمة هذه الفروع لو – لا سمح الله تعالى – انحرف هذا المؤمن عن الجادّة، والصراط المستقيم؟! فالأصول الاعتقاديّة أهمّ من الفروع الدينيّة، ومقدَّمةٌ عليها.

ويتأكّد هذا الوجوب في هذا الزمان الّذي كثر فيه الغزو الثقافيّ من قبل أعداء الإسلام، من خلال الفضائيّات، والصحف، والمجلات، ووسائل الإعلام المختلفة؛ لما

---

(١) قيّضه: أي قدَّره – مجمع البحرين، الشيخ الطريحي ج ٣، ص٥٧٥، باب: ق ي ض.

(٢) بحار الأنوار – العلامة المجلسي ج٢٣، ص ٢٦٦ – ٢٦٧، ح١٢.

يرون من تقدُّم الحقّ؛ وظهور نوره البهيّ في أرجاء العالم؛ واستطاعته مقاومة جميع الأفكار والأيدلوجيات الباطلة؛ وفرض وجوده بكلّ قوّةٍ وجدارةٍ، كما هم في إيران الإسلاميّة، ولبنان الباسلة، والعراق ذات الحضارة.

لذا تجد بعض من أعمى الله أبصارهم -كما أعمى قلوبهم- يسعى جاهداً في تضليل بعض بسطاء الشيعة عن معتقداتهم الحقّة ببعض الأكاذيب على الشيعة، أو بإشكالاتٍ هي أوهى من بيت العنكبوت.

ومن هنا لزم على كل متخلّقٍ بأخلاق الله تعالى السعي بتعلّم تلك المسائل الخلافيّة بإحْكامٍ وإتقانٍ، ثمّ السعي في الدفاع عن بيضة الإسلام، وراية التشيّع، فيدخِل السرور والبهجة على قلب مولانا الإمام، صاحب العصر عجل الله فرجه وأجداده الطاهرين عليهم السلام.

كما روي عن الإمام الهمام، أبي محمّدٍ العسكريّ عليه السلام في تفسيره: «حدّثني أبي، عن آبائه عليهم السلام ، **أنّه قال: أشدّ من يتم اليتيم الّذي انقطع عن أبيه، يتمُ يتيمٍ انقطع عن إمامه، ولا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري حكمه فيما يُبتلى به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا، فهذا الجاهل بشريعتنا، المنقطع عن مشاهدتنا، يتيمٌ في حجره، ألا فمن هداه، وأرشده، وعلّمه شريعتنا، كان معنا في الرفيق الأعلى**»[1].

وعن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام -وقد حمل إليه رجلٌ هديّةً- فقال له:

(١) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ١٨، ص ٣١٧، ح ٢٠.

«أيّما أحبّ إليك، أنْ أردّ عليك بدلها عشرين ضعفاً، أو أفتح لك باباً من العلم تقهر فلاناً الناصبيّ في قريتك، تنقذ به ضعفاء أهل قريتك؟ إنْ أحسنتَ الاختيار جمعتُ لك الأمرين، وإنْ أسأت الاختيار خيّرتُك لتأخذ أيّهما شئتَ.

فقال: يا بن رسول الله، فثوابي في قهري ذلك الناصب، واستنقاذي لأولئك الضعفاء من يده قدره عشرون ألف درهماً؟

قال: بل أكثر من الدنيا عشرين ألف ألف مرة.

قال: يا بن رسول الله، فكيف أختار الأدون؟! بل اختار الأفضل، الكلمة الّتي أقهر بها عدوّ الله، وأذوده عن أوليائه.

فقال الحسن بن عليٍّ عليه السلام: قد أحسنتَ الاختيار، وعلّمه الكلمة، وأعطاه عشرين ألف درهماً، فذهب، فأفحم الرجل، فاتّصل خبره به، فقال له حين حضر معه: يا عبد الله، ما ربح أحدٌ مثل ربحك، ولا اكتسب أحدٌ من الأودّاء مثل ما اكتسبت، مودّة الله أوّلاً، ومودّة محمّدٍ وعليٍّ ثانياً، ومودّة الطيّبين من آلهما ثالثاً، ومودّة ملائكة عزّ وجلّ المقرّبين رابعاً، ومودّة إخوانك المؤمنين خامساً، واكتسبتَ بعدد كلّ مؤمنٍ وكافرٍ ما هو أفضل من الدنيا ألف مرة، فهنيئاً لك، هنيئاً».

وقال أبو محمّدٍ عليه السلام: «قال جعفر بن محمّدٍ عليه السلام: مَنْ كان همّه في كسر النواصب عن المساكين من شيعتنا الموالين حميّةً لنا أهل البيت، يكسرهم عنهم، ويكشف عن مخازيهم، ويبيّن عوراتهم، ويفخّم أمر محمّدٍ وآله، جعل الله - تعالى - همّة أملاك الجنان في بناء قصوره ودوره، يستعمل بكلّ حرفٍ من حروف حججه على أعداء الله أكثر من عدد أهل الدنيا أملاكاً، قوّة كلّ واحدٍ يفضل عن حمل السماوات

والأرضين، فكم من بناءٍ؟! وكم من نعمةٍ؟! وكم من قصورٍ لا يعرف قدرها إلا ربّ العالمين؟!»[١].

د- الإحسان إلى الشيعة:

ومن الصفات البارزة في المتّصف بصفة الرحيميّة هو الإحسان إلى الشيعة - أعزَّهم الله تعالى -، والسعي في قضاء حوائجهم، ورفع الكربات من حياتهم، وإدخال السرور في قلوبهم، وغير ذلك من أفعال البرّ، والرحمة، والخير، وقد مدح ﷻ أولئك الرحماء في محكم كتابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴾[٢].

وكيف لا يمتدحهم وقد اتّصفوا بأعمّ صفاته سبحانه، وأوسعها، الّتي شملت جميع ما سواه ﷻ؟! وهي صفةٌ من الصفات الفعليّة الإلهيّة الّتي اهتمّ بها الباري جلّ وعلا بشكلٍ خاصٍ، فبيّن أهمّيّتها، ومنزلتها عنده، وعند مَنْ يريد الاتّصاف بها.

لا ينقطع عجبي ممّن يزهد في هذه الصفة الجليلة، ولا يسعى للتخلّق بها، ولا يسعى في قضاء حوائج المحتاجين، أو يدخل السرور في قلوبهم، الّتي هي مدعاةٌ للتكافل، والتكامل، والترابط الاجتماعيّ، فيعيش الفرد منّا براحة بالٍ، يغمره السرور، والبهجة برفع كربة أخيه، ويخطو بالمجتمع الإسلاميّ نحو هدفه المنشود، وهي المدينة المهدويّة الفاضلة، الّتي لا يبقى للحرمان، والفقر، والفاقة، والظلم من

---

(١) كلتا الروايتين من الاحتجاج- الشيخ الطبرسي ج ١، ص ١٩- ٢٠.

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٩.

معنىً فيها.

ويكفي لزرع الشوق والهمَّة في قلوبنا - لنسعى نحو التراحم، والإحسان، وإدخال السرور في قلوب المؤمنين - أنْ ننظر - ولو نظرةً خاطفةً - فيما ورد من الأجر العظيم لهذه الصفة، نذكر بعضاً منها:

١- عن زيدٍ الشحام قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**مَنْ أغاث أخاه المؤمن اللهفان عند جهده، فنفّس كربته، وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله عزّ وجلّ له بذلك اثنتين وسبعين رحمةً من الله، يُعجِّل له منها واحدةً يصلح بها أمر معيشته، ويدّخر له إحدى وسبعين رحمةً؛ لأفزاع يوم القيامة وأهواله**»[١].

٢- عن أسيد بن حضيرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من أغاث أخاه المسلم حتّى يخرجه من همٍّ، وكربةٍ، وورطةٍ، كتب الله له عشر حسناتٍ، ورفع له عشر درجاتٍ، وأعطاه ثواب عتق عشر نسماتٍ، ودفع عنه عشر نقماتٍ، وأعدّ له يوم القيامة عشر شفاعاتٍ**»[٢].

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**مِن كفارة الذنوب العظام: إغاثة الملهوف، والتنفيس عن المكروب**»[٣].

٤- عن أبان بن تغلب قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن حقّ المؤمن على

---

(١) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج١١، ص ٥٨٦،ح١.

(٢) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج١١، ص ٥٨٨، ح٨.

(٣) وسائل الشيعة - الشيخ الحر العاملي ج١١، ص ٥٨٨، ح١٠.

المؤمن، فقال: «حقّ المؤمن على المؤمن أعظم من ذلك، لو حدّثتكم لكفرتم، إنّ المؤمن إذا خرج من قبره خرج معه مثالٌ من قبره يقول له: أبشر بالكرامة من الله والسرور، فيقول له: بشّرك الله بخيرٍ.

قال: ثمّ يمضي معه يبشّره بمثل ما قال، وإذا مرّ بهولٍ قال: ليس هذا لك، وإذا مرّ بخيرٍ، قال: هذا لك.

فلا يزال معه، يؤمنه ممّا يخاف، ويبشّره بما يحبّ، حتّى يقف معه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أمر به إلى الجنّة قال له المثال: أبشر؛ فإنّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أمر بك إلى الجنّة.

فيقول له: مَنْ أنت يرحمك الله؟!

فيقول: أنا السرور الّذي كنتَ تدخله على إخوانك في الدنيا، خُلقتُ منه؛ لأبشّرك؛ وأؤنس وحشتك»[(١)].

ذكر الرحيم:

ينقل الشيخ الكفعميّ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه المصباح، عن العارف الشيخ رجب بن محمّد البُرسي:

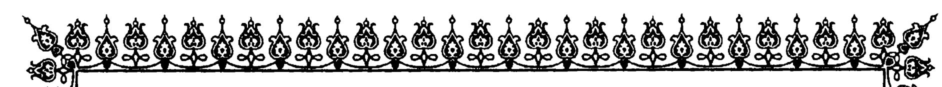
«الرحمن الرحيم: من خواصّهما حصول اللطف الإلهيّ إذا ذكر عقيب كلّ فريضة مائة مرة»[(٢)].

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج١٦، ص ٣٥٣- ٣٥٤، ح١٣.

(٢) المصباح- الشيخ الكفعمي، ص ٤٧٧. باب في الأسماء الحسنى وشرحها.

فلا بأس بالإتيان بهذا الذكر برجاء المطلوبيّة، مع تلقين النفس بالمعاني السـامية الّتي تكمن في هذين اللفظين الشريفين، والسعي لتجسيد دور العبد من هذا الاسـم، عسى الله أن يمنّ على العبد المتخلّق بهما برحمته الواسعة، وألطافه الخفيّة، حينما يجد الصدق، والإخلاص، والسعي كان شعاراً لعبده.



الموضوع التاسع:

الـرَّبُّ

١- مِن تجلّيات الربوبيّة.

٢- الإمام الصادق عليه السلام مع مفضّل.

٣- إعطاء الربوبيّة حقـّها.

٤- العبد والربوبيّة.

٥- الحذر مِن ربوبيّة النفس.

٦- ذكر: (يا ربّ).

الــربُّ

قال تعــالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ

---

(١) سورة نوح: الآية ٢٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤٠- ٤١.

لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[١].

قال آية الله العظمى السيد عبد الأعلى السبزواريّ ﵀:

«لهذا الاسم – الربّ– منزلةٌ عظيمةٌ في الكتب السماويّة، لا سيّما القرآن المهيمن على جميعها، فهو من أمّهات الأسماء المقدّسة، كالحيّ، والقيّوم، بل هو الأمّ وحده؛ لأنّه ينطوي فيه الخالق، والعليم، والقدير، والمدبِّر، والحكيم، وغيرها؛ فإنّه غير الخلق، كما يُستفاد من قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[٢]، أي خلقهنَّ.

وقد ذكر بعض المفسّرين – تبعاً لجمعٍ من اللغويين – أنَّ الربّ بمعنى: المالك، والمَلِك، أو الصاحب.

لكنّ التدبُّر في استعمالات هذا اللفظ يعطي أنَّ المَلِك شيءٌ، وربّانيّته شيءٌ آخر، قال تعالى: ﴿...ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ...﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾[٤].

فإنَّ فيه خصوصيّةً ليست في المالك، والمَلِك، والصاحب، وهي الربوبيّة الحقيقيّة، الناشئة عن الحكمة الكاملة، الّتي لا يتصوّر النقص فيها بوجهٍ، فالتكوين شيءٌ،

(١) سورة طه: الآية ٢٥– ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥٦.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦.

(٤) سورة الناس: الآية ١– ٣.

وتنظيم عالم التكوين بتربيبه على النظام الأحسن شيءٌ آخر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ...﴾(١).

ويدلّ على ذلك - مضافاً إلى ما ذُكر - عدم صحّة استعمال كلّ واحدٍ منها مقام الآخر في الاستعمالات الصحيحة، إلا بالعناية.

وعلى أيّ حال، فإنَّ الربّ مَجْمَع جميع أسماء أفعال الله المقدّسة؛ لأنَّ جميع أفعاله عَزَّوَجَلَّ متشعّبةٌ من جهة تدبيره تعالى، وتربيبه في كلّ موجودٍ بحسبه، فالربّ مظهر الرحمة، والخلْق، والقدرة، والتدبير، والحكمة، فهو الشامل لما سواه تعالى، فإنّهم المربوبون له - تعالى - على اختلاف مراتبهم.

فكم فرقٌ بين الربوبيّة المتعلّقة بالرسول الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، أو سائر الأنبياء العظام، أو ملائكته المقرّبين، وما تعلّق بسائر الناس؟!

فالربوبيّة لها مراتب، تختلف باختلاف مراتب المربوب والمتعلّق، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(٣)، وقد ورد في الأثر عن أئمة الهدى عَلَيْهِمْالسَّلَامُ: (ربّ الملائكة والروح).

وقد قُرِنَ هذا اللفظ في القرآن الكريم بما يفيد عظمته وجلالته، قال تعالى:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٢) سورة العلق: الآية ٣.

(٣) سورة الزمر: الآية ٧٥.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[٥]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

ولجلال عظمته وقع مُقْسَماً به، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[٨].

ولأجل ما تقدّم - من أنّه أمّ الأسماء، وكونه مظهراً لجملةٍ من أسمائه المقدّسة- لم يرد في القرآن الكريم دعاءٌ من عباده إلا مبدوّاً باسم الربّ، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا...﴾[١٠]، وقال

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٨٠.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٨٦.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٢٦.

(٤) سورة يس: الآية ٥٨.

(٥) سورة سبأ: الآية ١٥.

(٦) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٧) سورة الحجر: الآية ٩٢.

(٨) سورة الذاريات: الآية ٢٣.

(٩) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

(١٠) سورة آل عمران: الآية ١٤٧.

تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[٢]، وغيرها من الآيات المباركة.

ولعلَّ السِّرّ في ذلك هو: إفادة هذا اللفظ حالة الانقطاع إلى الله تعالى أكثر من غيره، ولذا وقع من أنبيائه العظام في تلك الحالة، فقد قال تعالى على لسان نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[٣]، وقال تعالى عن لسان نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾[٤]، فليس في أسمائه المقدّسة أعمّ نفعاً، وأكمل عنايةً ولطفاً من اسم: (الربّ) بالمعنى الّذي ذكرناه.

ولعلَّ المراد بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٧]، هو الربوبيّة العظمى الإلهيّة، فإنَّ التغيّرات والتبدّلات اللازمة لعالم الكون، والفساد، والإفاضات الحاصلة منه — تعالى - على العوالم هي عبارةٌ عن

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٤) سورة نوح: الآية ٥.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٨٨.

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٨٥.

(٧) سورة يس: الآية ٨٣.

الملكوت المضافة إليه – تعالى – .

ومع أنَّ الثابت في علم الفلسفة أنَّ ما سواه عَزَّوَجَلَّ يحتاج إليه – تعالى – في البقاء، كما يحتاج إليه في أصل الحدوث، ففي كلّ لحظةٍ – بل أقلّ منها – له رحمةٌ خالقيّةٌ، وربوبيّةٌ بالنسبة إلى ما سواه من الموجودات، وهذا هو معنى القيموميّة المطلقة الّتي لا يمكن إحاطة الإنسان بها، والربوبيّة العظمى، كعدم إمكان الإحاطة بذاته تعالى وتقدَّس شأنه»[١].

ويمكن تلخيص أهمّ نقاط ما تقدم من معنى الربوبيّة في نقاطٍ، منها:

أ- إنَّ (الربّ) يعني: تنظيم عالم التكوين بتربيبه على النظام الأحسن، وهو غير معنى الخلق والإيجاد، كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[٢].

ب- لهذا الاسم (الربّ) منزلةٌ عظيمةٌ في الكتب السماويّة، لاسيّما القرآن المهيمن على جميعها؛ فهو من أمّهات الأسماء المقدّسة، كالحيّ، والقيّوم، بل هو الأمّ وحده؛ لأنّه ينطوي فيه الخالق، والعليم، والقدير، والمدبّر، والحكيم، وغيرها.

جـ- إنَّ ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ يحتاج إليه – تعالى – في البقاء، كما يحتاج إليه في أصل الإيجاد والحدوث، ففي كلّ لحظةٍ – بل أقلّ منها – له رحمةٌ خالقيّةٌ،

---

(١) مواهب الرحمن، آية الله العظمى السيد السبزواري ج١، ص ٢٨- ٣١.

(٢) سورة الأنبياء: الآية٥٦.

وربوبيّةً بالنسبة إلى ما سواه من الموجودات.

د- لعلَّ منشأ عدم ورود دعاءٍ في القرآن إلا بهذا الاسم هو: إفادة هذا اللفظ حالة الانقطاع إلى الله – تعالى – أكثر من غيره من الأسماء الحسنى.

مِن تجلّيات الربوبيّة:

إنَّ كلّ صفحةٍ من عالم الوجود من دون استثناءٍ يُبْهِر هذا الإنسان المتفكِّر، والمتدبِّر في عالم الخِلقة؛ لما يرى من النظم؛ وحسن التدبير الّذي يسود كلّ جزءٍ من أجزائه، سواءً نظرنا إليه على نحو الانفراد والاستقلال، أو بما هو مندكٌّ وجزءٌ من أجزاء صفحة عالم الوجود، وذلك هو الله، الواحد، الأحد، الّذي هدى، وربَّى، ونظَّم، كلّ هذه الأجزاء في منتهى الدقة والكمال، وعلى أتمِّ وجهٍ، بحيث لا يمكن أنْ يتصوّر هناك نحو تنظيمٍ أحسن، أو أدقّ منه، وهذا ما برهن عليه التقدُّم العلميّ، بل أنَّ أكثر العلوم ما هي إلا اكتشافاتٌ، وهو نحو إزالةٍ للستار والحجاب عن تلك الحقائق والقوانين، الّتي كانت تسود عالم الطبيعة، فكان دور الإنسان إنّما هو في الالتفات، أو العلم بها بعد أنْ كان غافلاً عنها، أو جاهلاً بها.

وليس هناك دينٌ دعا للعلم كما دعا إليه الإسلام، وليست دعوة الإسلام إلى العلم مقصورةً على العلم الدينيّ، وإنّما هي شاملةٌ لكلّ العلوم المفيدة، ومن خلال التقدّم العلميّ يمكن أن تنكشف بعض أسرار الشريعة المقدَّسة، ودقّة أحكامها التشريعيّة، والتكوينيّة.

الإمام الصادق مع المفضّل:

يكشف الإمام الصادق عليه السلام في رواية المفضّل بن عمر الستارَ عن الكثير من القوانين، والنظم الّتي تسود العالم الّذي لطالما غفل عنها الإنسان، أو كان جاهلاً بها، ابتداءً بالإنسان، وانتهاءً بالمجرَّة، والأفلاك، ويبيِّن مدى دقَّة التنظيم، والتدبير، والترتيب لهذا العالم، وقد ذكرنا جملةً منها في الأوراق السابقة بما يناسبها، والآن نشير إلى جانبٍ يسير من تلك الرواية، بما يناسب التنظيم، والترتيب في الخلق، وبحث الربوبيّة[1].

قال الإمام عليه السلام - كما في الرواية -:

«فكِّر يا مفضَّل في الطواحن[2] الّتي جعلت للإنسان، فبعضها حدادٌ[3]؛ لقطع الطعام؛ وقرضه، وبعضها عراضٌ[4]؛ لمضغه؛ ورضّه، فلم ينقص واحد الصفتين؛ إذ

---

(١) وقد بيّن المولى المازندراني أهمية كتاب توحيد الفضل، حيث قال: وإن شئت أن تعرف جملة من تقديرات ربك وتدبيرات إلهك فعليك بمطالعة توحيد المفضل المنقول عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، وقد سمعت عمن أثق به أن السيد الجليل ابن طاووس رضي الله عنه أوصى إلى بعض أحبائه وأمره أن يطالعه، ويمارسه، والحق أنه مع قلة حجمه كتاب يظهر لمَن مارسه من العلم بالحكم الإلهية، والتدبيرات الربوبية ما يكل اللسان عن وصفه، ويعجز البيان عن شرحه. شرح أصول الكافي، مولى محمد صالح المازندراني ج ١، ص ٤٦.

(٢) الطواحن: جمع طاحن، وهو الضرس.

(٣) حداد أي: قاطعة.

(٤) عراض جمع عريض، ضد طويل، وربما أريد المعارضة، وهي السن التي في عرض الفم، أو ما يبدو من الفم عند الضحك.

كان محتاجاً إليهما جميعاً.

تأمّل واعتبر بحسن التدبير في خلق الشعر، والأظفار، فإنّهما لمّا كانا ممّا يطول ويكثر حتّى يحتاج إلى تخفيفه أوّلاً فأوّلاً، جُعلا عديما الحسّ؛ لئلا يؤلم الإنسان الأخذ منهما، ولو كان قصّ الشعر، وتقليم الأظفار ممّا يوجد له ألمٌ وقع من ذلك بين مكروهين، إمّا أنْ يدع كلّ واحدٍ منهما حتّى يطول فيثقل عليه، وإمّا أنْ يخفّفه بوجعٍ وألمٍ يتألّم منه.

قال المفضّل، فقلتُ: فَلِمَ لم يجعل خلقه لا تزيد فيحتاج الإنسان إلى النقصان منه؟

فقال عليه السلام: إنّ لله - تبارك اسمه - في ذلك على العبد نعماً لا يعرفها فيحمده عليها.

اعلم: إنّ آلام البدن، وأدواءه[1] تخرج بخروج الشعر في مسامه[2]، وبخروج الأظفار من أناملها، ولذلك أمر الإنسان بالنورة، وحلق الرأس، وقصّ الأظفار في كلّ أسبوعٍ، ليسرع الشعر والأظفار في النبات، فتخرج الآلام، والأدواء بخروجهما[3]، وإذا طالا تحيّرا، وقلّ خروجهما، فاحتبست الآلام، والأدواء في البدن، فأحدثت

(١) الأدواء جمع داء وهو المرض والعلة.

(٢) المسام من الجلد ثقبه ومنافذه كمنابت الشعر، ومنهم من يجعلها جمع سم، أي الثقب، مثل محاسن وحسن.

(٣) يؤيد هذا الرأي علم الطب الحديث، وإن كانت نظرية التطور تقول بأن الشعر والأظافر من الزوائد الحيوانية الأولى التي لم يعد لها نفع ولا فائدة.

عللاً، وأوجاعاً، ومنع مع ذلك الشعر من المواضع تضرّ بالإنسان، وتحدث عليه الفساد، والضرّ، لو نبت الشعر في العين ألم يكن سيعمي البصر؟! ولو نبت في الفم ألم يكن سينغّص على الإنسان طعامه وشرابه؟! ولو نبت في باطن الكفّ ألم يكن سيعوقه عن صحّة اللمس، وبعض الأعمال؟! فانظر كيف تنكّب[1] الشعر عن هذه المواضع؛ لما في ذلك من المصلحة، ثم ليس هذا في الإنسان فقط، بل تجده في البهائم، والسباع، وسائر المتناسلات، فإنّك ترى أجسامها مجلّلةً بالشعر، وترى هذه المواضع خاليةً منه؛ لهذا السبب بعينه، فتأمّل الخلقة كيف تتحرّز[2] وجوه الخطأ والمضرّة، وتأتي بالصواب، والمنفعة»[3].

إعطاء الربوبيّة حقّها:

يسعى البشر ويتحركون إلى الأمام؛ لوجود محرّكٍ وداعٍ إلى تلك الحركة، إلا أنَّ هذا الداعي ومنشأ الحركة يختلف بحسب سعة الناس، ومداركهم، واطّلاعهم، وثقافتهم، وديانتهم، وغير ذلك من الأسباب، فعلى سبيل المثال:

❖ تجد أنّ الطفل قد يسعى ويثابر بالتعليم والدراسة؛ من أجل الجائزة التي وعَدَهُ بها أبوه إنْ نجح في الامتحان، كإعطائه درّاجةً هوائيّةً مثلاً.

❖ ولكن حينما يكبر هذا الطفل ويصبح مراهقاً، أو بالغاً، ويعيش نضوجه

---

(١) تنكب عليه: عدل عنه وتجنبه.

(٢) احترز منه وتحرز، أي: تحفظه وتوقاه، كأنه جعل نفسه في حرز منه. ملاحظة: التعليقات الواردة في الهامش مأخوذة من المصدر.

(٣) التوحيد- المفضل بن عمر الجعفي، ص ٣٢- ٣٤.

الفكريّ المناسب لمرحلته، يرى أنَّ الدرّاجة وأمثالها من الأمور التافهة، ولا تولِّد فيه ذرةً من الحركة للدراسة والتعليم، وإنَّما يحرّكه في هذه المرحلة ما يناسب كماله الفكريّ، ووعيه الفعليّ، لا الطفوليّ، فتحرّكه السيّارة وأمثالها؛ لأنَّه يراها من الكمالات الَّتي توجب السعادة؛ حيث تُلبّي احتياجاته، فيسعى لتحصيلها.

❖ وبعد تخطِّي مرحلة المراهقة نرى الكثير من قناعاته تتبدّل شيئاً فشيئاً، فلا تكون السيارة هدفاً حصريّاً، أو علّةً تامّةً لتحريكه نحو التحصيل ومواصلة التعليم، بل ذات العلم بما يملك من شرافةٍ وقيمةٍ وقدسيَّةٍ لدى العقلاء، فيسعى للتّعلّم ونيل أعلى الرتب العلميّة، كالدكتوراه مثلاً، وهي لذَّةٌ تفوق لذَّة شراء سيّارةٍ، أو بيتٍ، وغيرهما.

❖ وأمّا العلماء، فإنَّهم يرون الدنيا - وما فيها من زخارف وممتلكاتٍ وعناوين - كلّها تافهةً، لا تستحق بذل جهدٍ من أجلها، ولا يأنس بها إلا من كان ضعيف العقل، وبسيط الذهن، كالطفلة البسيطة الَّتي تغمرها الفرحة والسرور، وكأنَّها ملكت الدنيا وما فيها حينما تمتلك دميةً صغيرةً؛ وما ذلك إلا لبساطة عقلها؛ وعدم إدراكها لما هو أرفع وأجلّ من ذلك بكثيرٍ.

إنَّ العلماء بالله ﷻ لا تحرّكهم الدنيا وزخارفها مثقال ذرّة؛ لعلمهم بسلبيّاتها المتعدّدة الجوانب، من قبيل أنَّها دارٌ فانيةٌ، ودار الآخرة باقيةٌ، والباقي خيرٌ من الفاني، إنَّهم يرون أنّ نعيم الدنيا محدودٌ، وقد لا يتأتّى إلا بالتعب يسبقه، ويتوسّطه، ويلحقه، بخلاف نعيم الآخرة، فلا يعتريه التعب والمشقّة بوجهٍ من الوجوه، بل هي

متعةٌ ولذَّةٌ في جميع الجهات، وإنَّ عظمة نعيمها لا يمكن أنْ يدركها العقل البشريّ في هذه النشأة مهما حاول، وأضفْ إلى ذلك أنَّ الدنيا رأس كلّ خطيئةٍ[١]، ولو لم يكن إلا هذا لكفى في بغضهم لها، وتركها، وبغضها.

واعلم أنَّ العلماء أيضاً على مراتب مختلفةٍ في منشأ تحرّكهم وعبادتهم لله تعالى، ويعود ذلك إلى ما يملكون من معارف كمّاً وكيفاً، وبمقدار ما ينجذبون للحقّ تعالى، وأُنسهم به:

فمنهم مَنْ هيمَنَ عليهم خوف النار، بعد أنْ علموا أنَّها أعظم وأدهى من نار الدنيا، بل لا تُقاس بها، فهم لم يستطيعوا تحمّل نار الدنيا الّتي تطفيها الحجارة والرمل، فكيف يمكنهم أنْ يتحمّلوا ناراً وقودها الناس والحجارة؟![٢] أي: سبباً في زيادة نارها واشتعالها، فعرفوا أنَّ هذه النار أعظم، وأدهى، وليست من سنخ نار الدنيا، فزجرهم هذا العلم من ارتكاب المعاصي، والذنوب، وحثّهم على الطاعة، والانقياد؛ مخافة النار، وبئس القرار.

وقد وردت الروايات الدالّة على عظمة هذه النار، منها ما روي عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قلتُ له: يا ابن رسول الله، خوّفني، فإنَّ قلبي قد قسا.**

---

(١) – كما عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رأس كل خطيئة حب الدنيا. وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٨، ح١.

(٢) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التحريم: الآية٦)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية٢٤).

فقال: يا أبا محمّد، استعدّ للحياة الطويلة، فإنّ جبرئيل جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وهو قاطبٌ، وقد كان قبل ذلك يجيئ وهو متبسّمٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل، جئتني اليوم قاطباً؟!

فقال: يا محمّد، قد وُضِعَتْ منافخ النار.

فقال: وما منافخ النار يا جبرئيل؟

فقال: يا محمّد، إنَّ الله عزّ وجلّ أمر بالنار، فنفخ عليها ألف عامٍ حتّى ابيضّت، ثمّ نفخ عليها ألف عامٍ حتّى احمرّتْ، ثمّ نفخ عليها ألف عامٍ حتّى اسودّتْ، فهي سوداء مظلمةٌ، لو أنَّ قطرةً من الضريع قطرتْ في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، ولو أنَّ حلقةً واحدةً من السلسلة الّتي طولها سبعون ذراعاً وُضِعَتْ على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها، ولو أنَّ سربالاً من سرابيل أهل النار علق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه.

قال: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله، وبكى جبرئيل، فبعث الله إليهما ملكاً.

فقال لهما: إنّ ربّكما يقرؤكما السلام، ويقول: قد أمّنتكما أنْ تذنبا ذنباً أعذّبكما عليه. فقال أبو عبد الله عليه السلام: فما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل متبسّماً بعد ذلك، ثمّ قال: إنَّ أهل النار يعظّمون النار، وإنَّ أهل الجنة يعظّمون الجنّة والنعيم، وإنَّ جهنّم إذا دخلوها هووا فيها مسيرة سبعين عاماً، فإذا بلغوا أعلاها قُمِعُوا بمقامع الحديد، وأُعيدوا في دركها، فهذه حالهم، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا

مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[١]، ثمّ تبدّل جلودهم غير الجلود الّتي كانت عليهم»[٢].

ومنهم من استحوذ عليهم نعيم الجنان، وما فيها من الخيرات، الّتي يعجز اللسان عن وصفها، والعقل عن إدراك حقيقتها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣]، وقد ورد - في تقريب جهةٍ من نعيمها - في نهج البلاغة:

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفتْ نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها، ولذّاتها، وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجارٍ[٤] غيّبت عروقها في كثبان المسك، على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها[٥]، وطلوع تلك الثمار مختلفةً في غلف أكمامها[٦]، تجنى من غير تكلّفٍ[١]، فتأتي على مُنْيَة مجتنيها، ويُطاف على نزّالها في

---

(١) سورة الحج: الآية ٢٢.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٨، ص ٢٨٠، ح١.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٧.

(٤) اصطفاق الأشجار: تضارب أوراقها بالنسيم بحيث يسمع لها صوت. والكثبان-:جمع كثيب، وهو التل.

(٥) جمع فنن- بالتحريك- وهو الغصن.

(٦) غلف - بضمتين - جمع غلاف، والأكمام جمع كم - بكسر الكاف- ، وهو وعاء الطلع، وغطاء النوار.

أفنية قصورها بالأعسال المصفقة[٢]، والخمور المروّقة.

قومٌ لم تزل الكرامة تتمادى بهم، حتّى حلّوا دار القرار[٣]، وأمنوا نقلة الأسفار، فلو شغلت قلبك - أيّها المستمع - بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة[٤] لزهقت نفسك شوقاً إليها، ولتحمّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور؛ استعجالاً بها، جعلنا الله وإيّاكم ممّن سعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته»[٥].

ومنهم ـ وهم الأقلّون النادرون في كلّ الأزمان والعصور ـ الّذين انجذبوا لله - تعالى - وحده، وغفلوا - أو تغافلوا - عن نعيم الجنّة، وعذاب النار؛ إذ كان حبّ الحقّ - تعالى - بالغ الأثر عليهم، مما أدى إلى نسيان ذواتهم، فكيف لا ينسون النار، ونعيم الجنان؟!

وقد زاد الشوق شوقاً، والحب حبّاً، حينما رأوا الباري ﷻ يرغّبهم، ويدعوهم لهذا النحو من العبادة، ويزهّدهم بالمرتبتين السابقتين، وبعبارةٍ أخرى: دعاهم لإعطاء الربوبيّة حقّها:

⮌

(١) تحني: من حناه حنوا عطفه.

(٢) المصفاة.

(٣) قوله: قوم الخ، أي: هم قوم، أي: نزال الجنة قوم شأنهم ما ذكره.

(٤) المونقة: المعجبة. تنبيه: إن التعليقات الواردة في الهامش مأخوذة من المصدر.

(٥) نهج البلاغة - شرح محمد عبده ج ٢، ص٧٥ - ٧٦، في وصف الجنة، ملحق لخطبة: ١٦٥.

روي أنَّ الله تعالى أوحى إلى داود:

«يا داود، إنَّ أحبّ الأحباء إليَّ مَن عبدني بغير نوالٍ، ولكن عبدني ليعطي الربوبيّة حقّها، ومَن أظلم ممّن عبدني لجنّة، أو نار؟! ألم أكن أهلاً أنْ أطاع، وأعبد خالصة؟!»[1].

ولذا تفرّدوا في الدنيا، وكان منشأ حركتهم هو الله تعالى دون غيره، فميَّزهم الله - تعالى- في الدنيا والآخرة؛ لتميّزهم في عبادتهم لله تعالى، وقد مُيِّزوا بأمورٍ عظيمةٍ وجليلةٍ عن سواهم، فهم أفضل الناس على الإطلاق بعد النبيّين، ولهم أفضل شيءٍ في الجنّة، كما أشارت إلى ذلك مجموعةٌ من الروايات، منها:

ما عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أفضل الناس بعد النبيّين - في الدنيا والآخرة - المحبون لله، المتحابّون فيه، وكلّ حبٍّ معلولٍ يورث بعداً فيه عداوةٌ إلا هذين، وهما من عينٍ واحدةٍ، يزيدان أبداً، ولا ينقصان، قال الله عزوجل: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[2]؛ لأنَّ أصل الحبّ التبرّي عن سوى المحبوب.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ أطيب شيءٍ في الجنّة، وألذَّه: حبّ الله، والحبّ في الله، لله، والحمد لله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3]؛ وذلك أنّهم إذا عاينوا ما في الجنّة من النعيم، هاجت المحبّة في قلوبهم، فينادون عند ذلك:

---

(١) شرح أصول الكافي- مولى محمد صالح المازندراني ج ١٠، ص ٧٩.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٣) سورة يونس: الآية ١٠.

أنْ الحمد لله ربّ العالمين»[١].

العبد والربوبيّة:

إنَّ من أهم خصوصيّات العبد الربّاني وحظوظه من هذا الاسم الشريف والمقدَّس أنْ يكون شديد التعلّق بالله تعالى، والارتباط به، وهذا لا يتحقّق إلا من خلال العلم، والعمل، ولذا تجد أنَّ أكثر العلماء من الطائفتين يفسّرون - الربّاني- إلى ما يعود إلى أحد هذين الأمرين، أو إلى كليهما، وهذه بعض تلك الآراء:

- **الربَّانيّ**: شديد الاختصاص بالربّ، وكثير الاشتغال بعبوديّته، وعبادته[٢].

وواضحٌ أنَّ مقام العبوديّة مقام العمل، وأنَّ العبوديّة منوطةٌ بمقام العلم، والمعرفة، ولو لا العلم لما كان هناك عملٌ.

الربَّانيّ: الّذي يعبد الربّ سبحانه، الكامل بالعلم، والعمل[٣].

قال ابن عباس: «ربَّانيُّون: حكماء، علماء، حلماء».

وعن الحسن: «أهل عبادةٍ، وأهل تقوىً».

وقال ابن الأعرابيّ: «لا يُقال للعالم: (ربَّانيٌّ) حتّى يكون عالماً، معلّماً، عاملاً»[٤].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٦٦، ص ٢٥١، ح ٣٠.

(٢) تفسير الميزان العلامة الطباطبائي ج ٣، ص ٢٧٦.

(٣) القاموس الفقهي-- الدكتور سعدي أبو حبيب، ص ١٤١.

(٤) راجع المصدر السابق. حيث نقل الآراء المتقدمة.

قال الأزهريّ: «هم أرباب العلم، الّذين يعملون بما يعلمون، وبهما يتحقّق كمال الدين وتمامه»[(١)].

فالعبد الربَّانيّ هو الكامل من حيث العلم والعمل، فلا العلم يراه تمام الكمال والمطلوب، ولا العمل من دون علمٍ هدفه، كما لا يتفرَّد بالعلم، أو العمل، بل يسعى لتعليم غيره، ورفع الجهل والنقص عن نظرائه قدر المستطاع، كما يسوقهم لتهذيب أخلاقهم وأفعالهم من الرذائل والمعاصي؛ ليصلوا إلى ساحل البرّ والأمان.

واعلم - يا أخي العزيز - أنّك إنْ لم تكن من العلماء الربّانيّين، ولا من المتعلّمين الّذين يسعون إلى الوصول لبرِّ الأمان، فإنّك - مع كلّ الاعتذار - من الهمج الرعاع، الّذين هم وبالٌ على المجتمع الإسلاميّ، بل على سائر المجتمعات، فإنَّك ما إنْ تجد فساداً أو معضلةً إلا وترى هؤلاء في الصفّ الأوّل، وفي المقدِّمة، وقد أشار إلى خطورة هؤلاء حكيم العرب والعجم، ووصيّ النبيّ الخاتم، أمير المؤمنين عليه السلام، في خطابٍ لكميل بن زياد النخعيّ:

«يا كميل، إنَّ هذه القلوب أوعيةٌ[(٢)]، فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك، الناس ثلاثةٌ: فعالمٌ ربَّانيٌّ[(٣)]، ومتعلّمٌ على سبيل نجاةٍ، وهمجٌ رعاعٌ، أتباع كلّ ناعقٍ،

---

(١) شرح أصول الكافي، مولى محمد صالح المازندراني ج ٢، ص ٨.

(٢) أوعية: جمع وعاء. وأوعاها أحفظها.

(٣) العالم الرباني هو المتأله العارف بالله. والمتعلم على طريق النجاة إذا أتم علمه نجا. والهمج محركة: الحمقى من الناس. والرعاع كسحاب: الأحداث الطغام الذين لا منزلة لهم في الناس. والناعق: مجاز عن الداعي إلى باطل أو حق .

يميلون مع كلّ ريحٍ، لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيقٍ»[(١)].

أقول: وحيث إنّنا محرومون من الصنف الأوّل - وهم العلماء الربّانيون- ، فعلينا السعي كي نكون من الصنف الثاني، وهم المتعلّمون على سبيل النجاة، ونتحلّى بالسعي الدائم والمستمرّ في التعلّم، والعمل بما علمناه، ولهذه المرحلة أثرٌ عجيبٌ على الإنسان ومعنويّاته الروحيّة، حيث يكون مستعدّاً لتلقّي الفيض الإلهيّ، من المعارف الّتي لا عهد له بها، كما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: **«مَن عمل بما يعلم، ورّثه الله علم ما لم يعلم»**[(٢)].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **«مَنْ عمل بما يعلم، علّمه الله ما لم يعلم»**[(٣)].

وهذا النحو من المعارف والعلوم لا يشوبها الخطأ، أو الريب، وغير ذلك من العيوب، والنواقص؛ لأنَّ معلّم هذا العلم هو الواحد الأحد تبارك وتعالى، وليس تلقي العلم من البشر الّذي يشوبه النسيان، أو الخطأ، أو غير ذلك من العيوب، فينكشف عنه بعض الحجب، فيزداد بصيرةً ويقيناً في الدين، ويعيش حالة القرب من ربّ الأرباب، ويرى لمناجاته وعبادته طعماً لم يذقْه من قبل.

وبعد طيٍّ هذه المرحلة - وهي مرحلة التعلّم - علينا إسداء هذه المعارف والعلوم إلى الخلْق؛ ليهتدوا بنور العلم والمعرفة؛ ونخرجهم من ظلمة الجهل والحيرة

---

(١) نهج البلاغة- محمد عبده ج ٤، ص ٣٥- ٣٦، الخطبة: ١٤٧.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٤٠، ص ١٢٨.

(٣) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧٥، ص ١٨٩، ح٤٤.

إلى نور العلم واليقين.

وبذلك نحقّق المقتضي لنيل الفيوضات الإلهيّة المختلفة، والّتي لم تخطر على فكر بشرٍ من العطاء الإلهيّ الوافر، كما عن النبيّ صلى الله عليه وآله مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام: **«لإنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس»**(١).

وينبغي أنْ يكون الداعي إلى الله تعالى وسائقهم إليه متحلّياً بالرفق والإحسان، متّصفاً بحسن التدبير والتنظيم، بعيداً - تمام البعد - عن الخشونة، والعصبيّة، والهمجية في التبليغ؛ كي لا تكون النتيجة عكسيّةً - لا سمح الله تعالى - ، ونكون قطّاع طريق الله تعالى - لا قدَّر الله -.

فالله تعالى لمْ يبدأ آيات كتابه التدوينيّ إلا بـ: (بسم الله الرحمن الرحيم)؛ ليقول للبشريّة جمعاء: إنَّ جميع أحكامه وفعاله تجلّياتٌ للرحمة، والعطف، والحنان، والمودّة، وهكذا ينبغي أنْ يكون العبد.

ولا يخفى عليك أنَّ هداية البشر مِن أشرف أعمال الإنسان؛ حيث إنّك تتّصف بأبرز صفات الأنبياء؛ وتَمْتَهِن مهنتهم عليهم السلام بذلك.

وهذا تجسيد معنى الربّ في واقعك، وسلوكك العمليّ، «فالربّ في الأصل مصدرٌ، بمعنى: التربية، وهي تبليغ الشيء مِنْ حدّ النقص إلى حدّ الكمال، على سبيل التدريج»(٢).

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٣٢، ص ٤٤٨.

(٢) شرح أصول الكافي- مولى محمد صالح المازندراني ج١٢، ص١٠٢.

الحذر مِن ربوبيّة النفس:

من المخاطر والمفاسد الكبيرة الّتي تمنع الإنسان من نيل كماله المطلوب، هو دعواه الربوبيّة لنفسه، وتقف هذه الربوبيّة مانعاً أمام نجاته، وهدايته، وكماله، وسعادته.

والبشر في دعوى الربوبيّة للذّات على نحوين:

الأوّل: مَنْ يُظهِر ويجاهر أمام الملأ بدعواه الربوبيّة، وهم قليلون جداً، مِنْ قبيل فرعون القائل: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1]، ونمرود الّذي حاجّ إبراهيم الخليل عليه السلام، وادّعى أنّه الربّ، بزعم أنّه يحيي ويميت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

«فإنّه لما ألقى نمرودُ إبراهيمَ عليه السلام في النار، وجعلها الله عليه برداً، وسلاماً، قال

---

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٨. ومما قاله العلامة في ذيل تفسير هذه الآية: إن كان الأمر كما تقول: إنك ربي، ومن شأن الرب أن يتصرف في تدبير أمر هذا النظام الكوني، فالله – سبحانه – يتصرف في الشمس بإتيانها من المشرق، فتصرف أنت بإتيانها من المغرب، حتى يتضح أنك رب، كما أن الله رب كل شيء، أو أنك الرب فوق الأرباب، فبهت الذي كفر.- تفسير الميزان، السيد الطباطبائي ج ٢، ص ٣٥٤- ٣٥٥.

نمرود: يا إبراهيم، مَنْ ربّك؟

قال عليه السلام: ربّي الّذي يحيي ويميت.

قال نمرود: أنا أحيي وأميت.

فقال له إبراهيم عليه السلام: كيف تحيي وتميت؟!

قال إليّ برجلين ممّن قد وجب عليهما القتل، فأطْلق عن واحدٍ، وأقتل واحداً، فأكون قد أحييتُ، وأمتُّ.

فقال إبراهيم عليه السلام: إنْ كنت صادقاً فأحي الّذي قتلته، ثمّ قال: دع هذا؛ فإنَّ ربِّي يأتيني بالشمس من المشرق، فأتِ بها من المغرب، فكان كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، أيْ انقطع؛ وذلك أنَّه علم أنَّ الشمس أقدم منه»[1].

هذا، وقد «رأى نمرود في المنام أنَّ إبراهيم عليه السلام خرج من النار سالماً غانماً، فعلا منظراً عالياً ليرى حاله، فرآه في منزلٍ مباركٍ مزيّنٍ، لم يرَ مثله قطّ، ورأى رجلاً ماثلاً بين يديه، فتحيَّر، ونادى بصوتٍ عالٍ:

يا إبراهيم، كيف نجوت من النار الشديدة؟! ومَنْ هو معك؟!

قال: نجوتُ من فضل ربِّي، وهذا ملكٌ أرسله ربِّي ليؤنسني، ويخدمني.

فقال نمرود: لقد اخترت ربّاً عظيماً له هذه القدرة، فهل تقدر أنْ تخرج من النار؟! فقام عليه السلام ومشى على النار إلى نمرود، فقام نمرود تعظيماً له؛ لما شاهد منه من

---

(١) تفسير القمي- علي بن إبراهيم القمي ج ١، ص ٨٦.

الكرامة.

فقال: يا إبراهيم، إنِّي أريد أنْ أتقرّب من ربّك بقربان.

فقال عليه السلام: إنَّ ربِّي لا يقبل منك حتّى تؤمن به، وتقرَّ بوحدانيته.

فقال: إنِّي لا أؤمن بذلك، ولكن أتقرّب بقربانٍ، فقتل أربعة آلاف بقرة، وأربع آلاف أغنام وأباعير.

وقيل: إنَّه أراد أنْ يؤمن، فمنعه وزيره هارون عمّه عليه السلام.

وقال له: إيمانك بربّ السماء بعد أنْ كنتَ ربّ أهل الأرض، وتنزّلك من الربوبيّة إلى العبوديّة مذلّةٌ لك، فأخذته العزَّة، ورجع عن إرادته»[1].

أرأيت ـ أيها العزيز ـ كيف تحجب دعوة الربوبيِّة الإنسان من الوصول إلى الكمال والسعادة الأبديِّة؟! مع كلّ التأييدات الإلهيّة له، من مشاهدته للمعجزات الباهرة، ومقارعته بالحجج الدامغة، وإراءته الرؤى الصادقة في المنام...

ممّا تقدّم يتبيّن أهمّيّة استشعار العبوديّة في النفس، والانقياد إلى ربّ الأرباب تبارك وتعالى، وعدم الغفلة عن النفس، الّتي تسعى جاهدةً لإظهار ربوبيّتها على خلق الله.

ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**إنَّ الله** عزّ وجلّ **أهبط ملكاً إلى الأرض، فلبث فيها دهراً طويلاً، ثمّ عرج إلى السماء، فقيل له: ما رأيت؟**

---

(١) شرح أصول الكافي – مولى محمد صالح المازندراني ج ١٢: ٥٣١.

قال: رأيت عجايب كثيرةً، وأعجب ما رأيتُ أنّي رأيتُ عبداً متقلباً في نعمتك، يأكل رزقك، ويدّعي الربوبيّة، فعجبتُ من جرأته عليك، ومن حلمك عنه.

فقال الله جل جلاله: فمن حلمي عجبت؟!

قال: نعم.

قال: قد أمهلته أربعمائة سنة، لا يضرب عليه عرق، ولا يريد من الدنيا شيئاً إلا ناله، ولا يتغيّر عليه فيها مطعمٌ ولا مشربٌ»[1].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2].

ذكر: (يا ربّ):

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ رفع يديه إلى الله تعالى، ويقول متضرّعاً: (يا ربّ) ثلاث مرّاتٍ، ملأ الله تعالى يديه من الرحمة»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله: «إذا قال العبد: يا ربّ، يقول الله تعالى: لبّيك، وإذا قالها ثانياً وثالثاً، قال الله تعالى: لبّيك عبدي، سل تُعْطَ»[4].

وعن الصادق عليه السلام أنَّ رجلاً أتاه، فقال: «يا ابن رسول الله، أخبرني عن أعظم

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٠٧: ٣٨١، ح١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٧.

(٣) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٥: ٢١٩-٢٢٠، ح٥.

(٤) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٥، ص ٢١٩- ٢٢٠، ح٦.

أسماء الله تعالى، وكان بين يديه حوضٌ، وكان يوماً بارداً.

فقال عليه السلام للرجل: ادخل في هذا الحوض، واغتسل حتّى أخبرك بـه، فـدخل الرجل في الحوض، واغتسل فبقي فيه ساعةً، فلما أراد الخروج، أمر عليه السلام غلمانه أنْ يمنعوه من الخروج، فبقي فيه ساعةً، فتألَّم من البرد.

فقال: ربّ أغثني.

فقال الصادق عليه السلام: هذا ما سألت عنه، فإنَّ العبد إذا اضـطرّ، يـدعو الله بهـذا الاسم، فيغيثه الله تعالى»[١].

وفي المصباح للكفعمي: «الربّ: من أكثر ذكره حفظه الله في ولده»[٢].

---

(١) مستدرك الوسائل- الميرزا النوري ج ٥، ص ٢١٩- ٢٢٠، ح٧.

(٢) المصباح- الشيخ الكفعمي، ص٤٨١.

الموضوع العاشر:

الصَّمَد

١- الصمد في الروايات.

٢- تجلّيات الصمد.

٣- صمدانيّة العبد.

أ- العلم.

ب- السيادة.

٤- ذكر الصمد.

الصَّمَد

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[1].

قال الشيخ الصدوق رحمه الله في كتابه التوحيد:

«الصمد: الصمد معناه السيّد، ومن ذهب إلى هذا المعنى جاز له أنْ يقول: لم يزل الله صمداً، ويُقال للسّيّد المطاع في قومه - الّذي لا يقضون أمراً دونه -: صمدٌ، وقد قال الشاعر:

علوته بحسامٍ ثم قلتُ له   خذها حذيفُ فأنت السيّد الصمد

وللصّمد معنى ثانٍ، وهو أنّه المصمود إليه في الحوائج، يُقال: صمدتُ صمد هذا الأمر، أي: قصدتُ قصده، ومن ذهب إلى هذا المعنى لم يجز له أنْ يقول: لم يزل - الله - صمداً؛ لأنّه قد وصفه عزّ وجلّ بصفة من صفات فعله، وهو مصيبٌ أيضاً، والصمد الّذي ليس بجسمٍ، ولا جوف له...»[2].

(١) سورة التوحيد: الآية ١- ٢.

(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ١٩٧.

وقال الغزالي:

«الصمد: هو الّذي يُصمد إليه في الحوائج، ويُقصد إليه في الرغائب، إذ ينتهي إليه منتهى السؤدد»[١].

الصمد في الروايات:

نظراً لعدم وضوح المراد من كلمة: "الصمد" الواردة في الآية الشريفة، فقد وقع السؤال عنها من قِبَلِ الفئات المختلفة، وقد تكفّل المعصومون عليهم السلام ببيان المراد من تلك اللفظة الشريفة، مراعين ـ في بيانهم ـ حالة التفاوت في مستويات المخاطبين، وهذا بعض ما ورد في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق رحمه الله حول هذه المسألة:

أ- عن الإمام الباقر عليه السلام: «**حدّثني أبي زين العابدين، عن أبيه الحسين بن عليٍّ** عليهم السلام **أنّه قال: الصمد: الّذي لا جوف له، والصمد: الّذي قد انتهى سؤدده، والصمد: الّذي لا يأكل، ولا يشرب، والصمد: الّذي لا ينام، والصمد: الدائم الّذي لم يزل، ولا يزال**».

وعنه عليه السلام: «**كان محمّد بن الحنفية** رضي الله عنه **يقول: الصمد: القائم بنفسه، الغنيّ عن غيره، وقال غيره: الصمد: المتعالي عن الكون والفساد، والصمد: الّذي لا يوصف بالتغاير**».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**الصمد: السيّد المطاع، الّذي ليس فوقه آمرٌ وناهٍ**».

---

(١) المقصد الأسنى – الغزالي، ص٢١٣.

قال: وسئل عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن الصمد، فقال: «**الصمد: الّذي لا شريك له، ولا يؤوده حفظ شيءٍ، ولا يعزب عنه شيءٌ**»[١].

ب- عن وهب بن وهب القرشيّ: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «**قدم وفدٌ من أهل فلسطين على الباقر عليه السلام، فسألوه عن مسائل، فأجابهم، ثمّ سألوه عن الصمد، فقال: تفسيره فيه، الصمد خمسة أحرفٍ:**

فالألف دليلٌ على إنّيـتّه، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾[٢]، وذلك تنبيهٌ وإشارةٌ إلى الغائب عن درك الحواسّ.

واللام دليلٌ على إلهيّته بأنّه هو الله، والألف واللام مدغمان، لا يظهران على اللسان[٣]، ولا يقعان في السمع، ويظهران في الكتابة، دليلان على أنّ إلهيّته – بلطفه – خافيةٌ لا تُدْرَك بالحواسّ، ولا تقع في لسان واصفٍ، ولا أذن سامعٍ؛ لأنّ تفسير الإله هو الّذي أَلِه الخلق عن درْك ماهيّته، وكيفيَّته بحسٍّ، أو بوهمٍ، لا، بل هو مبدع الأوهام، وخالق الحواسّ، وإنّما يظهر ذلك عند الكتابة، دليلٌ على أنّ الله – سبحانه – أظهر ربوبيّته في إبداع الخلق، وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، فإذا نظر عبدٌ إلى نفسه لم يرَ روحه، كما أنّ لام الصمد لا تتبيَّن، ولا تدخل في حاسّةٍ من الحواسّ الخمسة، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف، فمتى تفكّر

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص٩٠، ح٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٣) في حال الوصل، وهذا معنى الإدغام اللغوي. من تعليقات المحقق السيد هاشم الحسيني الطهراني على المصدر.

العبد في ماهيّة الباريء وكيفيّته، أَلِهَ فيه، وتحيَّر، ولم تحط فكرته بشيءٍ يتصوّر له؛ لأنّه عَزَّوَجَلَّ خالق الصور، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنّه عَزَّوَجَلَّ خالقهم، ومركّب أرواحهم في أجسادهم.

وأمّا الصاد: فدليلٌ على أنّه عَزَّوَجَلَّ صادقٌ، وقوله صدقٌ، وكلامه صدقٌ، ودعا عباده إلى اتّباع الصدقَ بالصدق، ووعد بالصدق دار الصدق.

وأمّا الميم: فدليلٌ على ملكه، وأنّه الملك الحقّ، لم يزل، ولا يزال، ولا يزول ملكه.

وأمّا الدال: فدليلٌ على دوام ملكه، وأنّه عَزَّوَجَلَّ دائمٌ – تعالى – عن الكون والزوال، بل هو عَزَّوَجَلَّ يكوِّن الكائنات، الّذي كان بتكوينه كلّ كائنٍ.

ثمّ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: لو وجدتُ لعلمي الّذي آتاني الله عَزَّوَجَلَّ حملةً، لنشرت التوحيد، والإسلام، والإيمان، والدين، والشرائع من (الصمد)، وكيف لي بذلك؟! ولم يجد جدي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حملةً لعلمه، حتّى كان يتنفّس الصعداء، ويقول على المنبر: "سلوني قبل أنْ تفقدوني؛ فإنّ بين الجوانح منّي علماً جمّاً، هاه، هاهِ، إلا لا أجد من يحمله، ألا وإنّي عليكم من الله الحجّة البالغة، فلا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم، قد يئسوا من الآخرة، كما يئس الكفّار من أصحاب القبور...»[1].

حـ– عن الربيع بن مسلم، قال: سمعت أبا الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ –وسئل عن الصمد–

---

(١) التوحيد– الشيخ الصدوق، ص ٩٢–٩٣،ح٦.

فقال: «**الصمد: الّذي لا جوف له**»[1].

وعن داود بن القاسم الجعفري، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: «**جُعلتُ فداك، ما الصمد؟**

قال: السيّد، المصمود إليه في القليل، والكثير»[2].

ولعلّك تجد في بادئ الأمر أنَّ الروايات مختلفةٌ في مضامينها لبيان معنى الصمد، إلا أنَّ الواقع هو أنَّ هذه الروايات تشير إلى بعض مصاديق معنى الصمد، وليس المراد من كثيرٍ منها بيان المراد التامّ منه، أو بيان الحقيقة بما هي؛ حيث إنّ ذلك ممّا لا يسع قدرة الإنسان، كما أشار الإمام عليه السلام في الحديث الثاني، ولكي تعرف مدى عظمة هذا الاسم الشريف، يكفي أنْ تتمعّن في كلام الإمام عليه السلام - المتقدم - ؛ حيث قال: إنّ بإمكانه أنْ ينشر تعاليم السماء، والدين الحنيف من كلمة الصمد فقط.

ومن هنا نقول: لعلّ المراد من الصمد هو المقصود في جميع الأمور؛ لأنَّه الكامل المطلق الحقيقيّ، والمنزَّه عن النقص، وأمّا غيره فلا يمكن أنْ يكون مقصوداً على نحو الحقيقة؛ لما فيه من النقص؛ والضعف؛ والحرمان؛ والإمكان، وهو يشابه الأجوف الّذي قد ينخدع الإنسان بظاهره القوي والمحكم، في حين أنَّ باطنه في غاية الضعف والهوان؛ إذ لا يملك لنفسه نفعاً، ولا ضرّاً، فكيف ينفع الآخرين، ويرفع الضرّ عنهم؟!

إنْ قلت: إنّنا نجد بالوجدان رفع الكثير من المحن، والصعاب، وغير ذلك من

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٩٣،ح٧.

(٢) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٩٤، ح١٠.

خلال البشر، كما أنَّ الكثير منّا يجلب الخير لنفسه، أو للآخرين من خلال الالتجاء إلى غير الله تعالى.

قلنا: إنَّ تحقّق النفع، أو دفع الضرّ من خلال بعض البشر إنّما كان بتسديد الله ﷻ، وتوفيقه لهم لخدمة بعضهم البعض، ولو لا ذلك التأييد واللطف الإلهيّ لما تحقّق شيءٌ من ذلك؛ فهو الّذي رقّق قلوبهم على بعضهم البعض، وأمدّهم بالتوفيق لقضاء الحوائج، وإنّما تحرّكت أعضاؤهم بمدده، ولم يعطوا إلا من رزقه.

وما أكثر ما يغفل الإنسان عن هذه الحقيقة في حياته، وما أكثر ما يسوق الله ﷻ لنا من تنبيهاتٍ وعبرٍ؛ لنلتفت إلى هذه الحقيقة الشريفة؛ ونتوجه بكلّ قلوبنا إلى صمدانيّة الله ﷻ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون.

بل إنَّ عدم التوجّه إلى الله ﷻ، والتوجّه إلى خلق الله ﷻ على نحو الاستقلال، ممّا يوجب سلب الكثير من التوفيقات الإلهيّة، وحرمانه الكثير من النعم الماديّة والمعنويّة، وعلاوةً على ذلك فهو شركٌ وإثمٌ عظيمٌ؛ إذ جعل لله ﷻ نداً يلتجئ إليه في طلب الحوائج وقضائها.

تجلّيات الصمد:

من جملة الغرائز الإلهيّة الّتي أودعها الله ﷻ في نفوس بني البشر هو التوجّه إليه في الحوائج، والمعضلات، إلا أنَّ الإنسان قد يغفل، ويذهل عن هذا الأمر برهةً من الزمن؛ لشدّة أُنسه بالمادة والماديّات، ومن خلال تراكم أتربة الغفلة، وأوساخ المعاصي، والتعلّقات الدنيويّة، والّتي تشكّل غشاءً وحجاباً لما كتب على مرآة القلب

من الآية الشريفة، وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[(١)]، وحيث إنَّ هذه الأتربة والأوساخ كانت عارضةً وطارئةً على صفحة القلب، ولم تكن ذاتيّةً وأصيلةً، تجد أنها سرعان ما تزول عن القلب حينما تعرض بليّةٌ عظيمةٌ يعجز البشر عن حلِّها وعلاجها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[(٤)].

فهذه الآيات تشير إلى رجوع الإنسان -الّذي هو خلاصة وزبدة عالم الإمكان- إلى الله تبارك وتعالى في أموره؛ نزولاً لما فُطر عليه، من هنا تعرف سرّ استنكار الله تبارك وتعالى، وسبب تجلّي غضبه، حينما يقصد الإنسان غيره لقضاء حوائجه وأموره؛ إذ أنَّ العبد بذلك

---

(١) سورة الإخلاص: الآية ٢.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

(٣) سورة لقمان: الآية ٣٢.

(٤) سورة يونس: الآية ٢٢.

خرج من دائرة العبوديَّة، ولم يعتمد على صمدانيَّة الله ﷻ، بل قصد هذا العبد نظرائه في الضعف، والفقر، والحاجة في عالم الإمكان، وهو كاشفٌ عن جهله، ومدى تعلّقه بالمادّة، والطبيعة الفانية الضعيفة.

ومن هنا تجد الباري ينهانا من تلك التوسّلات غير المنطقيّة، والبعيدة من الشرع، وقد كشف المعصومون عليهم السلام عن هذا الستار في خطبهم ورواياتهم، من قبيل ما رُوي:

أ- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود** عليه السلام: **ما اعتصم بي عبدٌ من عبادي دون أحدٍ من خلقي - عرفتُ ذلك من نيّته - ، ثمّ تكيده السماوات، والأرض، ومن فيهنّ، إلا جعلتُ له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبدٌ من عبادي بأحدٍ من خلقي - عرفتُ ذلك من نيَّته - إلا قطعتُ أسباب السماوات، والأرض من يديه، وأسختُ الأرض من تحته، ولم أبالِ بأيّ وادٍ هلك**»[1].

ب- عن الحسين بن علوان، قال:«**كنَّا في مجلسٍ نطلب فيه العلم، وقد نفدت نفقتي في بعض الأسفار، فقال لي بعض أصحابنا: مَنْ تؤمّل لِمَا قد نزل بك؟**

فقلت: فلاناً.

فقال: إذن والله لا تسعف[2] **حاجتك، ولا يبلغك أملك، ولا تنجح طلبتك.**

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص٦٣، ح ١.

(٢) أسعف حاجته أي: قضاها له، وفي بعض النسخ: [لا يسعف]، وفي أكثرها: [لا تسعف]، وكذا [ولا تنجح]، فهما بالتاء على بناء المفعول، وبالياء على بناء الفاعل، والنجاح: الفوز، وفي بعض النسخ: [لا يبلغ أملك].

قلت: وما علمك - رحمك الله - ؟

قال: إنَّ أبا عبد الله عليه السلام حدّثني، أنّه قرأ في بعض الكتب، أنَّ الله عزّ وجلّ يقول: وعزّتي، وجلالي، ومجدي، وارتفاعي على عرشي، لأقطعنَّ أمل كلِّ مُؤَمِّلٍ [من الناس] غيري باليأس، ولأكسونَّه ثوب المذلّة عند الناس، لأُنَحينَّه[١] من قُربي، ولأُبعدنَّه من فضلي، أَيُؤَمِّلُ غيري في الشدائد؟! والشدائد بيدي[٢]، ويرجو غيري؟! ويقرع بالفكر باب غيري[٣]؟! وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلّقةٌ، وبابي مفتوحٌ لمن دعاني، فمَنْ ذا الذي أمَّلني لنوائبه فقطعتُه دونها؟! ومَنْ ذا الّذي رجاني لعظيمةٍ فقطعتُ رجاءه منّي؟! جعلتُ آمال عبادي عندي محفوظةً، فلم يرضوا بحفظي، وملأتُ سماواتي ممّن لا يملُّ من تسبيحي، وأمرتُهم أنْ لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي[٤]، ألم يعلم [أنْ] من طَرَقَتْه نائبةٌ منْ نوائبي أنّه لا يملك كشفها أحدٌ غيري، إلا من بعد إذني؟! فما لي أراه لاهياً عني؟! أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثمّ انتزعته عنه، فلم يسألني ردّه، وسأل غيري، أفيراني[٥] أبدأ بالعطاء قبل المسألة، ثمّ أُسْأَلُ فلا أجيب سائلي؟! أبخيلٌ أنا فيبخّلني عبدي[٦]؟! أو ليس الجود

---

(١) أي: لأبعدنه وأزيلنه.

(٢) أي: تحت قدرتي.

(٣) تشبيه الفكر باليد مكنية، وإثبات القرع له تخييلية، وذكر الباب ترشيح.

(٤) أي: وعدي الإجابة لهم.

(٥) في بعض النسخ: [أفتراني].

(٦) بخله بالتشديد أي: نسبه إلى البخل. تنبيه: إن الهوامش المتقدمة مأخوذة من المصدر. تعليقات علي أكبر الغفاري.

والكرم لي؟! أو ليس العفو والرحمة بيدي؟! أو ليس أنا محلّ الآمال؟! فمن يقطعها دوني؟! أفلا يخشى المؤمِّلون أنْ يؤمِّلوا غيري؟! فلو أنَّ أهل سماواتي، وأهل أرضي، أملوا جميعاً، ثمّ أعطيتُ كلّ واحدٍ منهم مثل ما أمَّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرّةٍ، وكيف ينقص ملكٌ أنا قيِّمُهُ، فيا بؤساً للقانطين مِنْ رحمتي، ويا بؤساً لِمَنْ عصاني، ولم يراقبني»[1].

صمدانيَّة العبد:

يقول الغزاليّ في ما يناسب المقام:

«ومن جعله الله – تعالى – مقصد عباده في مهمّات دينهم ودنياهم، وأجرى على لسانه ويده حوائج خلقه، فقد أنعم عليه بحظٍّ من معنى هذا الوصف، لكنّ الصمد المطلق هو: الّذي يُصمد إليه في جميع الحوائج، وهو الله تعالى»[2].

أقول: يتجلّى من هذا الكلام أنَّ العبد كي يجسِّد الصمدانيّة في وجوده، وخُلُقه، لا بدّ من أنْ يكون مقصوداً من قِبَلِ الخلق، لا قاصداً، ويقضي حوائجهم، لا أنْ يقضوا حوائجه، ويكون بخدمتهم، لا أنْ يكونوا بخدمته، وهكذا....

وهذا يستدعي توفُّر العبد على عدّة أمورٍ، من قبيل الغنى، والكرم، والجود، والحكمة، والعلم، والقوّة، والسيادة، والوجاهة، والزهد عمّا في أيدي الناس، وبعيداً – تمام البعد– من الفقر، والضعف، والبخل، والحرص، والجهل، وسائر الرذائل.

---

(١) الكافي– الشيخ الكليني ج ٢، ص ٦٤– ٦٥، ح ٧.

(٢) المقصد الأسنى– الغزالي، ص ٢١٣.

وبعبارةٍ أخرى: إنَّ السجايا الحسنة - كلّها - من مفردات الصمدانيّة ومصاديقها، فتجد الخَلق يسعون نحو هذا الإنسان المتخلّق بصفة الصمدانيّة، ويقصدونه؛ ليقضي حوائجهم المختلفة من رفع الجهل، والحيرة منهم، أو رفع فقرهم، وفاقتهم،أو حلِّ مشاكلهم الاجتماعيّة، وأمثال ذلك.

ومن هنا نحن نستعرض بعض تلك المفاهيم الكماليّة السامية، ونترك للقارئ الكريم الإبحار في بحر الصمدانيّة بفطنته:

أ- العلم:

لا يخفى عليك أنَّ من أعظم النعم الإلهيّة على البشر هي نعمة العلم، فهو نورٌ يضيء، ويستنير به بنو البشر، فيخرجهم من ظلمة الجهل، والتخبّط، والهرج، والمرج إلى المعرفة، والحكمة، والنظم، والانتظام، وما هذا التقدّم الحضاريّ، والتقنيّ، والتكنولوجيّ، إلا بفيض العلم، ونعمة وجوده.

وكذلك السعادة المعنويّة مرهونةٌ بالعلم، الّذي من خلاله يعرف الإنسان كمالات ربّه وبارئه، فينجذب إليه، ويعشقه، ولا يلتفت إلى سواه، فتجده متحرّراً من الرغبات، أو الوساوس الشيطانيّة، أو الزخارف الدنيويّة، وغير ذلك، فيعيش في الدنيا سعيداً، لا يعرف معنى الهمّ، أو الغمّ، أو الحسرة، ولا ينظر ما في أيدي الناس من خيرٍ وبركاتٍ؛ لعلمه أنَّ الرزق بيد الرزّاق الحكيم، الّذي إنْ أعطى فلحكمةٍ، وإنْ منع فلحكمةٍ أخرى، وإنْ كان العبد يجهل هذه الحكمة والمصلحة على نحو التفصيل.

ولا يصدر منه شيءٌ من المعاصي والذنوب؛ لعلمه – ويقينه – بالآثار،

والأضرار الوخيمة المترتّبة عليها في الدنيا والآخرة، وإنَّ المنشأ الوحيد للسعادة في النشأتين هو من خلال تنظيم حياة الدنيا، وهذا ما يضمنه العمل على وفق الشريعة المقدسة.

فيحترم ويقدِّس الأحكام الشرعية في الخلوة، والملأ، وبذلك يحقّق الخلافة الإلهيّة في الأرض، ويكون أقرب الناس إلى الأنبياء، والأوصياء، بما يملك من المعارف، والملكات النفسيّة الراقية.

وإذا أردتَ أنْ تتعرّف على أحدهم، فإنَّك ترى الناس -كلّ الناس، إلا شياطين الإنس- في رضا وارتياحٍ منه؛ إذ يترشّح منه الخير؛ ويتقاطر منه الإحسان للخلق، فيقصده كلّ مَنْ يريد النجاة والسعادة، ويلتجئ إليه مَنْ اشتاق إلى مجالسة الأنبياء في الجنّة، ويزاحم بركبتيه من أراد أنْ يجمع الخير كلّه، ولهذا السبب - وغيره من الأسباب- تجد المدح، والحثّ على التعلّم، والعلم؛ لأنَّهما المقدمة المهمّة الّتي توصلك إلى الخير -كلّ الخير-، وهذه بعض النصوص الّتي تؤكّد ما تقدّم:

أ- عن رسول الله ﷺ: «**العلم رأس الخير كلّه، والجهل رأس الشرّ كلّه**»[1].

ب- عن رسول الله ﷺ: «**مَن سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم؛ رضاً به، وإنَّه ليستغفر لطالب العلم مَنْ في السماء، ومَنْ في الأرض، حتّى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، إنَّ**

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري شهري ج٦، ص ٤٥٣.

الأنبياء لم يورّثوا ديناراً، ولا درهماً، ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظٍّ وافرٍ»(١).

حـ- عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «لست أحبّ أنْ أرى الشابّ منكم إلا غادياً في حالين: إمّا عالماً، أو متعلّماً، فإنْ لم يفعل فرّط، فإنْ فرّط ضيّع، فإنْ ضيَّع أثم، وإنْ أثم سكن النار، والّذي بعث محمّداً بالحقّ»(٢).

د- عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: طلب العلم فريضةٌ على كلّ مسلمٍ، فاطلبوا العلم من مظانّه، واقتبسوه من أهله؛ فإنّ تعليمه لله حسنةٌ، وطلبه عبادةٌ، والمذاكرة به تسبيحٌ، والعمل به جهادٌ، وتعليمه مَنْ لا يعلمه صدقةٌ، وبذله لأهله قربةٌ إلى الله تعالى؛ لأنّه معالم الحلال، والحرام، ومنار سبل الجنّة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والوحدة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السرّاء، والضرّاء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً، فيجعلهم في الخير قادةً، تقتبس آثارهم، ويُهتدى بفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم، يستغفر لهم كلّ رطبٍ، ويابسٍ، حتّى حيتان البحر، وهوامّه، وسباع البر، وأنعامه، إنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوّة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، ومجالس الأبرار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، الذكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الربّ،

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج١، ص ١٦٤، ح٢.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١، ص١٧٠، ح ٢٢.

ويعبد، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، العلم أمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله منه حظّه»[(١)].

ب- السيادة:

هناك الكثير من البشر يسعون بكلّ ما أعطوا من القوّة لنيل السيادة، والوجاهة بين الناس، متصوّرين أنَّ ذلك من عوامل السعادة والنجاح، في حين أنَّ عوامل السعادة الحقيقيّة تكمن في انقياد العبد لمولاه، وتسخير كلّ ما أعطي في طاعة ربه ﷻ، والأولياء والكُمَّل من البشر يجعلون سيادتهم، ووجاهتهم، ومقامهم طريقاً، ووسيلةً لكسب رضا الله تعالى، ونيل القرب منه ﷻ؛ شكراً؛ وتقديراً منهم لمولاهم على هذه النعمة؛ إذ جعلهم مقصداً لضعفاء الناس، دون عكسه، وصاروا سبباً لقضاء حوائج الناس من خلال هذا المنصب، أو ذلك الكمال، وبهذا الشكر العمليّ لهذه النعمة ينال التوفيق في عمله، والأعظم من ذلك هو نيله الرضا الإلهيّ، وحبّه، وقربه من خلال هذا العمل.

إلا أنَّ الكثير من البشر يجهل حقيقة سيادته هذه، وأنّها إلهيّةٌ أم شيطانيّةٌ؟ فترى المؤمن منهم متألّماً، في حيرةٍ من أمره؛ خشيةً أن تكون سيادته تلك شيطانيّةً من دون أن يلتفت إلى حقيقة حاله.

ويمكن تشخيص ومعرفة حاله من خلال عرض سيادته على المصاديق الّتي أشارت إليها الروايات الشريفة، من قبيل:

---

(١) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ١، ص١٧١، ح ٢٤.

أ - عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**السيّد من تحمّل أثقال إخوانه، وأحسن مجاورة جيرانه**».

ب - وعنه عليه السلام: «**السيّد من لا يصانع، ولا يخادع، ولا تغرّه المطامع**».

حـ - عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما ساد من احتاج إخوانه إلى غيره**».

ولكي تعرف حقيقة أمر السيادة لدى الكُمّل من البشر، أنقل لك هذه الرواية عن ابن جمهورٍ، وغيره من أصحابنا، قال: كان النجاشيّ - وهو رجلٌ من الدهاقين - عاملاً على الأهواز، وفارس، فقال بعض أهل عمله لأبي عبد الله عليه السلام: «**إنّ في ديوان النجاشيّ عليَّ خراجاً، وهو ممّن يدين بطاعتك، فإنْ رأيتَ أنْ تكتب إليه كتاباً، قال: فكتب إليه كتاباً:**

(بسم الله الرحمن الرحيم، سُرَّ أخاك، يسرّك الله).

فلمّا ورد عليه الكتاب وهو في مجلسه، فلمّا خلا ناوله الكتاب، وقال: هذا كتاب أبي عبد الله عليه السلام، فقبّله، ووضعه على عينيه، ثمّ قال: ما حاجتك؟

فقال: عليَّ خراجٌ في ديوانك.

قال له: كم هو؟

قال: هو عشرة آلاف درهم.

قال: فدعا كاتبه، فأمره بأدائها عنه، ثمّ أخرج مثله، فأمره أنْ يثبتها له لقابلٍ، ثمّ قال له: هل سررتك؟

قال: نعم.

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم أخرى.

فقال له: هل سررتك؟

فقال: نعم، جعلتُ فداك.

فأمر له بمركبٍ، ثمّ أمر له بجاريةٍ، وغلامٍ، وتخت ثيابٍ، في كلّ ذلك يقول: هل سررتك؟ فكلما قال: نعم، زاده، حتّى فرغ.

قال له: احمل فرش هذا البيت الّذي كنتَ جالساً فيه حين دفعتَ إليّ كتاب مولاي فيه، وارفع إليّ جميع حوائجك.

قال: ففعل، وخرج الرجل، فصار إلى أبي عبد الله عليه السلام بعد ذلك، فحدّثه بالحديث على جهته، وجعل يستبشر بما فعله.

قال له الرجل: يا ابن رسول الله، كأنّه قد سرّك ما فعل بي؟

قال: إي والله، لقد سرَّ الله ورسوله»[1].

انظر -أيها العزيز- كيف تأثّر النجاشيّ بأربع كلماتٍ من الإمام الصادق عليه السلام، وهي: سُرّ أخاك، يسرّك الله، ففي بعض الأخبار أنّه ناصفه كلّ شيءٍ؛ وما ذلك إلا لأنّه نظر إلى أنّ السيادة إنّما هي طريقٌ، وآلةٌ، ووسيلةٌ إلى التقرّب لله -تعالى-، لا إلى النفس، ورغباتها، وميولها، فنال سرور الإمام والنبيّ صلى الله عليه وآله، والأعظم منهما سرور الله تعالى، ورضاه، رزقنا الله ذلك.

---

(١) تهذيب الأحكام- الشيخ الطوسي ج ٦، ص ٣٣٣، ٣٣٤، ح ٤٦.

والّذي يدلّ على أنَّ النجاشيّ أراد من السيادة وسيلةً إلى التقرّب إلى الله تعالى - لا إلى إشباع رغبات النفس، والهوى- هو مقولة الإمام فيه، وسروره منه؛ فإنَّه عليه السلام لا يُسرّ ولا يفرح من فعل المرائي، أو العاصي، ولا يمدح أصحاب الَهوى، والميول الدنيويّة قطّ، وأضف إلى ذلك ما ورد من اهتمام النجاشيّ البالغ في تطبيق حدود الله -تعالى-، وأحكامها في هذا التولّي والسيادة، ولم تغرّه المناصب الآنيّة والفانية، فعن عبد الله بن سليمان النوفليّ قال: «كنتُ عند جعفر بن محمّدٍ الصادق عليه السلام، فإذا بمولىً لعبد الله النجاشيّ قد ورد عليه، فسلّم، وأوصل إليه كتابه، ففضَّه، وقرأه، وإذا أول سطرٍ فيه: بسم الله الرحمن - إلى أنْ قال: - إنّي بليت بولاية الأهواز، فإنْ رأى سيّدي ومولاي أنْ يحدّ لي حدّاً، أو يمثّل لي مثالاً؛ لأستدلّ به على ما يقرّبني إلى الله عزّ وجلّ، وإلى رسوله، ويلخّص لي في كتابه ما يرى لي العمل به، وفيما أبتذله، وأين أضع زكاتي؟ وفي من أصرفها؟ وبمَنْ آنس؟ وإلى من أستريح؟ وبمن أثق، وآمن؟ وألجأ إليه في سرّي؟ فعسى أنْ يخلّصني الله بهدايتك؛ فإنَّك حجّة الله على خلقه؛ وأمينه في بلاده؛ لا زالتْ نعمته عليك.

قال عبد الله بن سليمان: فأجابه أبو عبد الله عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، حاطك الله بصنعه، ولطف بك بمنّه، وكلأك برعايته؛ فإنّه وليّ ذلك، أما بعد:

فقد جاءني رسولك بكتابك، فقرأته، وفهمت جميع ما ذكرت، وسألته عنه، وزعمت أنّك بليت بولاية الأهواز، فسرّني ذلك، وساءني، وسأخبرك بما ساءني من ذلك، وما سرّني - إنْ شاء الله-.

فأمّا سروري بولايتك، فقلتُ: عسى أنْ يغيث الله بك ملهوفاً خائفاً من آل

محمّدٍ عليه السلام، ويعزّ بك ذليلهم، ويكسو بك عاريهم، ويقوى بك ضعيفهم، ويطفئ بك نار المخالفين عنهم.

وأمّا الّذي ساءني من ذلك: فإنّ أدنى ما أخاف عليك أنْ تعثر بوليٍّ لنا، فلا تشمّ حظيرة القُدُس، فإنّي ملخّصٌ لك جميع ما سألت عنه، إنْ أنت عملت به ولم تجاوزه، رجوت أنْ تسلم - إنْ شاء الله - .

أخبرني - يا عبد الله - أبي، عن آبائه، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبَّه.

واعلم أنّي سأشير عليك برأيٍ إنْ أنت عملت به تخلّصت ممّا أنت متخوفه، واعلم أنّ خلاصك ممّا بك، من حقن الدماء، وكفّ الأذى عن أولياء الله، والرفق بالرعيّة، والتأنّي، وحسن المعاشرة، مع لينٍ في غير ضعفٍ، وشدّةٍ في غير عنفٍ، ومداراة صاحبك، ومن يردّ عليك من رسله، وارتقْ فتقَ رعيّتك بأنْ توقفهم على ما وافق الحقّ، والعدل - إنْ شاء الله-، وإيّاك والسعاة، وأهل النمائم، فلا يلتزقنّ بك أحدٌ منهم، ولا يراك الله يوماً وليلةً وأنت تقبل منهم صرفاً، ولا عدلاً، فيسخط الله عليك، ويهتك سترك، واحذر مكر خوز الأهواز؛ فإنّ أبي أخبرني، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ الإيمان لا يثبت في قلب يهوديٍّ، ولا خوزيٍّ أبداً.

فأما مَنْ تأنس به، وتستريح إليه، وتلجئ أمورك إليه، فذلك الرجل الممتحن المستبصر الأمين، الموافق لك على دينك، وميّز عوامّك، وجرّب الفريقين، فإنْ رأيت

هناك رشداً فشأنك وإياه، وإيّاك أنْ تعطي درهماً، أو تخلع ثوباً، أو تحمل على دابّةٍ في غير ذات الله، لشاعرٍ، أو مضحكٍ، أو ممتزحٍ، إلا أعطيت مثله في ذات الله، ولتكن جوائزك، وعطاياك، وخلعك، للقوّاد، والرسل، والأجناد، وأصحاب الرسائل، وأصحاب الشرط، والأخماس، وما أردت أنْ تصرفه في وجوه البرّ، والنجاح، والفتوّة، والصدقة، والحجّ، والمشرب، والكسوة الّتي تصلّي فيها، وتصل بها، والهديّة الّتي تهديها إلى الله عزّوجلّ، وإلى رسوله صلّى الله عليه وآله من أطيب كسبك.

يا عبد الله، اجهد أنْ لا تكنز ذهباً، ولا فضّة ، فتكون من أهل هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ولا تستصغرنّ من حلوٍ، ولا من فضل طعامٍ تصرفه في بطونٍ خاليةٍ، تسكن بها غضب الربّ تبارك وتعالى.

واعلم أنّي سمعت أبي يحدّث عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه سمع عن النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول لأصحابه يوماً: ما آمن بالله واليوم الآخر مَنْ بات شبعاناً وجاره جائعٌ.

فقلنا: هلكنا يا رسول الله.

فقال: من فضل طعامكم، ومن فضل تمركم، ورزقكم، وخلقكم، وخرقكم، تطفؤون بها غضب الربّ.

وسأنبؤك بهوان الدنيا، وهوان شرفها على من مضى من السلف، والتابعين، ثمّ ذكر حديث زهد أمير المؤمنين عليه السلام في الدنيا، وطلاقه لها - إلى أنْ قال: - وقد وجّهت إليك بمكارم الدنيا والآخرة، عن الصادق المصدّق رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنْ أنت

عملتَ بما نصحتُ لك في كتابي هذا، ثمّ كانت عليك من الذنوب والخطايا كمثل أوزان الجبال، وأمواج البحار، رجوتُ الله أنْ يتجافى عنك -جلّ وعزّ بقدرته-.

يا عبد الله، إيّاك أنْ تخيف مؤمناً؛ فإنَّ أبي محمّد بن عليٍّ حدّثني عن أبيه، عن جدّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أنّه كان يقول: مَنْ نظر إلى مؤمنٍ نظرةً ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه، وحشره في صورة الذرّ لحمه ،وجسده، وجميع أعضائه، حتّى يورده مورده.

وحدّثني أبي عن آبائه، عن عليٍّ عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: مَنْ أغاث لهفاناً من المؤمنين، أغاثه الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه، وآمنه يوم الفزع الأكبر، وآمنه من سوء المنقلب، ومن قضى لأخيه المؤمن حاجةً قضى الله له حوائج كثيرةً مِنْ إحداها الجنّة، ومَنْ كسى أخاه المؤمن من عريٍ، كساه الله من سندس الجنّة، وإستبرقها، وحريرها، ولم يزل يخوض في رضوان الله ما دام على المكسوّ منه سلكٌ، ومَنْ أطعم أخاه من جوعٍ، أطعمه الله من طيّبات الجنّة، ومَنْ سقاه من ظماء، سقاه الله من الرحيق المختوم ريّه، ومَنْ أخدم أخاه، أخدمه الله من الولدان المخلّدين، وأسكنه مع أوليائه الطاهرين، ومَنْ حمل أخاه المؤمن من رجله، حمله الله على ناقةٍ من نوق الجنّة، وباهى به الملائكة المقرّبين يوم القيامة، ومَنْ زوّج أخاه المؤمن امرأةً يأنس بها، وتشدّ عضده، ويستريح إليها، زوّجه الله من الحور العين، وآنسه بمن أحبّه من الصدّيقين، من أهل بيت نبيّه، وإخوانه، وآنسهم به، ومَنْ أعان أخاه المؤمن على سلطانٍ جائرٍ، أعانه الله على إجازة الصراط عند زلّة الأقدام، ومَنْ زار أخاه إلى منزله لا لحاجةٍ إليه، كُتب من زوّار الله، وكان حقيقاً على الله أنْ يكرم زائره.

يا عبد الله، وحدّثني أبي عن آبائه، عن عليٍّ عليه السلام، أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله

يقول لأصحابه يوماً: معاشر الناس،إنَّه ليس بمؤمنٍ مَنْ آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، فلا تتّبعوا عثرات المؤمنين؛فإنّه من تتبّع عثرة مؤمنٍ اتّبع الله عثراته يوم القيامة،وفضحه في جوف بيته.

وحدّثني أبي عن آبائه، عن عليٍّ عليه السلام أنّه قال: أخذ الله ميثاق المؤمن أنْ لا يصدق في مقالته، ولا ينتصف من عدوه، وعلى أنْ لا يشفي غيظه إلا بفضيحة نفسه، كلّ مؤمنٍ ملجمٍ؛ وذلك لغايةٍ قصيرةٍ؛ وراحةٍ طويلةٍ، وأخذ الله ميثاق المؤمن على أشياء أيسرها عليه مؤمنٌ مثله، يقول بمقالته، يبغيه، ويحسده، والشيطان يغويه، ويضلّه، والسلطان يقفو أثره، ويتبع عثراته، وكافرٌ بالله الّذي هو مؤمنٌ به، يرى سفك دمه ديناً، وإباحة حريمه غنماً، فما بقاء المؤمن بعد هذا؟!

يا عبد الله، وحدّثني أبي عن آبائه، عن عليٍّ عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: نزل على جبرئيل، فقال: يا محمّد، إنَّ الله يقرأ عليك السلام، ويقول: اشتققتُ للمؤمن اسماً من أسمائي، سمّيته مؤمناً، فالمؤمن منّي، وأنا منه، مَنْ استهان مؤمناً فقد استقبلني بالمحاربة.

يا عبد الله، وحدّثني أبي، عن آبائه، عن عليٍّ عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال يوماً: يا عليّ، لا تناظر رجلاً حتّى تنظر في سريرته، فإنْ كانت سريرته حسنةً فإنّ الله عزّ وجلّ لم يكن ليخذل وليّه، فإنْ تكن سريرته رديّةً فقد يكفيه مساويه، فلو جهدت أنْ تعمل به أكثر ممّا عمل من معاصي الله عزّ وجلّ ما قدرت عليه.

يا عبد الله، وحدّثني أبي عن آبائه، عن عليٍّ عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: أدنى الكفر أنْ يسمع الرجل من أخيه الكلمة فيحفظها عليه، يريد أنْ يفضحه بها

﴿أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ﴾[١].

يا عبد الله، وحدّثني أبي عن آبائه، عن عليٍّ عليه السلام أنّه قال: من قال في مؤمنٍ ما رأت عيناه، وسمعت أذناه، ما يشينه، ويهدم مروءته، فهو من الّذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

يا عبد الله، وحدّثني أبي عن آبائه، عن عليٍّ عليه السلام، قال: من روى عن أخيه المؤمن روايةً يريد بها هدم مروءته، وثلبه، أوبقه الله بخطيئته، حتّى يأتي بمخرجٍ ممّا قال، ولن يأتي بالمخرج منه أبداً، ومَنْ أدخل على أخيه المؤمن سروراً، فقد أدخل على أهل البيت سروراً، ومَنْ أدخل على أهل البيت سروراً، فقد أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله سروراً، ومَنْ أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله سروراً، فقد سرَّ الله، ومن سرَّ الله فحقيقٌ على الله عزّ وجلّ أنْ يدخله جنّته.

ثمّ إنّي أوصيك بتقوى الله، وإيثار طاعته، والاعتصام بحبله؛ فإنّه من اعتصم بحبل الله فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ، فاتّقِ الله، ولا تؤثر أحداً على رضاه وهواه؛ فإنّه وصيّة الله عزّ وجلّ إلى خلقه، لا يقبل منهم غيرها، ولا يعظم سواها.

واعلم أنَّ الخلائق لم يوكلوا بشيءٍ أعظم من التقوى، فإنّه وصيّتنا أهل البيت، فإنْ استطعت أنْ لا تنال من الدنيا شيئاً تُسْأَلُ عنه غداً فافعل.

قال عبد الله بن سليمان: فلمّا وصل كتاب الصادق عليه السلام إلى النجاشيّ نظر فيه،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧٧.

(٢) سورة النور: الآية ١٩.

وقال: صدق – والله الّذي لا إله إلا هو– مولاي، فما عمل أحدٌ بما في هذا الكتاب إلا نجا، فلم يزل عبد الله يعمل به أيّام حياته»[(١)].

ذكر الصمد:

جاء في المصباح للشيخ الكفعمي – نقلاً عن العارف الشيخ رجب بن محمد البُرسي – أنَّ: «**الصمد**: ذاكره لا يجد ألم الجوع»[(٢)].

لعلّ المراد من الجوع هو كلّ أنواع الحاجة، والافتقار المادّيّ، والمعنويّ إلى الناس، وهو كذلك؛ فمَن كان خالقه وبارئه هو الله جبّار السماوات والأرض، الّذي يعتمد كلّ شيءٍ عليه، ولا يحتاج إلى شيءٍ، كيف يعيش من يعرف هذه الحقيقة ألم الجوع، والحاجة إلى الناس؟!

وقد قيل: إذا ضاقت بك الدنيا، فلا تقل: يا ربّ عندي همٌّ كبيرٌ، ولكن قل: يا همّ عندي ربٌّ كبيرٌ.

---

(١) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ١٧، ص٢٠٧– ٢١٢، ح١.

(٢) المصباح– الكفعمي، ص٤٨٠.

الموضوع الحادي عشر:

الواحِدُ الأحد

١- الفرق بين الواحد والأحد.

٢- من تجلّيات الواحديّة الأحديّة.

٣- الأوحديّ من البشر.

٤- السائل غير المؤدَّب.

٥- الشيخ عباس القمّيّ.

٦- إلهي، اجعل همّي همّاً واحداً.

الواحِدُ الأحد

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[2].

ذهب غير واحدٍ من علماء اللغة أنَّ الأحد بمعنى: الواحد، فقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: واحدٌ، فأبدل الواو همزةً، وحذفت الثانية[3].

أمّا المتكلّمون فإنّهم لا يرون أنَّ اللفظين مترادفان ومتساويان، بل يرون أن بينهما فارقٌ كبيرٌ، نشير إليه بإيجازٍ.

---

(١) سورة ص: الآية ٦٥.

(٢) سورة التوحيد: الآية ١.

(٣) تفسير غريب القرآن- فخر الدين الطريحي، ص ١٨٣. وراجع: مختار الصحاح، محمد بن عبد القادر، ص١٢- القاموس المحيط، الفيروز آبادي ج ١، ص٢٧٣. ولسان العرب- ابن منظور ج ٣، ص ٧٠. ومجمع البحرين- الشيخ الطريحي ج ١، ص ٤٢.

الفرق بين الواحد والأحد:

قال الشيخ السبحاني حفظه الله في كتاب الإلهيّات:

«إنَّ التوحيد الذاتيّ يفسّر بمعنيين:

الأوّل: إنَّه واحدٌ لا مثيل له.

الثاني: إنَّه أحدٌ لا جزء له.

ويُعبَّر عن الأول بالتوحيد الواحديّ، وعن الثاني بالتوحيد الأحديّ، وقد أشار سبحانه إليهما في سورة الإخلاص، فقال في صدر السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ هادفاً إلى أنَّه بسيطٌ لا جزء له، وقال في ختامها: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1]، بمعنى: لا ثاني له، وقد فُسِّرت الآيتان على النحو الّذي ذكرناه؛ دفعاً للزوم التكرار»[2].

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام في روايةٍ لكلا الأمرين؛ كاشفاً الاختلاف بين هذين اللفظين، وإليك الرواية كما رواها الصدوق:

«إنَّ أعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول: إنَّ الله واحدٌ؟

قال: فحمل الناس عليه، قالوا: يا أعرابيّ، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟!

---

(١) سورة التوحيد: الآية ٤.

(٢) الإلهيات- الشيخ جعفر السبحاني، ص ٣٥٥.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه، فإنّ الّذي يريده الأعرابيّ هو الّذي نريده من القوم، ثمّ قال:

يا أعرابيّ، إنّ القول في أنّ الله واحدٌ على أربعة أقسامٍ، فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ، ووجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه: فقول القائل: واحدٌ يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز؛ لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثةٍ؟! وقول القائل: هو واحدٌ من الناس، يريد به النوع من الجنس، فبهذا ما لا يجوز عليه؛ لأنّه تشبيهٌ، وجلّ ربّنا عن ذلك وتعالى.

وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه: فقول القائل: هو واحدٌ ليس له في الأشياء، كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه عزّ وجلّ أحديّ المعنى، يعني به أنّه لا ينقسم في وجودٍ، ولا عقلٍ، ولا وهمٍ، كذلك ربّنا عزّ وجلّ»[1].

مِن تجلّيات الواحديّة والأحديّة:

إنّ كلّ ما في الكون والمخلوقات من نظمٍ، وإتقان لآياتٍ، وعلاماتٍ، ودلائل على وحدانيّة الله تعالى، وأحديّته تعالى، ونعم ما قال الشاعر في هذا الصدد:

وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ   تدلّ على أنّه واحدٌ

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٨٣- ٨٤، ح٣. ولا يخفى عليك - أيّها القارئ الكريم - أنّ التعرض لأدلة أنّه – تعالى – واحد أحد خارج من غرض الكتاب، إلا أنّه يمكنك معرفة الأدلة والبراهين على ذلك من خلال مراجعة كتاب الإلهيات للعلامة الشيخ جعفر السبحاني، ص ٣٥٣- ٣٧٤. أو غيره من الكتب الكلامية.

فإنَّ من أبرز البراهين الكلاميّة في إثبات خالقٍ قادرٍ واحدٍ أحديٍّ، لا نظير له، ولا شبيه، وأنَّه قديمٌ لا جزء له، ولا تركيب ليحتاج إلى أجزائه وأبعاضه، هو برهان النظم، وهذا تقريبه:

«إنَّ الانسجام السائد على العالم، والاتصال البديع بين أجزائه، فيستدل بالانسجام والاتصال على أنَّ ذاك النظام المتّصل المنسجم إبداع عقلٍ كبيرٍ، وعلمٍ واسعٍ، ولو لا وجوده لما تحقّق ذلك النظام المعجب المتّصل المتناسق.

إنَّ الأبحاث العلميّة كشفتْ عن الاتصال الوثيق بين جميع أجزاء العالم، وتأثير الكلّ في الكلّ، وحتّى صفصفة أوراق الشجر غير منقطعةٍ عن الريح العاصف في أقاصي بقاع الأرض، وحتّى أنَّ النجوم البعيدة الّتي تحسب مسافاتها بالسنين الضوئيّة مؤثّرةٌ في حياة النبات، والحيوان، والإنسان، وهذا الانسجام الوثيق الّذي جعل العالم كمعملٍ كبيرٍ يشدّ بعضه بعضاً، أدلّ دليلٍ على تدخّل عقلٍ كبيرٍ في إبداعه وإيجاده، بحيث جعل الكلّ منسجماً مع الكلّ.

وبعبارةٍ واضحةٍ: إنَّ الضبط والتوازن في الكون السائدين على الطبيعة أوضح دليلٍ على تدخّل عقلٍ كبيرٍ في طروئهما، ولأجل أنْ تتبين ملامح هذا التقريب نأتي بأمثلة:

أ- إنَّ حياة كلّ نباتٍ تعتمد على مقدارٍ صغيرٍ من غاز ثاني أكسيد الكربون الّذي يتجزّأ بواسطة أوراق هذا النبات إلى كربون وأكسجين، ثمّ يحتفظ النبات بالكربون؛ ليصنع منه - ومن غيره من المواد - الفواكه، والأثمار، والأزهار، ويلفظ الأوكسجين الّذي نستنشقه في عمليّة الشهيق والزفير الأساسيّة في حياة الإنسان.

ولو أنَّ الحيوانات لم تقم بوظيفتها في دفع ثاني أكسيد الكربون، أو لم يلفظ النبات الأكسجين، لانقلب التوازن في الطبيعة، واستنفذت الحياة الحيوانيّة، أو النباتيّة كلّ الأكسجين، أو كلّ ثاني أكسيد الكربون، وذوى النبات، ومات الإنسان.

فمَن ذا الّذي أقام مثل هذه العلاقة بين النبات والحيوان، وأوجد هذا النظام التبادليّ بين هذين العالمين المتباينين؟! ألا يدلّ ذلك على وجود فاعلٍ مدبّرٍ وراء ظواهر الطبيعة، هو الّذي أقام مثل هذا التوازن؟!

ب- كان ملاّحو السفن الكبيرة في العهود الماضية يصابون بمرض الإسقربوط، وهو من أمراض سوء التغذية، وينشأ عن نقص فيتامين (ث)، ولكنّ أحد الرحّالة اكتشف دواءً بسيطاً لذلك المرض، وهو عصير الليمون، ترى من أين نشأت هذه العلاقة بين الفواكه الّتي تحتوي على فيتامين (ث) وهذا المرض؟! ألا يدلّ ذلك على أنَّ خالق الداء خلق الدواء المناسب له؟! ولو لا هذا التوازن لعمّت الكارثة، وانعدم النوع الإنسانيّ، وغاب كليّةً عن وجه البسيطة»[١].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٢]، وقال

---

(١) الإلهيات- الشيخ جعفر السبحاني، ص ٤٣- ٤٤، برهان النظم بتقرير ثان. ولمزيد من الأمثلة راجع المصدر.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٦.

تعـــــالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

الأوحديّ من البشر:

يقول المناويّ، صاحب كتاب الفيض القدير - مشيراً إلى حظِّ العبد من هذه الصفة النورانيّة الإلهيّة-: ومن عرف أنه ﷻ الواحد، أفرد قلبه له، فلا يرى في الدارين إلا هو، وبه يتّضح التخلّق، فيكون واحداً في عمره، بل في دهره، وبين أبناء جنسه.

إذا كان من تهواه في الحسن واحداً، فكن واحداً في الحبّ، إنْ كنت تهواه[3].

فمَن رأى تفرّد الله ﷻ في كلّ أمرٍ، وفي كلّ كمالٍ، وجمالٍ، انجذب لا - محالة- نحو تلك الكمالات الفريدة، والمنقطعة النظير والشبيه، وجعل من نفسه فرداً لا ثاني له في كمالاته، ولا يرقى إليه طيرٌ في سجاياه، ومكارم أخلاقه، فهو لم يكتفِ بالتخلّي عن جميع الرذائل، والمفاسد، والعيوب، بل تحلّى بكلّ كمالٍ وأدبٍ، ولم يقنع

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١١٧.

(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير- المناوي ج ٢، ص ٦٢٧.

من المكارم إلا بأفضلها، وأرقاها من كلّ مرتبةٍ، وصفةٍ، وسجيّةٍ، فكان أصبر الناس، وأحلمهم، وأكرمهم، وأشجعهم، وأزهدهم، وأتقاهم، وأورعهم، وهكذا في كلّ صفةٍ، وقد حثّ أئمة أهل البيت عليهم السلام شيعتهم ومواليهم على الاتّصاف بتلك الخصص الراقية، والمقامات العالية من المكارم، والآداب، وقالوا: إن أولئك هم الشيعة الخلّص المخلصون.

عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: **«ليس من شيعتنا من يكون في مصرٍ يكون فيه مائة ألفٍ ويكون في المصر أورع منه»**[1].

فالرواية تؤكد على أن يكون الشيعيّ أفضل أهل مصره، حتّى لو كان ذلك المصر يتكوّن من مئة ألف إنسانٍ، وقد يكون فيهم أهل الورع، لكنّه ينبغي أن يكون هو الأورع من بينهم؛ لانتمائه لأهل ذلك البيت الطاهر.

وإذا سبرت التاريخ، وجدتَ هناك ثلّةً قليلةً قد جعلوا هذه الرواية وأمثالها مناراً لحياتهم، فكانوا في مضمار سباق القرب، والرضوان الإلهيّ، قال تعالى - مادحاً أولئك الأبطال -: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾[2].

وأذكر لك بعض النماذج من أولئك الأبطال، الّذين نالوا مرتبة العصمة، والطهارة بجهودٍ وإراداتٍ صلبةٍ، تجعل من الحديد طيناً.

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج١٥، ص ٢٤٧، ح١٨.

(٢) سورة الواقعة: الآية ١٠- ١٤.

سائل غير مؤدّب:

«وزّع الشيخ جعفر كاشف الغطاء يوماً مبلغاً على فقراء أصفهان، وبعد نفاد المال أمَّ المصلّين، وبين الصلاتين - وفيما كان الناس منشغلين بالتعقيب - جاء سيّدٌ فقيرٌ، وقليل الأدب، ووقف مقابل الإمام قائلاً: أيّها الشيخ، أعطني مال جدّي (الخمس).

قال الشيخ: تأخَّرتَ قليلاً، وللأسف لم يبقَ شيءٌ.

فما كان من هذا السيد غير المؤدّب إلا أنْ تفل على لحية الشيخ بكلّ وقاحةٍ! أمّا الإمام فإنَّه ليس فقط لم يصدر عنه أيّ ردّ فعلٍ قاسٍ، بل نهض، وأمسك طرف ثوبه، ومشى بين المصلّين وهو يقول: كلّ شخصٍ يحبّ لحية الشيخ فليساعد السيّد، وكان الناس قد شاهدوا ما جرى، فامتثلوا، وملؤوا طرف ثوب الشيخ مالاً، ثمّ جاء الشيخ، وقدّم ذلك كلّه إلى السيّد، ووقف يصلّي العصر»[1].

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

الشيخ عباس القمّيّ:

يقول أحد العلماء المعاصرين:

---

(١) سيماء الصالحين- رضا مختاري، ص ٢٨٢- ٢٨٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٣- ١٣٤.

«عندما كنتُ في بداية دراستي، وفي مرحلة المقدّمات، كنتُ أسمع كثيراً اسم المحدّث القمّيّ في مجلس والدي المعظّم، مقروناً بالإجلال، وعندما تشرّفت بالإقامة في مشهد للدراسة، اعتبرتُ أنَّ زيارته غنيمةٌ كبرى، وطيلة عدّة سنواتٍ من معاشرة هذا العالم المؤمن، وبعد التعرّف إلى مراتب علمه، وعمله، وعبادته، وتقواه عن قربٍ، كان إكباري له يزداد يوماً بعد يومٍ.

وفي أحد الشهور الرمضانيّة طلبتُ منه - مع عدّةٍ من الأصدقاء - أنْ يَمُنَّ على المؤمنين والمحبّين بإقامة صلاة الجماعة في مسجد (كوهر شاد)، وبعد إصرارٍ، وإلحاحٍ، قبل هذا الاقتراح، وأقام صلاة الظهر والعصر لعدّة أيّامٍ في أحد أقسام المسجد...

وكان عدد المصلّين يزداد يوماً بعد يومٍ، ولم تمضِ عشرة أيّامٍ حتّى كان الخبر قد انتشر، وأصبح عدد الحضور كبيراً جدّاً، وغير اعتياديٍّ.

وذات يومٍ، وبعد إتمام صلاة الظهر، قال لي - وكنتُ قريباً منه -: أنا لا أستطيع اليوم أنْ أصلّي العصر، ثمّ ذهب، ولم يعد تلك السنّة إلى صلاة الجماعة، وعندما التقيتُه، وسألته عن سبب ترك صلاة الجماعة، قال: الحقيقة إنّي في ركوع الركعة الرابعة سمعتُ صوت المقتدين خلفي يقولون (يا الله، يا الله، إنَّ الله مع الصابرين) وكان الصوت يأتي من مكانٍ بعيدٍ جدّاً، جعلني هذا أنتبه إلى زيادة عدد المصلّين بنسبةٍ كبيرةٍ، ففرحت؛ لأنَّ المجتمعين كثيرون إلى هذا الحدّ، وبناءً عليه فلستُ أهلاً للإمامة»[1].

---

(١) سيماء الصالحين- رضا مختاري، ص ١٢٠.

والطريف أنَّ المحدّث القمّيّ هو ذلك الّذي كان في النجف الأشرف في إحدى ليالي الجمعة يقرأ سورة (يس) بعد صلاة الليل، وعندما وصل إلى هذه الآية الشريفة: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، كرّر تلك الآية عدّة مرّاتٍ، ثمّ جعل يكرّر قوله: أعوذ بالله من النار، ويتغيّر حاله جدّاً، بحيث إنّه لم يستطع إكمال السورة، وبقي كذلك حتّى أذان الصبح، فقام إلى الصلاة.

نعم على الرغم من هذه التقوى والإيمان الصادق بالله، والخشية منه سبحانه، لا يرى نفسه أهلاً لإقامة الجماعة، ويعتزلها، هذا هو الإنسان المخلص الّذي ملك نفسه، وبكلمةٍ: العالم الربّانيّ وأمثاله...[2].

فهو من مصاديق قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا

---

(١) سورة يس: الآية ٦٣.

(٢) سيماء الصالحين- رضا المختاري، ص ١٢٠- ١٢١.

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[1].

إلهي، اجعل همّي همّاً واحداً:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

إنّ مِن أجلى صفات أولئك الأوحدين من البشر أنّهم أخرجوا كلّ همٍ، وغمٍ، وتعلّقٍ دنيويٍّ من سرائرهم، وعقولهم، ووجودهم، بل قد تنزَّهوا حتّى مِن التعلّقات الأخرويّة، من قبيل الجنّة، والميل إلى نعيمها، وتفرّدوا بهَمٍّ واحدٍ، وهو وصال الله تعالى، ففرشوا وجوهم على أعتاب بابه، شاكرين مولاهم أنْ أتاح لهم فرصة الشهود، والأنس بمناجاته، ودعائه دون سائر خلقه، فهم يفرحون بالموت على خلاف سائر البشر؛ إذ أنّه طريق الوصال، والقرب، والتشرّف باللقاء، كما في الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لمّا أراد الله عزّ وجلّ قبض روح إبراهيم عليه السلام، هبط إليه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا إبراهيم.**

فقال: وعليك السلام يا ملك الموت، أداعٍ أم ناعٍ؟

قال: بل ناعٍ يا إبراهيم، فأجب.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩١– ١٩٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٤.

فقال إبراهيم: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟!

قال: فرجع ملك الموت، حتّى وقف بين يدي الله جلّ جلاله، فقال: إلهي، قد سمعت ما قال خليلك إبراهيم.

فقال الله عزّ وجلّ: يا ملك الموت، اذهب إليه فقل له: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟! إنّ الحبيب يحبّ لقاء حبيبه»(١).

فأولئك تيقّنوا أنّ الّذي يمنع الأنس من القرب، والوصال، وكشف ستار الملكوت، والنظر إلى ما لا تراه العيون، هو هذه الانشغالات، والذنوب، فتجرّدوا من تلك الموانع، والعيوب، والهموم، فكان لهم ما يأملون.

ويؤيّد ذلك ما ذكرناه سابقاً عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: **«لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السماء»**(٢).

فالعلاّمة المجلسيّ يستظهر بحقٍّ من هذا الحديث أنّ القلوب لها القابليّة والاستعداد التامّ للنظر إلى ملكوت السموات والأرض، إلا أنّ المانع من ذلك هو ما يوجده الإنسان بفعاله، وهفواته(٣).

ينقل عن الشبليّ أنّه قال: «استنار قلبي يوماً، فشهدت ملكوت السماوات والأرض، فوقعتْ منّي هفوةٌ، فحُجِبْتُ عن شهود ذلك، فعجبتُ كيف حجبني هذا

---

(١) علل الشرائع- الشيخ الصدوق ج ١، ص ٣٦، ح ٩.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٧٦، ص١٦١.

(٣) راجع المصدر السابق.

الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير.

فقيل لي: البصيرة كالبصر، أدنى شيءٍ يحلُّ فيها يعطِّل النظر»(١).

ولهذا تجد الحثّ الدائم عن التخلِّي عن الهموم، إلا همَّاً واحداً، والأخبار في ذلك كثيرةٌ، نورد بعضاً منها:

أ- جاء في الخبر: **«يا عيسى، ارفق بالضعيف، وارفع طرفك الكليل إلى السماء، وادعني؛ فإنّي منك قريبٌ، ولا تدعني إلا متضرّعاً إليّ، وهمّك همّاً واحداً؛ فإنّك متى تدعني كذلك أجبْك»**(٢).

ب - وفي الحديث القدسيّ: **«يا أحمد، اجعل همَّك همَّاً واحداً، واجعل لسانك لساناً واحداً، واجعل بدنك حيّاً، لا تغفل أبداً، من غفل لا أبالي بأيٍّ وادٍ هلك.**

يا أحمد، استعمل عقلك قبل أنْ يذهب، مَنْ استعمل عقله لا يخطئ، ولا يطغى....»(٣).

حـ- عن فضيل بن يسار قال: **«دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام في مرضةٍ مرضها، فقال: يا فضيل، إنّني كثيراً ما أقول: ما على رجلٍ عرّفه الله هذا الأمر لو كان في رأس جبلٍ، حتّى يأتيه الموت.**

يا فضيل بن يسار، إنَّ الناس أخذوا يميناً، وشمالاً، وإنَّا وشيعتنا هدينا الصراط

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير- المناوي ج ١، ص ٣٣٥.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٨، ص ١٣٣، ح١٠٣.

(٣) الجواهر السنية- الشيخ الحر العاملي، ص ٢٠٠.

المستقيم.

يا فضيل بن يسار، إنَّ المؤمن لو أصبح له ما بين المشرق والمغرب، كان ذلك خيراً له، ولو أصبح مقطّعاً أعضاؤه، كان ذلك خيراً له.

يا فضيل بن يسار، إنَّ الله لا يفعل بالمؤمن إلاّ ما هو خيرٌ له.

يا فضيل بن يسار: لو عدلت الدنيا عند الله عَزَّوَجَلَّ جناح بعوضةٍ ما سقى عدوّه منها شربة ماءٍ.

يا فضيل بن يسار، إنَّه مَنْ كان همَّه همَّاً واحداً، كفاه الله همَّه، ومَنْ كان همَّه في كلّ وادٍ، لم يبالِ الله بأيِّ وادٍ هلك»[1].

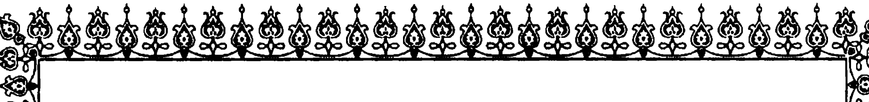
أيها المتعب جهلاً نفسه   تطلب الدنيا حريصاً جاهدا

لا لك الدنيا ولا أنت لها   فاجعل الهمّين همّاً واحدا[2]

---

(١) الكافي– الشيخ الكليني ج ٢، ص٢٤٦،ح ٥.

(٢) روضة الواعظين– الفتال النيسابوري، ص ٤٤٠.



الموضوع الثاني عشر:

الوِتْر

١- تجلّيات الوتر.

٢- العبد والوتر.

٣- القائد مع الشهيد مطهّريّ.

٤- كاشف الغطاء وصلاة الليل.

الوِتْـر

عن أبي جعفر عليه السلام: «إنَّ الله وترٌ، يحبّ الوتر...»[1].

وعن عليّ عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم: إنّ الله وتـرٌ، يحبّ الوتر، فأوتروا يا أهل القرآن»[2].

وقال ابن الأثير: «الوتر: الفرد، وتُكسر واوه، وتفـتح. فـالله واحـدٌ في ذاتـه، لا يقبل الانقسام، والتجزئة، واحدٌ في صفاته، فلا شبه له، ولا مثـل، واحـدٌ في أفعالـه، فلا شريك له ولا معين. و(يحبّ الوتر): أي يثيب عليه، ويقبله من عاملـه. وقولـه: (أوتروا) أمرٌ بصلاة الوتر، وهو أنْ يصلّى مثنىً مـثنىً، ثمّ يصـلّى في آخرهـا ركعـة مفردة...»[3].

وفي مجمع البحرين: «الله وترٌ: لأنَّه البائن من خلقه، الموصوف بالوحدانيّـة مـن

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٣، ص ٢٥.

(٢) مسند أحمد- الإمام أحمد بن حنبل ج ١، ص ١٤٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث- ابن الأثير ج ٥، ص١٤٧.- قال اللحياني: أهل الحجـاز يفتحـون فيقولون: وَتر، وتميم وأهل نجد يكسرون فيقولون: وِتر. لسان العرب- ابن منظور ج ٥:٢٧٤.

كلّ وجهٍ، ولا نظير له في ذاته، ولا سميّ له في صفاته، ولا شريك له في ملكه، فتعالى الله الملك الحقّ. وقوله: (يحبّ الوتر) أي: يرضى به عن العبد»[١].

وقال الشيخ الصدوق رحمه الله: «الوتر: الفرد، وكلّ شيءٍ كان فرداً قيل: وترٌ»[٢].

وممّا تقدَّم يتّضح ما يلي:

أ- إنَّ الوتر - بفتح الواو وكسرها - تعني في اللغة: الفرد، أو البائن.

ب- والله وترٌ؛ لأنَّه متفرِّدٌ بجميع كمالاته؛ إذ هو واحدٌ في ذاته، لا يقبل الانقسام، والتجزئة، وواحدٌ في صفاته، فلا شبه له، ولا مثل، وواحدٌ في أفعاله، فلا شريك له، ولا معين.

حـ- الحثّ على الوتر، كما ورد: «**يحبّ الوتر**»، وكذا «**فأوتروا يا أهل القرآن**».

تجلّيات الوتر:

غير خافٍ على أحدٍ أنَّ جميع عالم التكوين - من الذرّة إلى المجرّة - لشاهدٌ على بارئها بأنَّه وترٌ، فلا موجود من الموجودات يستطيع إبداع وإيجاد ذرّة واحدة من التراب، فضلاً عن غيرها من الموجودات الأخرى العظيمة، فالذرّة - ومروراً إلى المجرة - كاشفةٌ على أنَّه متفردٌ بالكمالات، والخلْق، والصنع، لا شبيه له، ولا نظير تعالى.

---

(١) مجمع البحرين- الشيخ الطريحي ج ٤، ص ٤٦٢.

(٢) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢١٣.

إنّ الله ﷻ هو الواحد، والمتفرّد بالكمالات، فلا يتركّب من أجزاءٍ، ولا يقبل الانقسام، واجب الوجود، لا يعرض عليه العدم، والإمكان، فلا نظير له، ولا شبيه، وتفصيل ذلك في كتب الكلام، والفلسفة.

وكذلك تجد تفرّده ووحدانيّته متجليّةً في عالم التدوين، والقرآن الحكيم، فلا تجد في هذا العالم الماديّ والمتطوّر نظام حكمٍ أكمل، وأشمل، وأكثر تناغماً، وانسجاماً مع الفطرة الإنسانيّة، ملبّياً جميع احتياجاته الروحيّة، والماديّة في جميع الأصعدة، إلا الدين الحنيف، وتعاليمه.

العبد والوتر:

تقدّمتْ الإشارة إلى حثّ الشارع لكي يوتر العبد، وهذا الخطاب يحتمل عدّة معانٍ، منها:

أ- أن يكون العبد متخلّقاً بأخلاق الله ﷻ، فيكون فريد عصره وزمانه في سجاياه، وأفعاله، من ورعٍ، وزهدٍ، وإخلاصٍ، وغير ذلك، وقد تقدّم منّا الكلام في ذلك في بحث الواحد الأحد.

ب- أنْ يكون المراد من ذلك هو: مراعاة الوتريّة في الأعمال، أي: يجعلها فرداً، لا زوجاً، في كلّ عملٍ أمكنه ذلك، ما لم يوجب العيب، والخلل، والنقص فيه.

ولعل السرَّ في ذلك أنْ يلتفت العبد في أفعاله إلى الله ﷻ، وكمالات صنعه، فيسعى قدر المستطاع إلى جعل عمله إلى أكمل وجهٍ ممكنٍ، مع إقراره بأنّه عاجزٌ، ولا يصدر عن العاجز الفقير إلا ما فيه النقص، والعيب، فلا يغترّ بأعماله، وفعاله.

وقد أشارتْ الروايات إلى هذا الأمر، من قبيل ما رُوِيَ عن أبي عبد الله الصادق، جعفر بن محمّدٍ عليه السلام: «**إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزل حتّى لحَّدَ سعد بن معاذ، وسوّى اللبن عليه، وجعل يقول: ناولني حجراً، ناولني تراباً رطباً، يسدُّ به ما بين اللبن، فلما أنْ فرغ، وحثا التراب عليه، وسوّى قبره، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي لأعلم أنّه سيبلى، ويصل إليه البلاء، ولكنّ الله يحبّ عبداً إذا عمل عملاً أحكمه**»(١).

فهذا العمل وإنْ كان بسيطاً وحقيراً لدى الكثير من البشر؛ حيث إنّه قبرٌ، وحفنةٌ من التراب، إلاّ أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله يريد أنْ يعلّمنا ـ وانطلاقاً من هذا الأمر الحقير اليسير لدى الكثيرـ أنْ نسعى في إتقان أعمالنا مهما كانت حقيرةً، وجعلها في أحسن صورةٍ، فضلاً عن الأمور العظيمة، والكبيرة الّتي لها من الأهمّيّة والأولوية الكثير.

ويريد ـ من خلال ما تقدّم ـ أن يدفع إشكالاً مقدَّراً في أذهان الكثير منّا، وهو أنَّ القبر سرعان ما يصل إليه الفناء والبلاء، فما قيمة الإتقان؟!

فكان جوابه صلى الله عليه وآله: مع ذلك عليكم بإتقان ذلك؛ حيث إنَّ تقدّم المجتمعات والحضارات يبدأ من الإتقان، والإِحكام في الأمور، حتّى وإن صغرتْ في أعينكم.

كما أنَّ لردّه صلى الله عليه وآله إشارةً أخرى، وهي أنَّ الإنسان مهما سعى إلى الكمال، والإتقان، فإنَّ قانون الله وحكمه جارٍ في خليقته، وهو الفناء، والهلاك، كلّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه، فإنْ كان ذلك جارٍ في صنع الله، فكيف بفعل الإنسان الّذي أحاطه

(١) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العملي ج٣، ص ٢٢٩،ح٢.

النقص من كلّ جهةٍ وصوبٍ؟!

ج- ولعلّ المراد من «يحبّ الوتر»، أو «فأوتروا»، هو الاهتمام بصلاة الوتر، والتأكيد على إقامتها، والاهتمام بها؛ لما لها من المنزلة السامية؛ والتأثير المباشر في سلوك الإنسان؛ وما لها من الأثر البالغ للنيل من بهاء الله، وعظمته، ونوره[1]، وبلوغ مرتبة الخِلَّة، وهي مرتبةٌ منقطعة النظير، ولا ينالها إلاّ الأوحديّ من البشر، كما في الحديث: ما اتّخذ الله إبراهيم خليلاً إلا لإطعامه الطعام، وصلاته بالليل، والناس نيام[2].

وأيُّ مقامٍ أسمى وأغلى قيمةً عند السالك - والعاشق لله تعالى- من مقام الخلّة؟! وقد زيد في فضل صلاة الليل أنّها ممّا يباهي بها الله تعالى ملائكته المقرّبين، فعن النبيّ ﷺ: **«إنّ ربّك يباهي الملائكة بثلاثة نفرٍ:... ورجلٍ قام من الليل، يصلّي وحده، فسجد، ونام وهو ساجدٌ، فيقول: انظروا إلى عبدي، روحه عندي، وجسده ساجدٌ لي...»**[3].

وفي حديثٍ آخر عن رسول الله ﷺ: **«إنّ الله جلّ جلاله أوحى إلى الدنيا: أنْ أتعبي مَنْ خدمك، واخدمي مَنْ رفضك، وإنّ العبد إذا تخلّى بسيده في جوف الليل المظلم، وناجاه، أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا ربّ، يا ربّ، ناداه الجليل جلّ جلاله: لبّيك**

---

(١) ففي الخبر أنه سئل الإمام علي بن الحسين عليه السلام: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره. ميزان الحكمة ج ٥، ص ٤٢١، ح ١٠٤٦٤.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ٥، ص ٤١٧، ح١٠٤٣٨.

(٣) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٨١، ص ٢٥٩.

عبدي، سَلْني أعطِكَ، وتوكّل عليّ أكفك، ثمّ يقول جلّ جلاله لملائكته: يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، فقد تخلّى بي في جوف الليل المظلم، والبطّالون لاهون، والغافلون نيام، اشهدوا أنّي قد غفرتُ له»(١).

إنَّ الأوحدين من البشر أرادوا علاوةً على ذلك، أنْ يظهروا صدق دعواهم، ويثبتوا بعملهم أنّهم يحبّون الله، ويحبّون خلوته، ومناجاته تعالى، فأذاقهم الله لذّة القرب، وأصبحت أرواحهم معلّقةً بعزّ قدسه، فتجلّى لهم الله في قلوبهم، فصعقوا لما رأوا من جلاله، وجماله.

ورد عن مفضّل بن عمر، قال: «**سمعت مولاي الصادق عليه السلام يقول: كان فيما ناجى الله عزّ وجلّ به موسى بن عمران عليه السلام أنْ قال له:**

يا ابن عمران، كذب من زعم أنّه يحبّني، فإذا جنّه الليل نام عنّي، أليس كلّ محبٍّ يحبّ خلوة حبيبه؟! ها أنا ذا - يا ابن عمران - مطّلعٌ على أحبّائي، إذا جنّهم الليل حوّلت أبصارهم من قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلّموني عن الحضور.

يا ابن عمران، هَبْ لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع في ظلم الليل، وادعني؛ فإنّك تجدني قريباً، مجيباً»(٢).

ومن هنا ـ أيّها العزيزـ تعرف السرّ منْ حثّ الشارع الأقدس لقيام الليل، وسرّ

---

(١) الأمالي- الشيخ الصدوق، ص ٣٥٣،ح٨.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق، ص: ٤٣٨، ح١.

التفرّد بالحبيب، كما تجد هذا الحثّ جليّاً في القرآن الكريم، كما في قوله ﷻ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

ولهذا الخطاب – وأمثاله – تجد الكمّل من البشر قد زهدوا في الدنيا وما فيها، بل لا تعدل عندهم معشار لحظة أنسٍ مع الله، وقدر ذرّةٍ من دمعةٍ يجرّونها من خشيته، أو شوقاً إليه ﷻ، وهذا ما يتجلّى لمن نظر في تاريخ العلماء، والأبرار.

يقول الشهيد مطهريّ رحمه الله:

«هناك سلسة لذائذ معنويّة، تنمّي معنويّاتنا، وتسمو بها، صلاة الليل لها – عند مَنْ هو مِن أهل التهجّد، وصلاة الليل، ومَنْ هو مِن الصادقين، والصابرين، والمستغفرين بالأسحار– لذّةٌ، وبهجةٌ، تلك اللذَّة الّتي يشعر بها مصلٍّ حقيقيٌّ، وواقعيٌّ لصلاة الليل، من صلاة ليلة، من قوله: (أستغفر الله ربّي، وأتوب إليه)، مِنْ قوله: (العفو، العفو)، وذكر أربعين مؤمناً على الأقل، والدعاء لهم، اللذَّة الّتي يستشعر بها من قوله: (يا ربّ، يا ربّ)، لا يمكن أنْ يستشعر بها شخصٌ بطّالٌ، يتسكّع في علب الليل، لذّة صلاة الليل أعمق بكثيرٍ، أقوى بكثيرٍ، أكثر نشاطاً، ولكن إذا أغرقنا أنفسنا في لذَّة الدنيا المادّيّة، مثلاً نتحلّق أول الليل حول بعضنا، ونأخذ بالحديث، والضحك، ولنفترض أنّنا لم نغتب؛ لأنَّ ذلك حرامٌ، واقتصرنا فقط على المزاح المباح، وبعدها توضع المائدة، ونأكل حتّى التخمة، بحيث يصبح حتّى التنفّس

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٦– ١٧.

صعباً علينا، وبعدها نسقط كالموتى في فراشنا، هل نستطيع آنذاك أنْ نوفّق للاستيقاظ سحراً قبل طلوع الفجر بساعتين؟! ونناجي من أعماق الروح: "يا ربّ، يا ربّ"؟! أصلاً لن نستيقظ، وإذا استيقظنا فكالسكارى، نعبّ الماء عبّاً.

إذن إذا أراد الإنسان أن يدرك اللذائذ المعنويّة والإلهيّة في هذه الدنيا، لا سبيل له إلا أن يصدّ نفسه عن اللذائذ المادّيّة.

أقسم بالله، إنّ اللذّة الّتي يشعر بها المؤمن عندما يستيقظ في ذلك الوقت في صلاة الليل، ويقع نظره على السماء المليئة بالنجوم، ويقرأ آيات آخر سورة آل عمران، الّتي هي صوت الوجود، المنبعث من قلب الوجود، ويتّحد صوته -بقراءتها- مع صوت الوجود، -هذه اللذّة- تعادل عمراً من اللذّة المادّيّة في هذه الدنيا، إنسانٌ كهذا لا يستطيع أنْ يعيش مثلنا، أنْ يجلس إلى مائدة العشاء، مع أنّه ظهراً تناول الأطعمة الدسمة، وأنواع المقبّلات، ولا يستطيع أنْ يجلس عشاءً، ويتناول- أيضاً - مقداراً من الحساء؛ لتحريك اشتهائه للطعام.

الشخص الّذي يفعل ذلك لا يستطيع أنْ يستيقظ عند منتصف الليل، إذا استيقظ فلا يمكنه أنْ يلتذّ بالمناجاة»[1].

أيّها العزيز، إنّ هذه الكلمات صادرةٌ من أحد أبرز الشخصيّات الفريدة في عالمنا المعاصر في الفلسفة، والعرفان الإسلاميّ، فلا ينبغي أنْ تمرّ نصائحه وتجاربه على أسماعنا مرور الكرام، فهو عالمٌ عارفٌ، وفيلسوفٌ خبيرٌ.

---

(١) سيماء الصالحين- رضا المختاري، ص ١٨٢- ١٨٣.

القائد مع الشهيد مطهّري:

يقول السيّد القائد حفظه الله:

«كان الشهيد مطهّري من أهل العبادة، ومن أهل التصفية والتزكية، لا أنسى كلّما كنّا معه في ليلٍ من الليالي، كان يقوم في منتصف الليل؛ لصلاة الليل، ويبكي، وكان بكاؤه ومناجاته بنحوٍ يوقظ الآخرين من النوم.

في ليلةٍ من الليالي كان الشهيد في منزلنا، وفي منتصف الليل انتبهتْ زوجتي فزعةً من شدَّة بكائه؛ حيث لم تعرف صوته، وبعد ذلك توجّهتْ أنَّه صوت بكاء ومناجاة الشهيد مطهّري»(١).

طبعاً كثيرون هم الّذين يصلّون صلاة الليل، وأما مصلّوا صلاة الليل بتلك الحالة من البكاء فهم قلّةٌ(٢).

كاشف الغطاء وصلاة الليل:

يقول شهيد المحراب، الشيخ محمد تقي البرغاني القزويني:

«جاء المرحوم الشيخ جعفر كاشف الغطاء يوماً إلى قزوين، ونزل في بيت أحد الأعاظم، كانت في ذلك البيت حديقةٌ، وحان وقت النوم، ونام الجميع، ونمت في زاويةٍ من الحديقة، وعندما مضى هزيعٌ من الليل، سمعت الشيخ يناديني قائلاً: قم

---

(١) باره اي از خورشيد، ص ١٨٠. أي: قطعة من الشمس، كتاب عن حياة الشهيد مطهري.

(٢) سيماء الصالحين- رضا مختاري، ص ١٨٤.

صلِّ صلاة الليل.

فقلت: نعم، فمضى الشيخ، ونمت مجدّداً، وفجأة سمعت صوتاً، قمت، بحثت عن مصدر الصوت، عندما اقتربت، وجدت الشيخ يتضرّع، ويناجي، ويبكي، وقد ترك صوته أثراً في نفسي بحيث إنّي منذ تلك الليلة - وحتّى الآن، وبعد مضيّ خمس وعشرين سنة - أستيقظ كلّ ليلةٍ، وأصلّي صلاة الليل»[١].

لاحظ أيّها المؤمن، كم كان لبكاء وتضرّع الشيخ كاشف الغطاء مِن أثرٍ، ونورانيّةٍ، وشوقٍ، ولذّةٍ، بحيث يترك أثره الإيجابيّ على شهيد المحراب طيلة الخمس والعشرين سنة؛ فهذا التأثير لكون المصلّي كان إنساناً ملكوتيّاً، فأثّر ذلك التأثير.

---

(١) سيماء الصالحين- رضا مختاري، ص١٩٠.

الموضوع الثالث عشر:

البَدِيــع

١- القرآن والإبداع الإلهيّ.

٢- العبد والبديع.

٣- ذكر البديع.

البَدِيـــــع

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(2).

قال المولى المازندرانيّ:

«البديع: يراد به المُبْدِع، وهو الّذي فطر السموات، لا على مثالٍ سبق، ولا نظيرٍ.

فهو سبحانه المخترع للموجودات وحدودها، وهي ما لها من المقادير، والأشكال، والنهايات، والآجال، والكمالات، على وفق إرادته الكاملة، وحكمته البالغة، ليس له معينٌ ناصرٌ، ولا دافعٌ زاجرٌ، يخلق ما يشاء، ويختار ما كان لهم

---

(1) سورة البقرة: الآية ١١٧.

(2) سورة الأنعام: الآية ١٠١.

الخيرة»[1].

فإنَّ جميع أجزاء عالم التكوين - وكذلك عالم التدوين - كاشفةٌ عن عظمة إبداع البديع ﷻ، فقد خلق الخلق في صورةٍ جعل عقول الناس مبهوتةً من عظمة إبداعها، وذهلت عقولهم حينما انكشف لهم بعض أسرارها، وأقرَّت نفوسهم بعجزها عن إدراك كلّ أسرارها، فضلاً عن تصوّر مبدِعِها، فَسَاقَ ذلك العجز إلى إنكار بعض الجهَّال لوجود خالقٍ مبدعٍ قديرٍ، قد فطر السموات والأرض اللتين هما في غاية الإبداع، والإتقان.

إلا أنَّ البعض الآخر - وهم العقلاء، وببركة سلامة فطرتهم - أخذتهم الرهبة، وهيمنت عليهم العظمة، فسجدوا لخالقهم، مقرِّين له بعجزهم من إدراك أسرار ذرّات الأشياء، فكيف بإدراك بارئها، ومبدعها، بديع السماوات والأرض؟!

فآمنوا بالله تعالى، وبإبداعه بعد أن تيقّنوا أنَّ هذا الإبداع لا يمكن - بل يستحيل - أنْ يصدر من الطبيعة الفاقدة للشعور، والإحساس، والإدراك، والإرادة.

ألا يضحك السامع حينما يقال له: إنّ هذه (الساعة) الّتي أمامك من صنع هذا الحيوان الّذي تراه أمامك؟! وإنَّه قد صنعها صدفةً؟! ومن دون اختيارٍ أو قصدٍ؟!

---

(١) شرح أصول الكافي- مولى محمد صالح المازندراني ج ٤، ص ٢٠٧. وقال الغزالي: "البديع" هو الذي لا عهد بمثله... فإنْ لم يكن بمثله عهد، لا في ذاته، ولا صفاته، ولا في أفعاله، ولا في كل أمر راجع إليه فهو البديع المطلق، وإنْ كان شيء من ذلك معهود فليس ببديع مطلق.

ولا يليق هذا الاسم مطلقاً إلا لله تعالى، فإنَّه ليس له قبل، فيكون مثله معهوداً قبله، وكل موجود بعده فحاصل بإيجاده، وهو غير مناسب لموجده، فهو بديع أزلاً وأبداً.

أليس يضحك الجاهل - قبل العاقل الفطن - من هذا الكلام؟! مع أنَّ للحيوان شيءٌ يسيرٌ من الشعور، والإحساس، والإرادة، فكيف يؤمن أنَّ نعمة الإبداع والإيجاد للسماوات والأرض من نتاج تلك الطبيعة، الّتي لا حظّ لها من الشعور، والإحساس، والإدراك؟!

ولهذا الأمر الجلّي – وأمثاله – تجد الأولياء العرفاء ترتجف فرائصهم، وأبدانهم من خشية الله تعالى البديع المتعال، وتهيْمِن عليهم الخشية، والهيبة الإلهيّة أكثر كلّما انفردوا عن الخلق، ونظروا إلى ملكوت السماوات والأرض، وأمعنوا في تجلّيات الباري في خلقه، وإبداعاته العجيبة في الليل والنهار، لا سيّما في جوف الليل، والناس نيام، حينما يقرؤون الآيات الأخيرة من سورة آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٩– ١٩١. وقد أوردنا كلام الشهيد مطهري رحمه الله في هذا الصدد، تحت عنوان (العبد والوتر)، حيث قال: أقسم بالله إن اللذة التي يشعر بها المؤمن عندما يستيقظ في ذلك الوقت في صلاة الليل، ويقع نظره على السماء المليئة بالنجوم، ويقرأ آيات آخر سورة آل عمران، الّتي هي صوت الوجود المنبعث من قلب الوجود... ويتّحد صوته– بقراءتها– مع صوت الوجود– هذه اللذة– تعادل عمراً من اللذة المادية في هذه الدنيا.

القرآن والإبداع الإلهيّ:

أشرنا غير مرّةٍ بوجوهٍ عدّةٍ إلى الإبداع، والإتقان الإلهيّ في الخلق، إلا أنّنا نشير هنا إلى جانبٍ آخر من الإبداع الإلهيّ، وهو الإبداع في عالم التدوين، وكتاب التشريع.

فإليك ـ أيّها القارئ الكريم ـ إشارةً خاطفةً إلى بعض وجوه الإعجاز الإلهيّ في القرآن الكريم، ونكتفي بما ذكره القرطبيّ في تفسيره في المقام، حيث قال:

١- النظم البديع المخالف لكلّ نظمٍ معهودٍ في لسان العرب وفي غيرها؛ لأنَّ نظمه ليس من نظم الشعر في شيءٍ، وكذلك قال ربّ العزَّة -الّذي تولى نظمه-: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[١].

وفي صحيح مسلم، أنَّ أنيساً - أخا أبي ذرٍّ- قال لأبي ذرٍّ: لقيتُ رجلاً بمكّة على دينك، يزعم أنَّ الله أرسله.

قلت: فما يقول الناس؟

قال يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ، وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء[٢] الشعر، فلم يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنّه شعرٌ، والله إنّه لصادقٌ، وإنّهم لكاذبون.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

(٢) أقراء الشعر: أنواعه، وطرقه، وبحوره، وأنحاؤه.

وكذلك أقرَّ عتبة بن ربيعة أنَّه ليس بسحرٍ، ولا بشعرٍ، لَمّا قرأ عليه رسول الله ﷺ: (حم) فصّلت، على ما يأتي بيانه هناك[١]، فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة، والبلاغة، بأنَّه ما سمع مثل القرآن قطّ، كان في هذا القول مقرّاً بإعجاز القرآن له، ولضربائه من المتحقّقين بالفصاحة، والقدرة على التكلّم بجميع أجناس القول، وأنواعه.

٢- الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

٣- الجزالة الّتي لا تصحّ من مخلوقٍ بحالٍ، وتأمّل ذلك في سورة ق: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[٢] إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٣] إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[٤] إلى آخر السورة.

قال ابن الحصار: فمن علم أنَّ الله ﷻ هو الحقّ، علم أنَّ مثل هذه الجزالة لا تصحّ في خطاب غيره، لا يصحّ من أعظم ملوك الدنيا أنْ يقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[٥] ولا أن يقول: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾[١].

---

(١) راجع تفسير القرطبي- القرطبي ج ١٥: ٣٣٧.

(٢) سورة ق: الآية ١. راجع تفسير القرطبي ج ١، ص ١٧.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٧. راجع تفسير القرطبي ج ١٥، ص ٢٧٧.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٤٢. راجع تفسير القرطبي ج ٩، ص ٣٧٦.

(٥) سورة غافر: الآية ١٦. راجع تفسير القرطبي ج ١٥، ص ٣٠٠.

قال ابن الحصار: وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمةٌ كلّ سورةٍ، بل هي لازمةٌ كلّ آيةٍ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كلّ آيةٍ، وكلّ سورةٍ عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدِّي، والتعجيز، ومع هذا فكلّ سورةٍ تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمرٌ آخر من الوجوه العشر، فهذه سورة " الكوثر" ثلاث آياتٍ قصارٍ، وهي أقصر سورةٍ في القرآن، وقد تضمّنت الإخبار عن مغيّبين:

أحدهما: الإخبار عن الكوثر، وعظمه، وسعته، وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أنَّ المصدّقين به أكثر من أتباع سائر الرسل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مالٍ وولدٍ، على ما يقتضيه قوله الحق: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا (١٢)وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾[٢]، ثمّ أهلك الله - سبحانه - ماله، وولده، وانقطع نسله.

٤- التصرّف في لسان العرب على وجهٍ لا يستقل به عربيٌّ، حتّى يقع منهم الاتّفاق من جميعهم على إصابته في وضع كلّ كلمةٍ وحرفٍ موضعه.

٥- الإخبار عن الأمور الّتي تقدّمت في أوّل الدنيا إلى وقت نزوله من أمّيٍّ ما كان يتلو من قبله من كتابٍ، ولا يخطّه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدّوه به من

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٣. راجع تفسير القرطبي ج ٩، ص ٢٩٦.

(٢) سورة المدثر: الآية ١١- ١٤. راجع تفسير القرطبي ج ١٩، ص ٧٠.

قصص أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليه السلام، وحال ذي القرنين، فجاءهم - وهو أمّيٌّ من أمّةٍ أمّيّةٍ، ليس لها بذلك علمٌ - بما عرفوا من الكتب السالفة صحّته، فتحقّقوا صدقه.

قال القاضي ابن الطيّب: ونحن نعلم ضرورةً أنَّ هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلّمٍ، وإذا كان معروفاً أنّه لم يكن ملابساً لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردّداً إلى المتعلّم منهم، ولا كان ممّن يقرأ، فيجوز أنْ يقع إليه كتابٌ فيأخذ منه، علم أنّه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييدٍ من جهة الوحي.

٦- الوفاء بالوعد، المدرك بالحسن في العيان، في كلّ ما وعد الله سبحانه، وينقسم إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله ﷺ، وإخراج الّذين أخرجوه من وطنه، وإلى وعدٍ مقيَّدٍ بشرطٍ، كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[(١)]، و﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[(٢)]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾[(٣)]، و﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[(٤)]، وشبه ذلك.

٧ - الإخبار عن المغيّبات في المستقبل، الّتي لا يطّلع عليها إلا بالوحي، فمن ذلك ما وعد الله نبيه ﷺ أنّه سيظهر دينه على الأديان، بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي

---

(١) سورة الطلاق: الآية: ٣. راجع تفسير القرطبي ج ١٨، ص ١٦١.

(٢) سورة التغابن: الآية ١١. راجع تفسير القرطبي ج ١٨، ص ١٣٩.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٣. راجع تفسير القرطبي ج ١٨، ص١٥٧.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٥. راجع تفسير القرطبي ج ٨، ص ٤٤.

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[١] الآية، ففعل ذلك.

وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[٢]، وقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ...﴾[٣]، وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ...﴾[٤]، وقال: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[٥].

فهذه كلّها أخبارٌ عن الغيوب الّتي لا يقف عليها إلا ربّ العالمين، أو من أوقفه عليها ربّ العالمين، فدلّ على أنَّ الله تعالى قد أوقف عليها رسوله؛ لتكون دلالةً على صدقه.

٨- ما تضمّنه القرآن من العلم الّذي هو قوام جميع الأنام، في الحلال، والحرام، وفي سائر الأحكام.

٩- الحكم البالغة الّتي لم تجرِ العادة بأن تصدر في كثرتها، وشرفها من آدميٍّ.

١٠- التناسب في جميع ما تضمّنه ظاهراً، وباطناً من غير اختلاف، قال الله تعالى:

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٣.

(٢) سورة النور: الآية ٥٥. راجع تفسير القرطبي ج ١٢، ص ٢٩٧.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٧. راجع تفسير القرطبي ج ١٦، ص ٢٨٩.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٧. راجع تفسر القرطبي ج ٧، ص ٣٦٩.

(٥) سورة الروم: الآية ١- ٣. راجع تفسير القرطبي ج١٤، ص ١.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1].

قلت: فهذه عشرة أوجهٍ ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم.

إلى أنْ قال: إنَّ الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ في قدرة أحدٍ من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أنَّ الفصيح منهم يضع خطبةً - أو قصيدةً- سيتفرّغ فيها جهده، ثمّ لا يزال ينقّحها حولاً كاملاً، ثمّ تعطى لآخر بعده، فيأخذها بقريحة جامه، فيبدّل فيها، وينقّح، ثمّ لا تزال بعد ذلك فيها مواضيع للنظر، والبدل، وكتاب الله – تعالى- لو نزعت منه لفظه، ثمّ أدير لسان العرب أنْ يوجد أحسن منها لم يوجد.

ومن فصاحة القرآن أنَّ الله – جلّ ذكره - ذكر في آيةٍ واحدةٍ أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[2].

وكذلك فاتحة سورة المائدة، أمر بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلّل تحليلاً عامّاً، ثمّ استثنى استثناءً بعد استثناءٍ، ثمّ أخبر عن حكمته، وقدرته، وذلك ممّا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأنبأ – سبحانه- عن الموت، وحسرة الفوت، والدار الآخرة، وثوابها، وعقابها، وفوز الفائزين، وتردّي المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ووصفها بالقلّة، بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[3]. وأنبأ أيضاً عن قصص الأولين، والآخرين، ومآل المترفين،

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢. تفسير القرطبي ج ٥، ص ٢٩٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

وعواقب المهلكين، في شطر آية، وذلك في قوله تعالى: ﴿...فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا...﴾(١).

وأنبأ عزّ وجلّ عن أمر السفينة، وإجرائها، وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة، واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض، والسماء، بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾(٢) إلى قوله: ﴿...وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٣)، إلى غير ذلك.

فلمّا عجزت قريش عن الإتيان بمثله، وقالت: إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله تقوّله، أنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾(٤).

ثمّ أنزل تعجيزاً أبلغ من ذلك، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٥).

فلمّا عجزوا حطّهم عن هذا المقدار، إلى مثل سورةٍ من السور القصار، فقال –

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٠.

(٢) سورة هود: الآية ٤١.

(٣) سورة هود: الآية ٤٤.

(٤) سورة الطور: الآية ٣٣– ٣٤.

(٥) سورة هود: الآية ١٣.

جل ذكره-: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ...﴾[١] ، فأفحموا عن الجواب، وتقطّعتْ بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب، والعناد، وآثروا سبي الحريم، والأولاد، ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيراً، وأبلغ في الحجّة، وأشدّ تأثيراً، هذا، مع كونهم أرباب البلاغة، واللحن[٢]، وعنهم تؤخذ الفصاحة، واللسن[٣].

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإعجاز والبيان، بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة، هذا رسول الله - صلى الله عليه [وآله] وسلم- مع ما أوتي من جوامع الكلم، واختصّ به من غرائب الحكم، إذا تأمّلت قوله ﷺ في صفة الجنان، وإنْ كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطّاً عن رتبة القرآن، وذلك في قوله ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» فأين ذلك من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[٤]، وقوله: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾[٥].

ذا أعدل وزناً، وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأقلّ حروفاً، على أنّه لا يعتبر إلا في مقدار سورةٍ، أو أطول آيةٍ؛ لأنَّ الكلام كلّما طال اتّسع فيه مجال المتصرّف، وضاق المقال على القاصر المتكلّف، وبهذا قامت الحجّة على العرب؛ إذ كانوا أرباب

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(٢) اللحن (بالتحريك): الفطنة واللغة،" هامش المصدر ".

(٣) اللسن (بالتحريك) الفصاحة، " هامش المصدر ".

(٤) سورة الزخرف: الآية ٧١.

(٥) سورة السجدة: الآية ١٧.

الفصاحة؛ ومظنّة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة، فإنَّ الله سبحانه إنَّما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبيّ - صلى الله عليه و[آله] وسلم - الّذي أراد إظهاره، فكان السحرة في زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطبّ في زمن عيسى عليه السلام، والفصاحة في زمن محمّدٍ صلى الله عليه وآله[١].

العبد والبديع:

وحظّ العبد من هذا الاسم الشريف هو السعي لنيل درجةٍ من الكمال، والاختصاص في بعض مجالات وشؤون الحياة، بحيث يكون ممّن لم تعهد البشريّة نظيره في كمالاته، أو إنجازاته، وأعماله، فيكون مبدعاً، متخلّقاً بأخلاق الله تعالى، وبصفاته الحسنى، فإنَّ ابن سينا، والفارابيّ، والعلامة الحلّيّ، والشيخ الطوسيّ، والعلامة الطباطبائيّ، وكذلك السيّد الإمام الخمينيّ (قدس الله أسرارهم)، قد دوّنهم التاريخ في صفحاته بماء الذهب، متباهياً بهم؛ لما قدموا للمجتمعات الإسلاميّة والبشريّة من خدماتٍ عجزت الإنسانيّة من أنْ تأتي بمثلها، وعقمت النساء أنْ تلدن أمثالهم.

ولا يمكن لأحدٍ أنْ ينال هذه المرتبة من الكمال، ونيل مقام الإبداع إلا من خلال التخصّص، والتفرُّغ، والصبر على مكاره الدنيا، وصعوباتها، فعن الإمام عليٍّ عليه السلام: بالصبر تدرك الرغائب، وعنه عليه السلام: بالصبر تدرك معالي الأمور[٢].

---

(١) تفسير القرطبي- القرطبي ج ١، ص٧٣- ٧٨.

(٢) غرر الحكم:ح ٤٢٢٧، ح ٤٢٧٦.

ولأهمّيّة الإبداع، ونيل معالي الأمور، والارتقاء بالمجتمع الإسلاميّ إلى ذروة الكمال، والسعادة، تجد الشارع الأقدس يطلب من العالم، والشريف، وأمثالهما الترفّع، وعدم الانشغال بالأمور البسيطة، والحقيرة، والسفاسف منها، ويتركها لغيره، وينشغل بالأمور الخطيرة الّتي لا يستطيع أيّ فردٍ من أفراد المجتمع فعلها؛ لما يعود نفعه عليه وعلى مجتمعه؛ ولما في الانشغال بالأمور الحقيرة والمتفرّقة هنا وهناك من تضييعٍ للوقت، والجهد، الّذان هما رأس مال المبدِع والعالم، وإليك بعض الحكم الصادرة من بيت الحكمة والعلم.

عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: **«باشر كبار أمورك، وكِلْ ما شقّ منها إلى غيرك...»**[1].

وعنه عليه السلام في حديثٍ أنّه قال للكميت: **«إنّ الله يحبّ معالي الأمور، ويكره سفاسفها»**[2].

فشمِّر ـ أيّها العزيز ـ عن ذيل الهمّة، فكم نحن بحاجةٍ إلى أصحاب الإبداع والاختراع، نعيد به مجدنا المسلوب، ونخرج بذلك من ذلّ الانقياد إلى الشرق والغرب، ومدّ يد الحاجة إليهم في كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ من شؤون الحياة، حتّى بلغ بنا الأمر إلى أنّ الصين تصنع لنا السجّادة الّتي نصلّي عليها، وقد علّمونا على الخمول،

---

(١) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ١٧، ص٧٢، ح١.

(٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة، الشيخ الحر العاملي ج ٣، ص٣٨٧، ح١. قال الجوهري: السفساف: الردي من كل شيء، والأمر الحقير.

والكسل، فقالوا: لا تفكِّر، نحن نفكِّر عنك! ولا تجهد نفسك، نحن نصنع لك كلّما تريد! وما ذلك إلا لسلب خيراتنا، وبعدها نعيش أسوأ بكثير من الدول الفقيرة، والمسروقة في أفريقيا، لو لم نسعَ إلى تغيير واقعنا.

إنّ العجب هو أنْ نكون شعباً فقيراً ذا همَّة دانيةٍ هو العجب، لا أنْ نكون مجتمعاً ذا تقدّمٍ علميٍّ وفكريٍّ؛ فإنَّ قادتنا أبوا إلا معالي الأمور، مع أنَّهم قد عاشوا في أحلك الظروف، فكانت هممهم مشغولةً بالصعود إلى القمم، والبقاء على قمم المعرفة والعمل، ولا يفكّرون في الهبوط منها، ولا لخطوةٍ واحدةٍ، ولم يعرفوا اليأس، أو التواني، والكسل لبلوغ القمة، لهذا تشرّفت المعاهد والمدارس في الشرق والغرب بمدارسة كتبهم، والاستنارة بعلومهم، وأفكارهم، مع أنَّهم ليسوا على دينهم، أو على خطِّهم.

يُنقل أنَّه دخل ضرار - صاحب أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب عليه السلام - على معاوية بن أبي سفيان بعد وفاته عليه السلام، فقال له معاوية: «يا ضرار، صف لي عليّ بن أبي طالب، وأخلاقه المرضيّة.

قال ضرار: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، ينفجر الإيمان من جوانبه، وتنطق الحكمة من لسانه، يقول حقّاً، ويحكم فصلاً، فأقسم لقد شاهدته ليلةً في محرابه، وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائمٌ يصلّي، قابضاً على لمّته، يتململ تململ السليم، ويأنُّ أنين الحزين، ويقول: يا دنيا، أبي تعرّضت؟! وإليَّ تشوّفت؟! غرِّي غيري، لا حان حينك، أجلك قصير، وعيشك حقير، وقليلك حساب، وكثيرك عقاب، فقد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة لي إليك، آهٍ من بعد الطريق، وقلّة الزاد.

قال معاوية: كان والله أمير المؤمنين كذلك، وكيف حزنك عليه؟

قال: حزن امرأةٍ ذُبح ولدها في حجرها، قال: فلمّا سمع ذلك معاوية بكى، وبكى الحاضرون»[١].

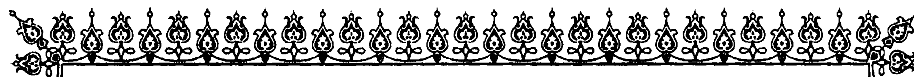
ذكر البديع:

ينقل الشيخ الكفعمي عن العارف الشيخ رجب بن محمّد البُرسيّ: إنَّ البديع: من ذكره ألف مرّة قضيت حاجته[٢].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٣٣، ص ٢٥٠- ٢٥١، ح ٥٢٤. وقد شرح العلامة المجلسي مفردات هذه الرواية، وإليك محلّ الشاهد، قال: المدى: الغاية، أي: كان ذا همةٍ عاليةٍ يتوجه إلى تحصيل معالي الأمور، وما يعسر تحصيله على أكثر الخلق. وما يناسب ما نحن فيه من بيانه.

(٢) المصباح- الشيخ الكفعمي، ص ٤٨١.



الموضوع الرابع عشر:

السَّمِيــع

١- تجلّيات السميع.

٢- العبد والسميع.

٣- ذكر السميع.

السَّمِيع

قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

قال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«السميع: معناه أنّه إذا وُجِدَ المسموع كان له سامعاً، ومعنىً ثانٍ: أنّه سميع الدعاء، أي: مجيب الدعاء»[3].

وقال الغزاليّ:

«السميع: هو الّذي لا يعزب عن إدراكه مسموعٌ وإنْ خفي، فيسمع السرّ والنجوى، ويدرك دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصمّاء، في الليلة الظلماء،

(1) سورة الأنعام: الآية ١٣.

(2) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

(3) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ١٩٧.

ويسمع حمد الحامدين، فيجازيهم، ودعاء الداعين، فيستجيب لهم، ويسمع بغير أصمخةٍ وأذنٍ، كما يفعل بغير جارحةٍ، ويتكلّم بغير لسانٍ، وسمعه منزّه عن أنْ يتطرّق إليه الحدثان.

ومهما نزّهت السمع عن تغييرٍ يعتريه عند حدوث المسموعات، وقدّسته عن أنْ يسمع بأذنٍ، وآلةٍ، وأداةٍ، علمت أنَّ السمع في حقّه عبارةٌ عن صفةٍ يكشف بها كمال صفات المسموعات، ومن لم يدقق نظراً فيه وقع بالضرورة في محض التشبيه، فخذ منه حذرك، ودقق فيه نظرك»[(١)].

تجلّيات السميع:

إنَّ من جملة ما تسالم عليه المسلمون قاطبةً هو أنّ الله تعالى عالمٌ، وأنَّ علمه يحيط بكلّ شيءٍ، فهو يعلم بمن دعاه، وناجاه، وهو سامعٌ لكلّ صوتٍ، يدرك دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصمّاء؛ لما له من الإحاطة التامّة بمخلوقاته، ونصوص الشريعة متواترةٌ في ذلك، كاشفةٌ عن مدى علمه الواسع، هذه بعضٌ منها:

أ- فيما وعظ الله عزّ وجلّ به عيسى عليه السلام:

«يا عيسى، إنَّ الدنيا سجنٌ منتن الريح، وحسن فيها ما قد ترى ممّا قد تذابح عليه الجبّارون، وإيّاك والدنيا؛ فكلّ نعيمها يزول؛ وما نعيمها إلا قليلٌ.

يا عيسى، ابغني عند وسادك[(٢)] تجدني، وادعني وأنت لي محبٌّ؛ فإنّي أسمع

---

(١) المقصد الأسنى- الغزالي، ص ١٤٦- ١٤٧.

(٢) أي: اطلبني، وتقرب بي عندما تتكئ عند وسادك للنوم، بذكري تجدني لك حافظا في نومك،

السامعين؛ أستجيب للداعين إذا دعوني»[١].

نذكر شرح المولى المازندرانيّ لهذا الحديث القدسيّ؛ لما فيه من فوائد جمّةٍ:

«(يا عيسى، ابغني عند وسادك تجدني): إشارةٌ إلى قربه من كلّ أحدٍ، في كلّ زمانٍ، ومكانٍ، أو إلى طلب العبادة في زمان الغفلة، وحثٌّ على ترك النوم، «وادعني وأنت لي محبٌّ»: محبّته تعالى دون غيره من أصول شرايط الدعاء، ومن لوازم تلك المحبّة الانقطاع من الغير إليه، وتعلّق القلب به، والتضرّع بين يديه، وطلب القرب منه، والاعتماد عليه، «فإنّي أسمع السامعين، أستجيب للداعين إذا دعوني»: ترغيبٌ في طلب الخيرات والمرغوبات كلّها منه تعالى، والتيقّن بحصولها؛ لأنّ عدم حصولها إمّا لعدم سماع الدعوة؛ أو لعدم الاستجابة بعده؛ وكلاهما منتفٍ عنه تعالى»[٢].

ب- عن ابن صدقة، عن الصادق عليه السلام قال: «**اشتكى بعض ولد أبي** عليه السلام**، فمرّ به، فقال له: قلْ عشر مرّاتٍ: يا الله، يا الله، يا الله؛ فإنّه لم يقلها أحدٌ من المؤمنين قطّ إلا قال له الربّ تبارك وتعالى: لبّيك عبدي، سل حاجتك**»[٣].

حـ- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مَنْ قال: «**يا ربّ، يا ربّ، حتّى ينقطع النفس، قيل له: لبّيك، ما حاجتك؟**».

مجيبا في تلك الحال أيضا.

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٨، ص ١٣٧.

(٢) شرح أصول الكافي- مولى محمد صالح المازندراني ج ١٢، ص ١٢٥.

(٣) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٩٠، ص ٢٣٣، ح ١.

ورُوِي «مَنْ يقول: عشر مرّاتٍ قيل له: لبّيك، ما حاجتك؟».

د- وعنه عليه السلام قال: «إذا ألحّت به الحاجة يسجد من غير صلاةٍ ولا ركوعٍ، ثمّ يقول: يا أرحم الراحمين، سبع مرّاتٍ، ثمّ يسأل حاجته، ثمّ قال: ما قالها أحدٌ سبع مرّاتٍ إلا قال الله تعالى: ها أنا أرحم الراحمين، سل حاجتك».

هـ- وعنه عليه السلام أنّه قال: «إنّ لله ملكاً يقال له: إسماعيل، ساكنٌ في السماء الدنيا، إذا قال العبد: يا أرحم الراحمين سبع مرّاتٍ، قال إسماعيل: قد سمع الله أرحم الراحمين، سل حاجتك»[١].

العبد والسميع:

يمكن بيان حظّ العبد من هذا الاسم الشريف في جوانب عدَّةٍ، نشير إلى بعضٍ منها:

أ- الاستجابة لدعوة المؤمنين، وقضاء حوائجهم، في كلّ ما أعطيتَ من قوّةٍ وإمكانيّاتٍ، فكما أنَّ الله لم يردّ السائلين، واستجاب دعوتهم بمجرّد دعوتهم إيّاه، فعليك أنْ تقضي حوائج الخلق، وأنْ تشكر الله أنْ جعلك ممّن يجري على يده الخير للناس، وتُقضى حوائجهم؛ لأنّهم كانوا سبباً لاتّصافك بصفةٍ من صفات الله تبارك وتعالى من خلال ذلك، وهي نعمةٌ عظيمةٌ إنْ تأمّلتها، ولا يعرف قدرها إلا المريدون، والعاشقون، والشاكرون، جعلنا الله منهم.

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٩٠، ص ٢٣٤، ح ٥. وكذلك الروايتان السابقتان.

ب- أنْ تكون سميعاً، وسمّاعاً للنصائح، والإرشادات، والمواعظ الّتي تسمعها، فلا تجعلها تمرّ عليك مرور الكرام من دون الاستفادة التامّة والكاملة منها، فإنِّي وجدت الكثير من الأولياء والكمّل كانوا كثيراً ما يستمعون - وبحرصٍ شديدٍ- إلى نصائح أساتذتهم، وشيوخهم، فنالوا من خلال ذلك الكمالات، والمراتب العالية، فاغتنم المواعظ والنصائح الّتي تسمعها من هنا وهناك، فهي من الألطاف والتسديدات الّتي منحك بها الله تعالى من خلال خلقه، فاغتنم الفرصة، ولا تجعلها تمرُّ عليك مرور الكرام، فتكون كمن لا سَمْع له، فتكون ممن يذمّهم الله، ويبغضهم، وهذا لعمري مخالفٌ لطالب مقام الحبّ، والودّ الإلهي.

قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1].

ولكي يتجلّى لك الفرق بين الانقياد لما يسمعه الإنسان من خيرٍ وإيمانٍ وعدم الانقياد لما يسمع، قارن بين الآيات السابقة وهذه الآيات المباركات: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢١- ٢٤.

(١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿...فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[٢].

حـ- أنْ يكون طالب مقام القرب الإلهيّ منشغلاً في ليله ونهاره بطلب القرب والوصال، فيكون لسانه منشغلاً بالدعاء، والمناجاة، وقراءة القرآن الكريم، فإنَّ الله تعالى هو السميع البصير، والعليم بذات الصدور، ويعلم الجهر وما يخفى، فإذا رأى صدق انشغالك وشوقك إلى لقائه، وكان الغالب على قلبك حبّه، وذكره، والوصال إلى ساحة أنسه وبرِّه، هيهات أنْ يخذلك، أو يتركك من دون إجابة دعوتك، وهذا ما أكّدته الآيات والروايات الشريفة الصادرة من أهل العصمة والطهارة، نذكر ثلاثاً منها تبرّكاً:

١- روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**مَنْ تمنّى شيئاً وهو لله رضاً، لم يخرج من الدنيا حتّى يُعطاه**»[٣].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٣- ١٩٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٧- ١٨.

(٣) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج١، ص ٥٤، ح ١٨.

فتمنّى يا صاحبي الوصال، والقرب، واجعل ألمَ الفراق والبُعد شعارك، وتيقّن العطاء الإلهيّ، فإنّه أسمع السامعين، وأكرم الأكرمين.

٢- عن النبيّ ﷺ أنَّ موسى لمّا ناجى ربّه قال: **«يا ربّ، أبعيدٌ أنت منّي فأناديك؟ أم قريبٌ فأناجيك؟ فأوحى الله إليه: أنا جليس من ذكرني»**[1].

فيكفي أنْ تذكره ﷻ، ولو في القلب والسرّ، لترى تجلّي حضور المولى -سبحانه- على القلب، بحيث يهيمن نوره وبهاؤه على ظاهرك، وباطنك، فتكون عن سواه غافلاً ومنصرفاً، وإليه منجذباً منصعقاً.

٣- وفي بعض الأحاديث القدسيّة: **«أيّما عبدٍ اطّلعتُ على قلبه، فرأيتُ الغالب عليه التمسّك بذكري، تولّيت سياسته، وكنتُ جليسه، ومحادثه، وأنيسه»**[2].

ذكر السميع:

نقل الشيخ الكفعميّ عن العارف الشيخ رجب البُرسيّ: **«من أكثر ذكر السميع استجيب له»**[3].

قال صاحب الفيض القدير:

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١، ص٣١١، ح ٤.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٩٠، ص ١٦٢.

(٣) المصباح- الكفعمي، ص ٤٧٨.

«السميع: الّذي انكشف كلّ موجودٍ لصفة سمعه، فكان مدركاً لكلّ مسموعٍ من كلامٍ وغيره، وخاصّيّته إجابة الدعاء، فمن قرأه يوم الخميس بعد صلاة الضحى خمسمائة مرّة كان مجاب الدعاء»(١).

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير- المناوي ج ٢، ص٦٢١.

الموضوع الخامس عشر:

البَصِــــير

١- تجلّيات البصير.

٢- يعلم خائنة الأعين.

٣- موسى والنمّام.

٤- وفاة موسى بن عمران.

٥- العبد والبصير.

أ- إحياء بصيرة القلب.

ب- استشعار الحياء.

٦- المعصومون والحياء.

٧- ذِكرُ البصير.

البَصِـــير

قال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿...إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

قال العلامة الطباطبائيّ رحمه الله:

«البصير: من أسمائه الحسنى، ومعناه: العلم بالمبصرات، فهو من شعب اسم العليم»[3]، «له حقيقة العلم بالمبصرات لذاته، وليس لغيره من ذلك إلا ما ملّكه الله، وأذن فيه، لا لذاته»[4]، «البصير بحوائجهم، والّذي يبصر ما هم فيه من شدّةٍ، أو

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

(٣) تفسير الميزان- العلامة الطباطبائي ج ١، ص٢٢٩.

(٤) تفسير الميزان- العلامة الطباطبائي ج ١٧، ص ٣٢٠: مع تصرف قليل.

رخاءٍ»[١]، «فلا يحجبه شيءٌ عن شيءٍ»[٢].

وقال الغزاليّ:

«**البصير:** هو الّذي يشاهد، ويرى، ولا يعزب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره منزّهٌ عن أن يكون بحدقةٍ وأجفانٍ، مقدّسٌ عن أن يرجع عن انطباع الصور والألوان في ذاته تعالى، كما تنطبع في حدقة الإنسان، وإنّ ذلك من التغيّر، والتأثير، والمقتضى للحدثان، وإذا نزّه عن ذلك كان البصر في حقّه عبارةً عن الصفة الّتي ينكشف بها كمال نعوت المصنوعات».

تجلّيات البصير:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾[٣].

حين يؤمن الإنسان بأنّه في كلّ حركاته وسكناته بين يدي الله، وأنَّ عالم الوجود - من دون استثناءٍ- في محضر الله ﷻ، ولا يخفى عليه شيءٌ من عمل الفرد، بل من نواياه، فإنَّ ذلك سيؤثّر على منهج هذا الإنسان في الحياة تأثيراً عجيباً، فيصدّه عن الانحراف، بقدر ما كان اعتقاده قطعيّاً لا تردّد فيه، وبقدر ما كان إيمانه بذلك مهيمناً على قلبه، جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: «**يا إسحاق، خَفِ الله كأنّك تراه، وإنْ كنت لا تراه، فإنّه يراك، فإنْ كنتَ ترى أنّه لا يراك فقد كفرت،**

---

(١) تفسير الميزان- العلامة الطباطبائي ج ١٧، ص ٣٤٢.

(٢) تفسير الميزان- العلامة الطباطبائي ج ٦، ص ٦٩. الفاء زيادة منا.

(٣) سورة العلق: الآية ١٤.

وإنْ كنت تعلم أنّه يراك ثمّ برزت له بالمعصية، فقد جعلته من أهون الناظرين عليك»[١].

يُقال: إنَّ عارفاً تاب بعد ذنبٍ، وكان بعد ذلك يبكي كثيراً، قيل له: لِمَ هذا البكاء؟ ألا تعلم أنَّ الله تعالى غفورٌ؟!

قال: «بلى، قد يعفو سبحانه، ولكن كيف أبعد عن نفسي الإحساس بالخجل، وقد رآني أذنب؟!»[٢].

وعن أبي جارود، عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ...﴾ : **«فالسرّ والعلانية عنده سواءٌ»**، وقوله: ﴿...وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ...﴾ : **«مستخفٌ في جوف بيته»**.

وقال عليّ بن إبراهيم في قوله: ﴿...وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾: «يعني تحت الأرض، فذلك كلّه عند الله عزّ وجلّ واحدٌ يعلمه»[٣].

يعلم خائنة الأعين:

عن عبد الرحمن بن سلمة الحريريّ قال: **«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن**

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٦٧- ٦٨،ح٢.

(٢) تفسير الأمثل- الشيخ مكارم الشيرازي ج٢٠، ص ٣٠٣، سورة العلق.

(٣) تفسير القمي- علي بن إبراهيم القمي ج ١، ص٣٦٠. والآيات من سورة الرعد: الآية ١٠.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾[١].

فقال: ألم ترَ إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنّه لا ينظر إليه؟! فذلك خائنة الأعين».

وعن الطبرسيّ رَحِمَهُ اللهُ: «خائنة الأعين أي: خيانتها، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه».

وقيل: «تقديره: يعلم الأعين الخائنة».

وقيل: «هو الرمز بالعين».

وقيل: «هو قول الإنسان: ما رأيت. وقد رأى، ورأيت. وما رأى»[٢].

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«سمّيناه بصيراً؛ لأنّه لا يخفى عليه ما يدرك بالأبصار، من لونٍ، أو شخصٍ، أو غير ذلك، ولم نصفه ببصر لحظة العين...»**[٣].

موسى والنمّام:

عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«إنَّ الله أوحى إلى موسى أنَّ بعض أصحابك ينمّ عليك، فاحذره.**

فقال: يا ربّ، لا أعرفه، فأخبرني به حتّى أعرفه.

---

(١) سورة غافر: الآية ١٩.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٤، ص ٨٢، ح٤.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني ج ١، ص ١١٧، ح٧.

فقال: يا موسى، عبتُ عليه النميمة، وتكلّفني أنْ أكون نمّاماً؟!

فقال: يا ربّ، وكيف أصنع؟

قال: يا موسى، فرّق أصحابك عشرةً عشرةً، ثمّ اقرع بينهم، فإنَّ السهم يقع على العشرة الّتي هو فيهم، ثمّ تفرّقهم، وتقرع بينهم، فإنَّ السهم يقع عليه.

قال: فلمّا رأى الرجل أنَّ السهام تقرع، قام، فقال: يا رسول الله، أنا صاحبك، لا والله لا أعود أبداً»[1].

وفاة موسى بن عمران:

عن ابن عمارة، عن أبيه قال: «قلت للصادق جعفر بن محمّدٍ عليه السلام: أخبرني بوفاة موسى بن عمران عليه السلام.

فقال له: إنّه لمّا أتاه أجله، واستوفى مدّته، وانقطع أكله، أتاه ملك الموت، فقال له: السلام عليك يا كليم الله.

فقال موسى: وعليك السلام، مَنْ أنت؟

قال: أنا ملك الموت.

قال: ما الّذي جاء بك؟

قال: جئت لأقبض روحك.

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٢، ص ٣١٠، ح١٣.

فقال له موسى عليه السلام: مِن أين تقبض روحي؟

قال: من فمك.

قال له موسى عليه السلام: كيف وقد كلّمتُ ربّي جل جلاله؟!

قال: فمن يديك.

قال: كيف وقد حملت بهما التوراة؟!

قال: فمِن رجليك.

قال: كيف وقد وطأت بهما طور سيناء؟!

قال: فمِن عينيك.

قال: كيف ولم تزل إلى ربي بالرجاء ممدودةً؟!

قال: فمِن أذنيك.

قال: وكيف، وقد سمعت بهما كلام ربي عز وجل؟!

قال: فأوحى الله عز وجل إلى ملك الموت: لا تقبض روحه حتّى يكون هو الّذي يريد ذلك، وخرج ملك الموت، فمكث موسى ما شاء الله أنْ يمكث بعد ذلك، ودعا يوشع بن نون، فأوصى إليه، وأمره بكتمان أمره، وبأنْ يوصي بعده إلى من يقوم بالأمر، وغاب موسى عليه السلام عن قومه، فمرّ في غيبته برجلٍ وهو يحفر قبراً، فقال له: ألا أعينك على حفر هذا القبر؟

فقال له الرجل: بلى، فأعانه، حتّى حفر القبر، وسوّى اللحد، ثمّ اضطجع فيه

موسى بن عمران عليه السلام؛ لينظر كيف هو، فكشف له عن الغطاء، فرأى مكانه من الجنّة، فقال: يا ربّ، اقبضني إليك.

فقبض ملك الموت روحه مكانه، ودفنه في القبر، وسوّى عليه التراب، وكان الّذي يحفر القبر في صورة آدميٍّ، وكان ذلك في التيه، فصاح صائحٌ من السماء: مات موسى كليم الله، فأيّ نفس لا تموت؟!»[1].

العبد والبصير:

يمكن بيان عدّة جهات كمالٍ في هذا الاسم الشريف، يمكن للعبد أنْ يتحلّى ويتخلّق بها، فيحظى بالقرب والودّ الإلهيّ، وهي:

أ- إحياء بصيرة القلب:

حينما يستيقن العبد - أو يطمئن - بأنَّ الله تعالى يراه، ويشاهده، بل يعلم سريرته كما يعلم علانيته، عليه أنْ يلقّن قلبه هذه الحقيقة، ولا يغفل عنها ولا لحظةً في حياته، وتكون عباداته، وحركاته، وسكناته على هذا الأساس، كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام لإسحاق بن عمار:

«يا إسحاق، خَفِ الله كأنّك تراه، وإن كنت لا تراه فإنّه يراك، وإنْ كنت ترى أنّه لا يراك فقد كفرت، وإنْ كنت تعلم أنّه يراك، ثمّ برزت له بالمعصية، فقد جعلته من أهون الناظرين عليك»[2].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٣، ص ٣٦٥، ح ٨.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٥، ص ٢٢٠ ح ٦.

فمتى ما تيقَّن القلب – واطمئنّ- إلى هذه الحقيقة، تجده لا يخالف أمر الله وحكمه طرفة عينٍ أبداً، وهذا أحد أبرز صفات أهل الله والأولياء.

الراعي المؤمن:

يُنقل أنّه «مرّ عبد الله بن عمر براعي غنم، فقال: يا راعي الغنم، هل من جزرةٍ؟

قال الراعي: ليس ههنا ربّها.

فقال ابن عمر: تقول أكلها الذئب.

فرفع الراعي رأسه إلى السماء، ثمّ قال: فأين الله؟!

فتأثَّر من إيمان هذا الراعي المؤمن الّذي يعيش حضور الله تعالى – ومعيّته له- في كل شؤون الحياة.

فقال ابن عمر: فأنا والله أحقّ أنْ أقول: فأين الله؟!

فذهب إلى مولى ذلك العبد، واشترى منه العبد، وأعتقه، واشترى له ذلك القطيع»[1].

ممّا يحيي البصيرة:

أحد أهم العوامل الّتي لها الدور الفاعل في فتح بصيرة القلب، ويرى ما لم يكن قد رآه من قبل، ويكون مرضيّاً عند الله تعالى، ومحبوباً عند ملائكته، هو العمل على وفق مرضات الله جَلَّ وَعَلَا في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، فيكون للأوامر ممتثلاً،

(١) المعجم الكبير- الطبراني ج١٢، ص ٢٠٤.

وللمستحبّات مسارعاً، وعن النواهي منزجراً، وعن المكروهات متنفّراً، فينال بذلك ما اختصّ الله تعالى لأوليائه، وكرام بريّته، كما ورد في الحديث القدسيّ:

«يا أحمد، فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصالٍ، أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبّةً لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين.

فإذا أحبّني أحببته، وحبّبته، وأفتح عين قلبه إلى نور جلالي، فلا أخفي عليه خاصّة خلقي، وأناجيه في ظلم الليل، ونور النهار، حتّى ينقطع حديثه مع المخلوقين، ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي، وكلام ملائكتي، وأعرفه السرَّ الّذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء، حتّى يستحي منه الخلق، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً، وبصيراً، ولا أخفي عليه شيئاً من جنّةٍ ولا نارٍ، وأعرفه ما يمرّ على الناس يوم القيامة من الهول والشدّة، وما أحاسب به الأغنياء، والفقراء، والجهّال، والعلماء، وأنوّمه في قبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حين يسألان، ولا يرى غمّ الموت، وظلمة القبر واللحد، وهول المطّلع، ثمّ أنصب له ميزانه، وأنشر له ديوانه، وأضع كتابه في يمينه، فيقرؤه منشوراً، ثمّ لا أجعل بيني وبينه ترجمان، وهذه صفات المحبّين»[١].

ب- استشعار الحياء:

ممّا يساعد الإنسان للعمل بما يحبّ الله تعالى ويرضاه، هو استشعاره الحياء من الله تعالى، فنعمة الحياء من النعم الإلهيّة الّتي فطر الناس عليها؛ إذ هو من قبيل حبّ

---

(١) الجواهر السنية- الشيخ الحر العاملي، ص ١٩٩- ٢٠٠.

الكمال، وجلب الخير، ودفع السوء عن الذات، وغير ذلك، فالاهتمام إلى هذه المنحة الإلهيّة لها الدور البليغ في نيل الكثير من الخيرات، ومنها ما نحن بصدده.

وما أكثر ما يمنع الحياء من الفواحش، والذنوب، ولذلك قال ﷺ: «**الحياء من الإيمان، الحياء خيرٌ كلّه، الحياء لا يأتي إلا بالخير، فإنَّ الرجل إذا كان حييّاً لم يرخص حياؤه من الخلق في شيءٍ من الفواحش، فضلاً عن الحياء من الله**»(١).

وليكن لسان حالك في كلّ حالٍ مخاطباً نفسك الأمّارة:

«ويلي، كلّما طال عمري كثرت خطاياي، ولم أتب، أما آن لي أن أستحي من ربّي؟!»(٢).

المعصومون والحياء:

ولنا في أهل العصمة والطهارة عبرةٌ ودرسٌ؛ فهم - مع أنّهم معصومون، مبرّؤون من الذنوب، والمعاصي، والأرجاس- تجدهم أكثر الناس تضرّعاً، وخشيةً، وحياءً من الله تبارك وتعالى؛ لما يرون من عظيم نعم الله عليهم، فهم مع كلّ الطاعات والتقرّبات يجدون أنفسهم مقصّرين في أداء حقّ الله تعالى، فيستغفرون من هذا التقصير، ولعلّهم يستحون من أفعالهم؛ لأنّها لا تناسب مقام فاطر السماوات والأرض.

وإنْ تركوا الأولى في آنٍ من آنات حياتهم تجدهم في البكاء الدائم، والاعتذار، والندم، والحياء، مع أنَّ ترك الأولى ليس بمعصيةٍ.

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٦٨، ص ٣٢٩،ح١. من أدعية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب ج ٣، ص٢٩١.

يُنقل عن الأصمعيّ أنّه قال: «كنتُ أطوف حول الكعبة ليلةً، فإذا شابٌّ ظريف الشمائل، وعليه ذؤابتان، وهو متعلّقٌ بأستار الكعبة، ويقول: نامت العيون، وعلت النجوم، وأنت الملك، الحيّ، القيّوم، غلّقت الملوك أبوابها، وأقامت عليها حرّاسها، وبابك مفتوحٌ للسائلين، جئتُك؛ لتنظر إليّ برحمتك، يا أرحم الراحمين.

ثمّ أنشأ يقول:

يا من يجيب دعا المضطرّ في الظلم
يا كاشف الضرّ والبلوى مع السقم

قد نام وفدك حول البيت قاطبةً
وأنت وحدك يا قيّوم لم تنم

أدعوك ربّ دعاءً قد أمرت به
فارحم بكائي بحقّ البيت والحرم

إن كان عفوك لا يرجوه ذو سرفٍ
فمن يجود على العاصين بالنعم؟!

قال الأصمعيّ: فاقتفيته، فإذا هو زين العابدين عليه السلام».

ويُنقل عن طاووس الفقيه: «**رأيته - أي زين العابدين عليه السلام - يطوف من العشاء إلى السحر، ويتعبّد، فلمّا لم يَرَ أحداً رمق السماء بطرفه، وقال:**

إلهي، غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتّحاتٌ للسائلين، جئتك؛ لتغفر لي؛ وترحمني؛ وتريني وجه جدّي محمّدٍ في عرصات القيامة، ثمّ بكى،

وقال:

وعزّتك، وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاكٌّ، ولا بنكالك جاهلٌ، ولا لعقوبتك متعرّضٌ، ولكن سوّلت لي نفسي، وأعانني على ذلك سترك المرخى به عليَّ، فأنا الآن من عذابك مَنْ يستنقذني؟! وبحبل مَنْ أعتصم إنْ قطعتَ حبلك عنّي؟! فوا سوأتاه غداً مِنَ الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخفّين جوزوا، وللمثقلين حطّوا، أمع المخفّين أجوز؟ أم مع المثقلين أحطّ؟

ويلي، كلّما طال عمري كثرت خطاياي، ولم أتب، أما آن لي أن أستحي من ربّي؟!

ثمّ بكى.

ثم أنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثمّ أين محبتّي؟!

أتيت بأعمال قباح رديـّة ... وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثمّ بكى، وقال:

سبحانك، تُعصى كأنّك لا ترى، وتحلم كأنّك لم تُعصَ، تتودّد إلى خلقك بحسن الصنيع، كأنّ بك الحاجة إليهم، وأنت - يا سيّدي - الغنيّ عنهم.

ثمّ خرّ إلى الأرض ساجداً، فدنوت منه، وشلت رأسه، ووضعته على ركبتي، وبكيت حتّى جرت دموعي على خدّه، فاستوى جالساً.

وقال: مَنْ ذا الذي أشغلني عن ذكر ربّي؟!

فقلت: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟! ونحن يلزمنا أنْ نفعل مثل هذا، ونحن عاصون، جافون، أبوك الحسين بن عليّ، وأمّك فاطمة الزهراء، وجدّك رسول الله.

قال: والتفت إليّ، وقال: هيهات، هيهات، يا طاووس، دع عنّي حديث أبي، وأمّي، وجدّي، خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن ولو كان حبشيّاً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشياً، أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾[1]؟! والله لا ينفعك غداً إلا تقدمةً تقدّمها من عملٍ صالحٍ»[2].

ذكر البصير:

جاء في المصباح نقلاً الشيخ العارف رجب البُرسيّ: «البصير: مَنْ أكثر ذكره في الجُمُعات خُصّ منه تعالى بالعناية والرعاية»[3].

وقال المناويّ: «البصير: المدرك لكلّ موجودٍ برؤيته، وخاصّيّة وجود التوفيق، فمن قرأه قبل صلاة الجُمُعة مائة مرّة فتح الله عين بصيرته، ووفّقه لصالح القول، والعمل»[4].

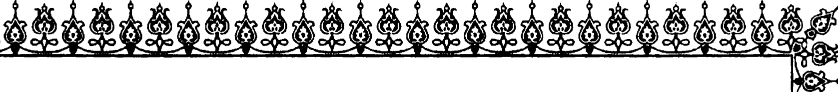
---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.

(٢) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب ج ٣، ص٢٩٠- ٢٩٢.

(٣) المصباح- الكفعمي، ص ٤٧٨.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير- المناوي ج ٢، ص٦٢١.



الموضوع السادس عشر:

اللَّطِيف

١- لِمَ سمّيناه لطيفاً؟

٢- تجلّيات اللطيف.

٣- النحل ولطف الباري.

٤- السمك من آيات لطفه تعالى.

٥- لطف الله على العباد.

٦- العبد واللطيف.

٧- الرفق بعباد الله تعالى.

٨- ذكر اللطيف.

اللَّطِيف

قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[2].

قال الغزاليّ:

«**اللَّطيف:** إنَّما يستحقّ هذا الاسم مَن يعلم دقائق المصالح، وغوامضها، وما دقّ منها، وما لطف، ثمّ يسلك في إيصالها إلى المستحقّ سبيل الرفق دون العنف.

فإذا اجتمع الرفق في الفعل، واللطف في العلم، تمَّ معنى اللطف، ولا يتصوّر كمال ذلك إلا لله تعالى.

فأمّا إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك، بل الخفيّ مكشوفٌ في علمه كالجليّ من غير فرقٍ.

وأمّا رفقه في الأفعال ولطفه فيها، فلا يدخل أيضاً تحت الحصر؛ إذ لا يعرف

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٩.

اللطف في الفعل إلاّ مَن عرف تفاصيل أفعاله، وعرف دقائق الرفق فيها، وبقدر اتّساع المعرفة فيها تتّسع المعرفة بمعنى اسم اللطيف»[١].

لِمَ سُمّي اللطيف؟

وقد وردت الروايات في شرح معنى هذا الاسم، ومنشأ تسمية الباري به، منها الرواية المرويّة عن الإمام الجواد عليه السلام حينما طلب منه السائل أنْ يشرح له معنى اللطيف، فقال: «**إنّما سمّيناه لطيفاً للخلق اللطيف؛ ولعلمه بالشيء اللطيف ممّا خلق من البعوض والذرّة[٢]، ومما هو أصغر منهما، لا يكاد تدركه الأبصار والعقول؛ لصغر خلقه من عينه؛ وسمعه؛ وصورته، لا يعرف من ذلك؛ لصغره الذكر من الأنثى، ولا الحديث المولود من القديم الوالد[٣]، فلما رأينا لطف ذلك في صغره، وموضع العقل فيه، والشهوة للسفاد، والهرب من الموت، والحدب[٤] على نسله من ولده، ومعرفة بعضها بعضاً، وما كان منها في لجج البحار، وأعنان السماء، والمفاوز، والقفار، وما هو معنا في منزلنا، ويفهم بعضهم بعضاً من منطقهم، وما يفهم من أولادها، ونقلها الطعام**

---

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى - الغزالي، ص ١٦٤- ١٦٥.

(٢) الذر: صغار النمل.

(٣) هذا تنبيه منه عليه السلام على وجود الحيوانات الحية والميكروبات المخفية عن الأنظار والعقول، قبل وجود المكبرات واختراع الميكروسكوب والمنظار بقرون، وغير خفي أن العلم بذلك في أحد عشر قرناً قبل زماننا لم يك يحصل إلا لذوي النفوس الكاملة والأنظار الثاقبة، الذين خصهم الله من بريته بفضله، وأيدهم بحكمته، وانتجبهم لولايته من بين خلقه، وعلمهم ما لا يعلم غيرهم من عبيده. من المصدر.

(٤) الحدب: العطف والحنان.

إليها، والماء، علمنا أنَّ خالقها لطيفٌ، وأنَّه لطيفٌ بخلق اللطيف»[١].

تجلّيات اللطيف:

إنَّ لمحةً خاطفةً في عالمي التكوين والتدبير يتجلّى لنا - بكل وضوحٍ- مدى علمه – سبحانه – الواسع، والدقيق بمصالح الخليقة، حيث لم يترك موجوداً من الموجودات إلا وقد أحاطه بجميع مستلزمات الحياة المناسبة له، والّتي تهديه إلى كماله المنشود، والمطلوب منه بكلّ عنايةٍ، ورعايةٍ، ورفقٍ.

وهو المهيِّئ لرعيّته سُبل الارتقاء والسعادة من حيث لا يشعرون، فكان بحقٍّ هو اللطيف الخبير دون غيره، على نحو الحقيقة والصدق.

ولكي تتجلَّى لنا حقيقة لطفه ونستشعرها أكثر ممّا مضى نشير إلى جانبٍ يسيرٍ منها:

النحل ولطف الباري:

«انظر[٢] **إلى النحل، واحتشاده في صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدّسة، وما ترى في ذلك من دقائق الفطنة، فإنَّك إذا تأمّلت العمل رأيته عجيباً لطيفاً، وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس، وإذا رجعت إلى الفاعل ألفيته غبيّاً،**

---

(١) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ٣، ح ١٩٥.

(٢) الخطاب من الإمام الصادق عليه السلام لمفضل بن عمر.

جاهلاً بنفسه[١]، فضلاً عمّا سوى ذلك، ففي هذا أوضح الدلالة على أنَّ الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل، بل هي للّذي طبَّعه عليها، وسخَّره فيها لمصلحة الناس»[٢].

السَّمَك من آيات اللطف:

«تأمَّل خلق السمك، ومشاكلته للأمر الّذي قدر أنْ يكون عليه، فإنَّه خلق غير ذي قوائم؛ لأنَّه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء، وخلق غير ذي رية؛ لأنَّه لا يستطيع أنْ يتنفّس وهو منغمسٌ في اللجّة، وجُعلت له مكان القوائم أجنحةً شدادٌ، يضرب بها في جانبيه كما يضرب الملاح بالمجاديف من جانبي السفينة، وكسا جسمه قشوراً متاناً متداخلةً كتداخل الدروع والجواشن[٣]؛ لتقيه من الآفات، فأعين بفضل حسٍّ في الشم؛ لأنّ بصره ضعيفٌ؛ والماء يحجبه؛ فصار يشمُّ الطعم من البعد البعيد؛ فينتجعه[٤]؛ فيتّبعه، وإلا فكيف يعلم به وبموضعه؟!

---

(١) أي: ليس له عقل يتصرف في سائر الأشياء على نحو تصرفه في ذلك الأمر المخصوص، فظهر أن خصوص هذا الأمر إلهام من مدبر حكيم، أو خلقة وطبيعة جبله عليها في شأن مصلحته الخاصة، مع كون هذا الحيوان غافلاً عن المصلحة أيضاً، ولعل هذا يؤيد ما يقال إن الحيوانات العجم غير مدركة للكليات. (من تعليقات البحار).

ملاحظة: هذا الهامش - وما يأتي - منقول من المصدر. أي: التوحيد، المفضل بن عمر الجعفي.

(٢) التوحيد- المفضل بن عمر الجعفي، ص ٧٤.

(٣) الجواشن: جمع جوشن، وهو الدرع أو الصدر.

(٤) ينتجع: يطلب الكلأ في موضعه.

واعلم أنَّ من فيه إلى صماخه[1] منافذ، فهو يعبّ الماء بفيه، ويرسله من صماخيه، فيتروّح إلى ذلك كما يتروّح غيره من الحيوان، إلى أن تنسّم هذا النسيم.

فكّر الآن في كثرة نسله، وما خصّ به من ذلك، فإنَّك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرةً؛ والعلّة في ذلك أنْ يتّسع لما يتغذّى به من أصناف الحيوان، فإنَّ أكثرها يأكل السمك، حتّى أنَّ السباع أيضاً في حافات الآجام[2] عاكفةٌ على الماء أيضاً؛ كي ترصد السمك، فإذا مرَّ بها خطفته، فلمّا كانت السباع تأكل السمك، والطير يأكل السمك، والناس يأكلون السمك، والسمك يأكل السمك، كان من التدبير فيه أنْ يكون على ما هو عليه من الكثرة، وأشباه هذا ممّا يقف الناس عليه حالاً بعد حالٍ، وزماناً بعد زمانٍ»[3].

لطف الله على العباد:

إنَّ آيات لطفه – تعالى – لا تحتاج إلى بيانٍ، بل من المعيب جدّاً أنْ نشير إلى دلائل لطفه على العباد، وكأنَّها خافيةٌ على العباد غير ظاهرةٍ، وتحتاج في إثباتها إلى دليلٍ وبرهانٍ، في حين أنَّهم منذ أنْ وطأت أقدامهم هذه الأرض – بل وقبل ذلك في عالم الذرّ والرحم – يتنعّمون، وغارقون في جود لطفه ﷻ.

أليس بلطفه وكرمه ستر قبائح فعالنا عن أقرب الناس إلينا؟! فلو انكشف هم

---

(١) الصماخ – بالكسر –: خرق الأذن الباطن الماضي إلى الرأس، والجمع صمخ، وأصمخة.

(٢) الآجام: جمع الجمع للأجمة: الشجر الكثير الملتف.

(٣) التوحيد – المفضل بن عمر الجعفي، ص٧٦.

ما هو منكشفٌ للمولى – سبحانه– من تلك المعاصي، والذنوب، وخبث سرائرنا، لما رأيت هذا الاحترام والإجلال في قلوبهم، بل لرأيت الهوان، وعدم الاحترام، والبراءة منّا، ولعلك تسمع في بعض الآونة ما ينكشف من عورات الآخرين، والّتي لو انكشف مِن خبائثك واحدةٌ لما كان ليلك ليلاً، ولا نهارك نهاراً، فتعرف من خلالها عظمة النعمة الّتي أنت غارقٌ فيها، حيث نالك من لطف الله الكثير، بأنْ أظهر الجميل من فعالك، وستر القبيح منها، وكم مِن ثناءٍ جميلٍ لستَ أهلاً له قد نشره اللطيف الخبير لك.

«اللهم مولاي، كم من قبيحٍ سترته؟! وكم من فادحٍ من البلاءِ أقلته؟! وكم من عثارٍ وقيته؟! وكم من مكروهٍ دفعته؟! وكم من ثناءٍ جميلٍ لستُ أهلاً له نشرته؟!

اللهم عظم بلائي، وأفرط بي سوء حالي، وقصرت بي أعمالي، وقعدت بي أغلالي، وحبسني عن نفعي بعد أملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بجنايتها، ومطالي، يا سيدي، فأسألك بعزّتك أنْ لا يحجب عنك دعائي، سوء عملي وفعالي، ولا تفضحني بخفيّ ما اطّلعت عليه من سرّي، ولا تعاجلني بالعقوبة على ما عملته في خلواتي، من سوء فعلي، وإساءتي، ودوام تفريطي، وجهالتي، وكثرة شهواتي، وغفلتي، وكن اللهم بعزّتك لي في كلّ الأحوال رؤوفاً، وعليّ في جميع الأمور عطوفاً، إلهي، وربّي، من لي غيرك، أسأله كشف ضرّي، والنظر في أمري؟!»[1].

فهل تجد مولىً أعظم لطفاً، ورحمةً، وعطفاً منه عليك؟! هيهات.

---

(١) فقرات من دعاء كميل.

العبد واللطيف:

إنَّ للعبد حظوظٌ متعدّدةٌ من هذا الاسم العظيم، وجوانب عدّة للارتقاء إلى مراتب الكمال، والسموّ، والّتي منها استشعار اللطف الإلهيّ الدائم عليه، وعلى البريّة جميعاً، ولاسيّما في حالة الصلاة الّتي هي معراج المؤمن، الّتي يكون للإنسان مع ربّه حالات الخلوة، والتفرّد به، فيُقبِل الله – تعالى – عليه بوجهه الكريم، آخذاً بيد عبده إلى ما لا تدرك كنهه عقول مَنْ اشتغلوا بالحُطام، ويعرف حقيقة ذلك الأوحديّ مِن الأنام، وقليلٌ ما هم، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

وقد أشار العالم العارف الشيخ محمد أمين زين الدين رحمه الله إلى جانبٍ من جوانب استشعار اللطف الإلهيّ، إليك نصّه:

«إنَّ العبد إذا آمن بالله عزّ وجلّ حقّ الإيمان، واستيقن بإحاطته الشاملة المطلقة بجميع الموجودات، والمكوّنات حقّ اليقين، وعلم حقّ العلم أنَّ جميع الأشياء قائمةٌ به سبحانه، وخاضعةٌ لأمره، ومسلّمةٌ وجوهها إليه، ومسبّحةٌ بحمده، وأنَّ كلّ ما ينالها من تكاملٍ، وتطوّرٍ، وارتقاءٍ، فهو نتاجٌ لخضوعها لربّها، وإسلامها لأمره، واتّباعها السبيل الّذي يسّره لها، ووجّهها إليه بتقديره، وتدبيره.

إنَّ البذرة الصغيرة لا يمكن لها – مطلقاً – أنْ تصبح شجرةً كبيرةً يانعةً، تؤتي أكلها، وتنتج ثمرها، ما لم تسلم وجهها لمكوّنها، ومبدعها العظيم، فتسلك السبيل الّذي يسّره، والنظام الّذي قدّره.

وإنَّ النطفة الحقيرة لا يمكن لها أنْ ترتقي فتعود حيواناً كبيراً، له منافعه،

وفرائده في الحياة، ما لم تخضع لبارئها، فتتّبع ما أمرها به من أمرٍ، وتسير على ما نهج لها من نظام.

وإنَّ السماوات، والأرض، وما فيهما، وما بينهما لا يمكن لها أنْ تصل إلى هذه الغاية من الإحكام والإتقان، ما لم تخضع للإله الّذي صنع كلّ شيءٍ فيها فأحسن، وصوّر فأتقن، وقدّر فأحكم، وربط الغايات فيها بالمبادئ والمسبّبات بالأسباب.

وإنَّ الحويمن المنويّ الضعيف النحيف، لا يمكن له أنْ يصبح إنساناً سويّاً كاملاً، تسخّر له جميع ما في السماوات والأرض، إلا إذا اتّبع الهدى الّذي وجّهه إليه ربّه، وسار على نهجه طائعاً خاضعاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(١).

إنَّ العبد إذا آمن بجميع ذلك حقّ الإيمان، وقد مهّد له العلم الحديث أنْ يؤمن، وألزمه الفكر الواعي الحصيف أنْ يعترف، ثمّ نظر في نفسه، ورأى عناية الله به خاصّةً، الّتي شملته قبل تكوينه، وبعد وجوده، والّتي لا ينقطع عنه مددها، ولا ينقص عطاؤها، ولا يخرج عن إحاطتها به طرفة عينٍ، ولو قدّر له أنْ يخرج عن حياطتها، أو ينتهي عنه عطاؤها، لما كان شيئاً مذكوراً.

ثمّ نظر في الصلاة نفسها، فوجدها أحد مظاهر عناية الله به، وكبرى المناهج الّتي أعدها له؛ ليتكامل بها؛ ويرتقي؛ ويؤدّي بها حقّ العبوديّة؛ ويستمدّ بسببها من

---

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

لطف الله، ومن فضله، ومدده، ونوره، ما يرتفع به إلى مصافّ الأولياء الكاملين الواصلين.

وأي لطفٍ أعظم من أنْ يأذن الإله العظيم - الّذي لا منتهى لعظمته، ولا منتهى لجلاله، وكبريائه، ولا منتهى لغناه - لعبده الضعيف الّذي لا حدّ لضعفه، في أنْ يقف بين يديه، ويناجيه، ويدعوه، ويبثّه شكواه، ونجواه، وينزل به رجاءه، وحوائجه، ومهمّاته، وهو يسمع له، ويستجيب، ويكشف ضرّه، ويزيده من الهدى، ويزيده من العطاء، ويزيده من النور والصفاء.

إنَّ العبد إذا آمن بجميع هذه الحقائق حقّ الإيمان، واستشعرها في فكره، وفي قلبه، وفي مشاعره حقّ الاستشعار - وكلّ هذه الحقائق جليّةٌ لا ريب فيها- ، تهيّأ له حضور القلب في صلاته، وعباداته، وبلغ الغاية الّتي يريدها من عبادته، والّتي أرادها الله له حين قدّره، وصوّره، وهداه، ويسّر له السبيل.

فيكون في وقوفه في صلاته بين حالين، رغبةٍ في التقدّم؛ ليستزيد من عطاء ربّه، وخوفٍ من التأخّر بالخذلان والحرمان منه، وفي حديث الإمام جعفر بن محمّدٍ عليه السلام: **«لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلبٍ إلا وجبت له الجنّة، فإذا صلّيت فأقبل بقلبك على الله عزّ وجلّ؛ فإنّه ليس من عبدٍ مؤمنٍ يقبل بقلبه على الله عزّ وجلّ ودعائه، إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين، وأيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنّة»**[١][٢].

---

(١) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج٥، ص ٤٧٧، ح ٣.

(٢) كلمة التقوى- الشيخ محمد أمين زين الدين ج ١، ص ٣٧٨- ٣٧٩.

الرِّفق بعباد الله تعالى:

يقول الغزاليّ في المقام: «وحظّ العبد من هذا الوصف: الرفق بعباد الله تعالى، والتلطُّف بهم في الدعوة إلى الله، وإلى سعادة الآخرة، من غير ازدراءٍ وعنفٍ، ومن غير خصامٍ وتعصّبٍ»(١).

«وأحسن وجوه اللطف فيه: الجذب إلى قبول الحقّ بالشمائل، والسيرة المرضية، والأعمال الصالحة؛ فإنَّها أوقع، وألطف من الألفاظ المزيَّنة»(٢).

الرفق من معالي الأخلاق الّتي من تزيّن بها فقد نال خير الدنيا والآخرة، وأوتي من الخير الكثير، وهو من أبرز صفات الأنبياء عليهم السلام، بل من أجلى صفات الله تعالى، وأفعاله، وقد حثّنا على التخلّق بسمة الرفق، كما في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام: **«إنّ الله عزّ وجلّ رفيقٌ، يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»**(٣)، وفي حديثٍ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّ الله رفيقٌ، يحبّ الرفق في الأمر كلّه»**(٤).

فيظهر من هذا الخطاب النبويّ الشريف أنَّ الحكم الأوّلي للشريعة السمحاء في تبليغ الإسلام، والتعامل مع الناس بمختلف شرائعهم، ومللهم، هو الرفق، واللين، والرحمة، حتّى مع فرعون - الّذي ادّعى الربوبيّة لنفسه، وطغى في الأرض فساداً -

---

(١) المقصد الأسنى- الغزالي، ص ١٦٧.

(٢) المقصد الأسنى- الغزالي، ص ١٦٧.

(٣) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ٤، ص ١٥٨، باب الرفق.

(٤) المصدر السابق، ص ١٥٩.

فقال اللطيف جلّ وعلا: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1]، فأشار – سبحانه – أنَّ في اللين مِن التأثير والخير الكثير ما لا تجده في غيره من العنف، والشدّة، والغلظة.

فإذا كان تأكيد الشارع الأقدس على اللين في التعامل مع الكافر المعاند، فمِن بابٍ أولى أنْ يكون هناك حثٌّ على اللين، والرفق بالأخيار، والمؤمنين، لذا تقرأ في الذكر الحكيم قول اللطيف الخبير: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

كما يتجلَّى تأكّد المعروف، والرفق بالأهل والعيال – لاسيّما الوالدين، اللذَين ما فتئا من السعي الحثيث والجادّ لتربية الأبناء، والذراري – ؛ إذ الأقربون أولى بالمعروف، وأجلَّى المعروف الرفق، والبرّ، لذا جاء الخطاب من العزيز اللطيف: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾[3].

وفي الحديث الشريف: **«إذا أراد الله بأهل بيتٍ خيراً أدخل عليهم باب الرفق»**[4].

ومَنْ أمر بالرفق بالكافر المعاند، وحثّ على خفض الجناح للمؤمنين، واهتمّ

---

(١) سورة طه: الآيتان ٤٣،٤٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٨.

(٣) سورة الإسراء: الآيتان ٢٣،٢٤.

(٤) ميزان الحكمة – الشيخ محمد الري الشهري ج ٤: ١٥٨، باب الرفق.

بالأهل، والأبوين، وأمر باللطف بهم، والإحسان لهم ما أمكن، فكيف ينسى أنْ يأمر الإنسان بالرفق بذاته؟! لذا أمره بالرفق بنفسه، وعدم إيقاعها في المهالك، والموبقات، قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

فالطُفْ بنفسك أيّها العزيز؛ فإنَّها لم تخلق للنار والعذاب، بل للجنّة الواسعة الّتي عرضها السماوات والأرض، فطوبى للعاملين، ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[2].

ذكر اللطيف:

ينقل الشيخ الكفعميّ عن العارف البُرسيّ: «اللطيف: ما أسرعه لتفريج الكروب إذا ذكر في أوقات الشدائد».

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١٣٣– ١٣٦.



الموضوع السابع عشر:

العَــليّ

١- تجلّيات العليّ.

٢- العبد والعليّ.

أ- الترفّع والتنزّه عن سمات أهل الدنيا.

ب- الارتقاء إلى سمات أهل الكمال.

٣- أبو ذرّ وسلمان.

٤- سلمان يكلّم الموتى.

٥- عليٌّ وفضائل أصحابه.

٦- ذِكرُ العليّ.

العَليّ

قال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1].

وقال العليّ العظيم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[2].

قال الغزاليّ:

«**العليُّ**: هو الّذي لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطّةٌ عنه؛ وذلك لأنَّ العليّ مشتقٌّ من العلوّ، والعلوّ مأخوذٌ من العلوّ المقابل للسُّفل، وذلك إمّا في درجاتٍ محسوسةٍ كالدرج، والمراقي، وجميع الأجسام الموضوع بعضها فوق بعضٍ، وإمّا في الرتب المعقولة للموجودات المترتّبة نوعاً من الترتيب العقليّ.

فكلّ ما له الفوقيّة في المكان فله العلوّ المكانيّ، وكلّ ما له الفوقيّة من الرتبة فله

---

(١) سورة الشورى: الآية ٤.

(٢) سورة لقمان: الآية ٣٠.

العلوّ في الرتبة..»[١].

أقول: لن تجد لهذا الاسم الشريف مصداقاً حقيقيّاً إلاّ الله تعالى، فهو وحده الّذي أنشأ الخلق بعد العدم، وهو الّذي وهبهم نعمة الوجود، ومنحهم شرف التحقّق بعد أنْ كانوا في عالم العدم، واللاشيئيّة المحضة، وهذا ما أقرَّته فطرة البشر، حتّى مع انحراف عقائدهم، واختلاف أديانهم، إلاّ القليل القليل منهم، فحتّى المشرك - الّذي يعبد الصنم، ويتقرّب إليه- يؤمن أنَّ الأصنام لم تخلق السموات والأرض، فهو لم يشرك في الخالقيّة، وإنَّما كان شركه في الربوبيَّة؛ حيث يرى أنّ للصنم نحو تأثيرٍ. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

ومِن البديهيّ أنَّ من كان له أمر الخلق والإيجاد للموجودات من العدم واللاشيئيّة المحضة، كان له ملكيّتها؛ إذ أنَّها مِن جرّاء فيضه وصنعه، وقد أشار - سبحانه - إلى هذا بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[٣].

إنَّ المخلوقات جميعاً - وفي جميع عوالمها، ونشآتها - لمفتقرةٌ لفيض الباري جلّ وعلا في أصل وجودها، واستمرار بقائها، ولا يمكن لها أن تستغني عنه في أيّ شأنٍ من شؤونها، وذلك يكشف مدى ضعف وحقارة هذه الموجودات، وأنّها ـ في ذواتها ـ

---

(١) المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى- الغزالي، ص ١٧٢.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٥.

(٣) سورة الشورى: الآية ٤.

باطلةٌ وزائلةٌ، وليس لها من شيءٍ إلا ما وهبها إيّاها سيّدها، ووليّ نعمتها، فهو العليّ المتفضِّل عليها جميعاً، وهو الّذي لا يعتريه النقص والعدم في جهةٍ من جهات الوجود، أمّا هي فإنّ نداء ضعفها لا يفتر، وضجيج حاجتها إلى الله ﷻ مستمرٌّ، تطلب الفيض بعد الفيض، والمدد بعد المدد من باريها جلّ وعلا، وهذا ما يوضّح ـ بعضَ توضيحٍ ـ شيئاً من مدى علوّ رتبة الخالق على المخلوق، ولعلَّ في قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[1] إشارةً إلى هذه الحقيقة، وإنَّ مرتبته فوق مرتبة الخلق بما لا يمكن وصفه، وما هذه التوضيحات إلا من باب ضيق الخناق عن كشف هذه الحقيقة؛ إذ لا قياس - أصلاً - بين الخالق العليّ العظيم تبارك وتعالى، وبين مخلوقاته الفقيرة إليه بكلّ معاني الفقر والفاقة.

ولنذكر بعض معاني الاسم الشريف "العليّ" مزيداً للإيضاح:

١- أنّه ﷻ أعلى وأشرف مِن كلّ كمالٍ اتّصفت به الموجودات، فهي لا تخرج - مع شرافتها - عن كونها معاليل لعلّة الوجود، وهي الله ﷻ، فهو أشرف وأسمى مصاديق الوجود؛ لإفاضته الحسن والكمال على كلّ عالم الإمكان، لذا تقرأ في دعاء الجوشن:

«يا أخبر مِن كلّ خبيرٍ، يا أشرف من كلّ شريفٍ، يا أرفع من كلّ رفيعٍ، يا أقوى من كلّ قويٍ، يا أغنى من كلّ غنيٍّ، يا أجود من كلّ جوادٍ، يا أرأف من كلّ

---

(١) سورة لقمان: الآية ٣٠.

رؤوف»[(١)].

وقال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾[(٣)].

٢- أنّه ﷻ علا عن الأشباه، والأنداد[(٤)]، قال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[(٥)].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[(٦)].

٣- أنّه أسمى وأرفع من أنْ تُدرك الممكنات وعقول البشر - حتّى العرفاء -

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٩١، ص٣٩٠. دعاء الجوشن الكبير.

(٢) سورة البقرة: ١٣٨.

(٣) سورة السجدة: الآيات ٧- ٩.

(٤) التوحيد- الشيخ الصدوق: ١٩٨.

(٥) سورة الشورى: الآية ١١.

(٦) سورة النمل: الآية ٦٤.

حقيقة بعض كمالاته، فضلاً عن درك ذاته[١].

لذا مُنعنا من التفكّر في ذات الله تعالى، كما في الخبر عن أبي بصيرٍ قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «**تكلّموا في خلق الله، ولا تتكلّموا في الله، فإنَّ الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيّراً**»[٢].

وإنَّما يرجع المَنع إلى كمال الله المطلق غير المتناهي، ومن جهةٍ أخرى إلى ضعف القابل، وهو الباحث، والمتفكّر في الله، فمثله كمثل الطفل البليد، الّذي يريد أنْ توصف له الدنيا من خلال ثقب إبرةٍ، فيتصوّر أنَّ الدنيا هي هذا الأبيض، والأزرق، والأخضر، الّذي يراه، ولا يدري ما هو، وكيف هو، وهو غافلٌ - تمام الغفلة - أنَّ الحكماء تاهوا في معرفة هذه الدنيا، والأسرار الكامنة فيها، مع أنَّها إحدى أضعف نشآت الخلق، فلا تقاس بالجنّة، ولا بالعوالم الأخرى، فأقرُّوا ـ مع علمهم ـ بجهلهم، فكيف يتصوّر معرفة الخالق العليّ العظيم؟!

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إيّاكم والتفكّر في الله، ولكن إذا أردتم أنْ تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه**»[٣].

---

(١) ويقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: العلي: هو الرفيع القدر من عَلِيَ، وإذا وصف الله - تعالى - به في قوله: (إنه هو العلي الكبير- إن الله كان علياً كبيراً) فمعناه: يعلو أن يحيط به وصف الواصفين، بل علم العارفين. (المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، كتاب العين: ٣٤٥).

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ١، ص٩٢، ح١.

(٣) الكافي- الشيخ الكليني ج ١، ص ٩٣، ح٧.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

تجلّيات العليّ:

لعلّ سيرنا في أبحاث هذا الكتاب قد كشف الستار لنا عن بعض جوانب كمالات المولى جلّ وعلا، وهي كافيةٌ في كشف بعض الستار عن علوّه، وارتفاعه عن خلقه علوّاً كبيراً، وتنزُّهه مِن أنْ يدرك كماله عقول أوليائه، وخاصّته، والكمّل من بريّته، فكيف بغيرهم؟! ولعلَّ في قصّة موسى مع العليّ الأعلى خير درسٍ لنا، حيث قال - كما أخبرنا سبحانه -: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٢).

فهو علا وتعالى أنْ يكون له نظيرٌ في الخالقيّة والصانعيّة، كيف والبشر -وغيرهم- هم مِن خلقه؟! استعانوا بخلقه؛ لتيسير أمورهم؛ وتطويرها إلى الأكمل، وهم عاجزون أنْ يخلقوا جناح بعوضةٍ، فكيف بغيرها؟! وقد أشار مولى الموحدين عليه السلام في خطبةٍ له إلى ذلك، حيث قال:

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان: ١٤٣،١٤٤.

«وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها، واختراعها، وكيف لو اجتمع جميع حيوانها، من طيرها، وبهائمها، وما كان من مراحها، وسائمها، وأصناف أسناخها، وأجناسها، ومتبلّدة أممها، وأكياسها، على إحداث بعوضةٍ ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيّرت عقولها في علم ذلك، وتاهت، وعجزت قواها، وتناهت، ورجعت خاسئةً حسيرةً، عارفةً بأنّها مقهورةً، مقرّةً بالعجز عن إنشائها، مذعنةً بالضعف عن إفنائها»[1].

العبد والعليّ:

وأمّا حظّ العبد من هذه الصفة العظيمة، وهذا الاسم الشريف، فيمكن الإشارة إلى جانبين:

أ- الترفّع والتنزّه عن سمات أهل الدنيا:

فِعال البشر مرآةٌ لعقولهم، واعتقاداتهم، فمَن جعل الدنيا أوّل وآخر همّه، كان ذلك كاشفاً عن مقدار عقله، وجودة تفكيره، ونضجه، ومدى دركه، وتثمينه للأمور، فمَن يرجِّح الدنيا على الآخرة إنّما يكشف بذلك عن هشاشة تفكيره، وضعف إيمانه ويقينه بكلام الأنبياء، والأوصياء، والأبرار من العلماء، فهم -لتقريب حقيقة الدنيا إلى أذهان الناس- تجدهم عليهم السلام يأتون بأمثلةٍ عدّةٍ للكشف عن حقيقة الدنيا، والزهد فيها، والنظر إليها بنظرةٍ واقعيّةٍ وصحيحةٍ، من قبيل ما يُروى عن الإمام الكاظم عليه السلام: **«مثل الدنيا مثل الحيّة، مسُّها ليّنٌ، وفي جوفها السمّ القاتل، ويحذرها**

---

(١) شرح نهج البلاغة- محمد عبده ج ٢، ص١٢٤، الخطبة ١٨٦.

الرجال ذوي العقول، ويهوى إليها الصبيان بأيديهم»[١].

وإذا أردت أنْ تعرف صفات عبيد الدنيا وعشّاقها فسأخبرك بهم؛ تتميماً للفائدة:

جاء في حديث المعراج:

«يا أحمد، أهل الدنيا من كثر أكله، وضحكه، ونومه، وغضبه، قليل الرضا، لا يعتذر إلى من أساء إليه، ولا يقبل معذرة من اعتذر إليه، كسلانٌ عند الطاعة، شجاعٌ عند المعصية، أمله بعيد، وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام.

وإنَّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء، ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليلٌ، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون، ويدّعون بما ليس لهم، ويتكلّمون بما يتمنّون، ويذكرون مساوي الناس، ويخفّون حسناتهم.

قال: يا ربّ، هل يكون سوى هذا العيب في أهل الدنيا؟

قال: يا أحمد، إنَّ عيب أهل الدنيا كثيرٌ، فيهم الجهل، والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلّمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاءٌ، وعند العارفين حمقاء»[٢].

أمّا أصحاب اليقين والكمال، فإنَّك تجدهم قد ترفّعوا، وتعالَوا عن حُطام هذه الدنيا الدنيّة، وعن التخلّق بأخلاق أصحابها وأتباعها، فكان بين هؤلاء وأولئك بوناً

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج٣، ص ٣٣١، ح ٦٠٠٥.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج٣، ص ٣١٧، ح ٥٩٣٠.

شاسعاً، وفرقاً كبيراً، كما تجد ذلك جليّاً في خطب الأنبياء، والأوصياء عليهم السلام، كما عن وصيّ خاتم الأنبياء، أمير المؤمنين عليه السلام:

«لدنياكم أهون عندي من ورقةٍ - في- فيّ جرادةٍ تقضمها، وأقذر عندي من عراقة خنزيرٍ، يقذف بها أجذمها، وأَمَرُّ على فؤادي من حنظلة يلوكها ذو سقمٍ فيبشمها، ما لعليٍّ ونعيمٍ يفنى؟! ولذّةٍ تنحتها المعاصي؟!

سألقى وشيعتي ربّنا بعيونٍ ساهرةٍ، وبطونٍ خماصٍ ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[1]»[2].

ب- الارتقاء إلى سمات أهل الكمال:

إذا كان الحظّ الأوّل من سمات المتخلّق بالعليّ هو التخلّي عن كلّ صفةٍ دنيئةٍ من صفات أهل الدنيا، فاعلم أنَّ الحظّ الثاني هو التحلّي بكلّ صفةٍ من صفاته جلّ وعلا وصفات أنبيائه، وأوليائه عليهم السلام، وكلّما كان الاتّصاف بسمات أهل الكمال والعصمة أكثر، كان حظّه من اسم العليّ أعظم، وأوفر.

والتخلُّق بأخلاق الأنبياء والأوصياء هي السمة البارزة لطالبي الآخرة، وأصحاب الهمم العالية، حيث السعي الحثيث للتشبُّه بالأنبياء في صفاتهم، وأفعالهم، كون الأنبياء هم أقرب الناس إلى تجسيد أخلاق الله، وأسمائه الشريفة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤١.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج٣: ٣٠١، ح٥٨٥٤.

وهذا ما تجده جلياً في سلوك سلمان الفارسيّ، الّذي بلغ من خلال شدّة تخلّقه بأخلاق أهل بيت العصمة والطهارة درجةً رفيعةً من القرب، حتّى قال فيه الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله: «**سلمان منّا أهل البيت**»[١]، وقد تواتر هذا المعنى في روايات المدارس الإسلاميّة[٢].

وذلك يدلّ على عظمة مقامه، وعلو شأنه - رحمة الله تعالى عليه-، وقد امتُدِحَ على لسان الإمام الصادق عليه السلام: «**أدرك سلمان العلم الأوّل، والعلم الآخر، وهو بحرٌ لا ينزح، وهو منّا أهل البيت عليهم السلام، بلغ من علمه أنّه مرّ برجلٍ في رهطٍ، فقال له: يا عبد الله، تب إلى الله عزّ وجلّ من الّذي عملت به في بطن بيتك البارحة، قال: ثمّ مضى.**

فقال له القوم: لقد رماك سلمان بأمرٍ فما رفعته (دفعته) عن نفسك!

قال: إنّه أخبرني بأمرٍ ما اطّلع عليه إلا الله وأنا»[٣].

ولم يكن له ذلك المقام إلا لكثرة تشبهّه بالنبيّ وآله عليهم السلام في كلّ تصرّفاته، الخطيرة منها والحقيرة، ويكشف عن هذه الحقيقة ما ينقل عنه أنّه قد تحسّر عند موته.

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٧، ص١٧٠.

(٢) هذه بعض مصادر أهل السنة. الطبقات الكبرى- محمد بن سعد ج ٧، ص ٣١٩. تاريخ مدينة دمشق- ابن عساكر ج ٤، ص ٢٧٠. أسد الغابة- ابن الأثير ج ٢، ص٣٣١. البداية والنهاية- ابن كثير ج ٢، ص٢٢٧.

(٣) معجم رجال الحديث- آية الله العظمى السيد الخوئي ج ٩، ص ١٩٩.

فقيل له: «علامَ تأسّفك يا أبا عبد الله؟

قال: ليس تأسّفي على الدنيا، ولكنّ رسول الله ﷺ عهد إلينا وقال: ليكن بلغة أحدكم كزاد الراكب، وأخاف أنْ نكون قد جاوزنا أمره، وحولي هذه الأساود، وأشار إلى ما في بيته، وقال: هو دستٌ، وسيفٌ، وجفنةٌ»[1].

فانظر - أيّها العزيز - مدى اهتمامه لتطبيق ما تعلّمه - أو سمعه - من رسول الله ﷺ في حياته، وأنْ يجعل نفسه نسخةً لما يريده الرسول الأكرم ﷺ، حتّى آخر رمقٍ من عمره الشريف.

أبو ذرّ وسلمان:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «دخل أبو ذرٍّ على سلمان وهو يطبخ قدراً له، فبينما هما يتحادثان إذا انكبت القدر على وجهها على الأرض، فلم يسقط من مرقها، ولا من ودكها شيءٌ، فعجب من ذلك أبو ذرٍّ عجباً شديداً، وأخذ سلمان القدر، فوضعها على حالها الأوّل على النار ثانيةً، وأقبلا يتحدّثان، فبينما هما يتحدّثان إذا انكبت القدر على وجهها، فلم يسقط منها شيءٌ من مرقها، ولا من ودكها.

قال فخرج أبو ذرٍّ وهو مذعورٌ من عند سلمان، فبينما هو متفكّرٌ إذ لقي أمير المؤمنين عليه السلام على الباب، فلمّا أنْ بصر به أمير المؤمنين عليه السلام قال له: يا أبا ذرّ، ما الّذي أخرجك؟! وما الّذي ذعرك؟!

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمدي الري شهري ج ٣، ص ٢٨٨، ح٥٧٦٨.

فقال له أبو ذرٍّ: يا أمير المؤمنين، رأيت سلمان صنع كذا وكذا، فعجبت من ذلك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا ذرٍّ، إنَّ سلمان لو حدّثك بما يعلم لقلت: رحم الله قاتل سلمان، يا أبا ذرٍّ، إنَّ سلمان باب الله في الأرض، من عرفه كان مؤمناً، ومَنْ أنكره كان كافراً، وإنَّ سلمان منّا أهل البيت»[1].

سلمان يكلّم الموتى:

عن الأصبغ بن نباتة أنَّه قال: «كنت مع سلمان الفارسيّ رضي الله عنه، وهو أمير المدائن في زمان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وذلك أنَّه قد ولاّه المدائن عمر بن الخطّاب، فقام إلى أنْ ولي الأمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال الأصبغ: فأتيته يوماً وقد مرض مرضه الّذي مات فيه، قال: فلم أزل أعوده في مرضه، حتّى اشتدّ به الأمر، وأيقن الموت.

قال: فالتفت إليَّ، وقال لي:

يا أصبغ، عهدي برسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا سلمان، سيكلّمك ميتٌ إذا دنت وفاتك، وقد اشتهيت أنْ أدري وفاتي دنت أم لا؟!

فقال الأصبغ: بماذا تأمر يا سلمان، يا أخي؟

قال له: تخرج، وتأتيني بسريرٍ، وتفرش عليه ما يفرش للموتى، ثمّ تحملني بين

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢٢، ص٣٧٣- ٣٧٤، ح ١٢.

أربعةٍ، فتأتون بي إلى المقبرة.

فقال الأصبغ: حبّاً، وكرامةً، فخرجتُ مسرعاً، وغبت ساعةً، وأتيته بسريرٍ، وفرشت عليه ما يفرش للموتى، ثمّ أتيته بقومٍ حملوه، حتّى أتوا به إلى المقبرة، فلمّا وضعوه فيها قال لهم:

يا قوم، استقبلوا بوجهي القبلة، فلمّا استقبل القبلة بوجهه نادى بعلوّ صوته:

السلام عليكم يا أهل عرصة البلا، السلام عليكم يا محتجبين عن الدنيا، قال: فلم يجبه أحد، فنادى ثانيةً:

السلام عليكم يا من جعلت المنايا لهم غداء.

السلام عليكم يا من جعلت الأرض عليكم غطاء.

السلام عليكم يا من لقوا أعمالهم في دار الدنيا.

السلام عليكم يا منتظري النفخة الأولى، سألتُكم بالله العظيم، والنبيّ الكريم، إلا أجابني منكم مجيبٌ، فأنا سلمان الفارسيّ، مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّه قال لي: يا سلمان، إذا دنت وفاتك سيكلّمك ميتٌ، وقد اشتهيت أنْ أدري دنت وفاتي أم لا؟! فلمّا سكت سلمان من كلامه فإذا هو بميتٍ قد نطق من قبره وهو يقول:

السلام عليك ورحمة الله وبركاته، يا أهل البناء والفناء، المشتغلون بعرصة الدنيا، ها نحن لكلامك مستمعون، ولجوابك مسرعون، فسل عمَّا بدا لك - يرحمك الله تعالى - . قال سلمان: أيّها الناطق بعد الموت، المتكلّم بعد حسرة الفوت، أمن أهل

الجنّة أم من أهل النار؟[١]

فقال: يا سلمان، أنا ممّن أنعم الله تعالى عليه بعفوه، وكرمه، وأدخله جنّته برحمته، فقال له سلمان: الآن يا عبد الله صف لي الموت، كيف وجدته؟ وماذا لقيت منه؟ وما رأيت؟ وما عانيت؟

قال: مهلاً يا سلمان، فوالله إنّ قرضاً بالمقاريض، ونشراً بالمناشير، لأهون عليّ من غصّة الموت، اعلم أنّي كنت في دار الدنيا ممّن ألهمني الله تعالى الخير، وكنت أعمل به، وأؤدي فرائضه، وأتلوا كتابه، وأحرص في برّ الوالدين، وأجتنب المحارم، وأفزع عن المظالم[٢]، وأكدّ الليل والنهار في طلب الحلال؛ خوفاً من وقفة السؤال، فبينا أنا في ألذّ عيشٍ، وغبطةٍ، وفرحٍ، وسرورٍ، إذ مرضت، وبقيت في مرضي أيّاماً، حتّى انقضت من الدنيا مدّتي، فأتاني عند ذلك شخصٌ عظيم الخلقة، فظيع المنظر، فوقف مقابل وجهي، لا إلى السماء صاعداً، ولا إلى الأرض نازلاً، فأشار إلى بصري فأعماه، وإلى سمعي فأصمّه، وإلى لساني فعقره[٣]، فصرت لا أبصر، ولا أسمع، فعند ذلك بكوا أهلي، وأعواني، وظهر خبري إلى إخواني، وجيراني.

فقلت له عند ذلك: مَنْ أنت يا هذا، الّذي أشغلتني عن مالي، وأهلي، وولدي؟!

فقال: أنا ملك الموت، أتيتك لأنقلك من دار الدنيا إلى الآخرة، فقد انقضت

---

(١) في المصدر: أمن أهل الجنة بعفوه، أم من أهل النار بعدله. "هامش البحار، وكذلك ما سيأتي من هوامش هذا البحث".

(٢) في المصدر: وانزع عن المظالم.

(٣) في المصدر: فأخرسه.

مدّتك، وجاءت منيّتك، فبينا هو كذلك يخاطبني إذ أتاني شخصان، وهما أحسن خلقٍ رأيت[١]، فجلس أحدهما عن يميني، والآخر عن شمالي، فقالا لي:

السلام عليك ورحمة الله وبركاته، قد جئناك بكتابك، فخذه الآن، وانظر ما فيه.

فقلت لهم: أيّ كتابٍ لي أقرؤه؟

قالا: نحن الملكان اللذان كنّا معك في دار الدنيا، نكتب ما لك، وما عليك، فهذا كتاب عملك، فنظرت في كتاب الحسنات وهو بيد الرقيب، فسرَّني ما فيه، وما رأيت من الخير، فضحكت عند ذلك، وفرحت فرحاً شديداً، ونظرت إلى كتاب السيّئات، وهو بيد العتيد، فساءني ما رأيت، وأبكاني.

فقالا لي: أبشر، فلك الخير، ثمّ دنا منّي الشخص الأوّل، فجذب الروح، فليس من جذبة يجذبها إلا وهي تقوم مقام كلّ شدّةٍ من السماء إلى الأرض، فلم يزل كذلك حتّى صارت الروح في صدري، ثمّ أشار إليّ بحربةٍ لو أنّها وضعت على الجبال لذابت، فقبض روحي من عرنين أنفي، فعلا[٢] عند ذلك الصراخ، وليس من شيءٍ يُقال أو يفعل إلا وأنا به عالمٌ، فلما اشتدّ صراخ القوم، وبكاؤهم جزعاً عليّ، فالتفتَ إليهم ملك الموت بغيظٍ، وحنقٍ، وقال:

معاشر القوم، ممّن بكاؤكم؟! فوالله ما ظلمناه فتشكوا، ولا اعتدينا عليه

---

(١) في المصدر: ما رأيت أحسن منهما.

(٢) في المصدر: فعلا من أهلي.

فتصيحوا وتبكوا، ولكن نحن وأنتم عند[1] ربٍّ واحدٍ، ولو أمرتم فينا كما أمرنا فيكم لامتثلتم فينا كما امتثلنا فيكم، والله ما أخذناه حتّى فني رزقه، وانقطعت مدّته، وصار إلى ربٍّ كريمٍ يحكم فيه ما يشاء، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ، فإنْ صبرتم أجرتم، وإنْ جزعتم أثمتم، كم لي من رجعةٍ إليكم، آخذ البنين، والبنات، والآباء، والأمّهات.

ثمّ انصرف عند ذلك عنّي والروح معه، فعند ذلك أتاه ملكٌ آخر، فأخذها منها، وتركها في ثوبٍ من حريرٍ، وصعد بها، ووضعها بين يدي الله في أقلّ من طبقة جفنٍ، فلمّا حصلت الروح بين يدي ربّي ﷻ، وسألها عن الصغيرة، والكبيرة، وعن الصلاة، والصيام في شهر رمضان، وحجّ بيت الله الحرام، وقراءة القرآن، والزكاة، والصدقات، وسائر الأوقات والأيام، وطاعة الوالدين، وعن قتل النفس بغير الحق، وأكل مال اليتيم، وعن مظالم العباد، وعن التهجّد بالليل والناس نيام، وما يشاكل ذلك، ثمّ من بعد ذلك ردّت الروح إلى الأرض بإذن الله تعالى.

فعند ذلك أتاني غاسلٌ، فجرّدني من أثوابي، وأخذ في تغسيلي، فنادته الروح، يا عبد الله، رفقاً بالبدن الضعيف، فوالله ما خرجت من عرقٍ إلا انقطع، ولا عضوٍ إلا انصدع، فوالله لو سمع الغاسل ذلك القول لما غسّل ميتاً أبداً، ثمّ إنّه أجرى عليّ الماء، وغسّلني ثلاثة أغسال، وكفّنني في ثلاثة أثواب، وحنّطني في حنوطٍ، وهو الزاد الّذي خرجت به إلى دار الآخرة، ثمّ جذب الخاتم من يدي اليمنى بعد فراغه من الغسل، ودفعه إلى الأكبر من ولدي.

---

(١) في المصدر: عبد.

وقال: آجرك الله في أبيك، وحسن[1] لك الأجر والعزاء، ثمّ أدرجني في الكفن، ولقّنني، ونادى أهلي، وجيراني، وقال: هلمّوا إليه بالوداع، فأقبلوا عند ذلك لوداعي، فلمّا فرغوا من وداعي، حُمِلْتُ على سريرٍ من خشبٍ، والروح عند ذلك بين وجهي وكفني، وضعت للصلاة، فصلّوا عليّ.

فلمّا فرغوا من الصلاة، وحملت إلى قبري، ودلّيت فيه، فعاينت هولاً عظيماً، يا سلمان، يا عبد الله، اعلم أنّي قد سقطت من السماء إلى الأرض في لحدي، وشرج عليَّ اللبن، وحثا التراب عليَّ، فعند ذلك سلبت الروح من اللسان، وانقلب السمع والبصر، فلمّا نادى المنادي بالانصراف أخذت في الندم، فقلتُ: يا ليتني كنت من الراجعين، فجاوبني مجيبٌ من جانب القبر: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2].

فقلت له: مَنْ أنت يا هذا الّذي تكلّمني، وتحدّثني؟

فقال: أنا منبّه، قال: أنا ملكٌ وكّلني الله عَزَّوَجَلَّ بجميع خلقه؛ لأنبّههم بعد مماتهم؛ ليكتبوا أعمالهم على أنفسهم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، ثمّ إنّه جذبني وأجلسني، وقال لي: اكتب عملك.

فقلت: إنّي لا أحصيه.

---

(١) في المصدر: وأحسن.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

فقال لي: أما سمعت قول ربك: ﴿...أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ...﴾[1]؟! ثمّ قال لي: اكتب وأنا أملي عليك.

فقلت: أين البياض؟

فجذب جانباً من كفني فإذا هو رق، فقال: هذه صحيفتك.

فقلت: مِنْ أين القلم؟

قال: سبّابتك.

فقلت: مِنْ أين المداد؟

قال: ريقك، ثمّ أملى، قال تعالى: ﴿...وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2]، ثمّ إنّه أخذ الكتاب، وختمه بخاتمٍ، وطوّقه في عنقي، فخيّل لي أنَّ جبال الدنيا جميعاً قد طوّقوها في عنقي، فقلت له: يا منبّه، ولم تفعل بي كذا؟

قال: ألم تسمع قول ربك: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[3]؟! فهذا تُخاطب به يوم القيامة، ويُؤتى بك وكتابك بين عينيك منشوراً، تشهد فيه على نفسك، ثمّ انصرف

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٦.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٣) سورة الإسراء: الآيتان ١٣،١٤.

عنّي، فأتاني منكرٌ بأعظم منظرٍ، وأوحش شخصٍ، وبيده عمودٌ من الحديد، لو اجتمعت عليه الثقلان ما حرّكوه، ثمّ إنَّه صاح بي صيحةً، لو سمعها أهل الأرض لماتوا جميعاً، ثمّ قال لي: يا عبد الله، أخبرني من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ وما عليه أنت؟ وما قولك في دار الدنيا؟

فاعتقل لساني من فزعه، وتحيّرتُ في أمري، وما أدري ما أقول، وليس في جسمي عضوٌ إلا فارقني من الخوف، فأتتني رحمةٌ من ربّي، فأمسك[1] قلبي، وأطلق بها لساني.

فقلت له: يا عبد الله، لمَ تفزعني؟! وأنا أعلم أنّي أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله، وأنَّ الله ربّي، ومحمّد[2] نبيي، والإسلام ديني، والقرآن كتابي، والكعبة قبلتي، وعليٌّ إمامي، والمؤمنون إخواني، وأشهد أنْ لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنَّ محمّداً عبده، ورسوله، فهذا قولي، واعتقادي، وعليه ألقى ربّي في معادي، فعند ذلك قال لي: الآن أبشر يا عبد الله بالسلامة، فقد نجوت، ومضى عني، وأتاني نكيرٌ، وصاح صيحةً هائلةً أعظم من الصيحة الأولى، فاشتبك أعضائي بعضها في بعضٍ كاشتباك الأصابع، ثمّ قال لي: هات الآن عملك يا عبد الله، فبقيت حائراً، متفكّراً في ردّ الجواب، فعند ذلك صرف الله عنّي شدّة الروع والفزع، وألهمني حجّتي، وحسن اليقين، والتوفيق، فقلت عند ذلك:

يا عبد الله، رفقاً بي، فإنّي قد خرجت من الدنيا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله،

---

(١) في المصدر: فامسك بها.

(٢) في المصدر: ومحمد نبيي.

وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده، ورسوله، وأنّ الجنّة حقٌّ، والنار حقٌّ، والصراط حقٌّ، والميزان حقٌّ، والنار والبعث حقٌّ، وأنَّ الجنّة وما وعد الله فيها من النعيم حقٌّ، وأنَّ النار وما أوعد الله فيها من العذاب حقٌّ، وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور.

ثمّ قال لي: يا عبد الله، أبشر بالنعيم الدائم، والخير المقيم، ثمّ إنّه أضجعني.

وقال: نم نومة العروس، ثمّ إنّه فتح لي باباً من عند رأسي إلى الجنّة، وباباً من عند رجلي إلى النار.

ثمّ قال لي: يا عبد الله، انظر إلى ما صرت إليه من الجنّة والنعيم، وإلى ما نجوت منه من نار الجحيم، ثمّ سد الباب الّذي من عند رجلي، وأبقى الباب الّذي من عند رأسي مفتوحاً إلى الجنّة، فجعل يدخل عليّ من روح الجنّة، ونعيمها، وأوسع لحدي مدّ البصر، ومضى عنّي، فهذا صفتي، وحديثي، وما لقيته من شدّة الأهوال، وأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنَّ محمّداً عبده، ورسوله، وأشهد أنَّ الموت حقٌّ على طرف لساني[1]، فراقب الله - أيّها السائل - خوفاً من وقفة السائل، قال: ثمّ انقطع عند ذلك كلامه.

قال سلمان رضي الله عنه عند ذلك: حطّوني - رحمكم الله -، فحطّيناه إلى الأرض، فقال: أسندوني، فأسندناه، ثمّ رمق بطرفه إلى السماء، وقال: يا من بيده ملكوت كلّ شيءٍ، وإليه ترجعون، وهو يجير، ولا يجار عليه، بك آمنت، ولنبيّك اتّبعت،

---

(١) في المصدر: وأنا أشهد بالله مرارة الموت في حلقي إلى يوم القيامة.

وبكتابك صدّقت، وقد أتاني ما وعدتني، يا من لا يخلف الميعاد، اقبضني إلى رحمتك، وأنزلني دار كرامتك، فأنا أشهد أنْ لا إله الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمّداً عبده، ورسوله، فلمّا كمّل شهادته، قضى نحبه، لقي ربّه - رضي الله تعالى عنه -. قال: فبينا نحن كذلك، إذ أتى رجلٌ على بغلةٍ شهباء، متلثّماً، فسلّم علينا، فرددنا السلام عليه.

فقال: يا أصبغ، جدّوا في أمر سلمان، فأخذنا[1] في أمره، فأخذ معه حنوطاً، وكفناً.

فقال: هلمّوا، فإنَّ عندي ما ينوب عنه، فأتيناه بماءٍ، ومغسلٍ، فلم يزل يغسّله بيده حتّى فرغ، وكفّنه، وصلّينا عليه، ودفنّاه، ولحّده عليٌّ عليه السلام بيده، فلمّا فرغ من دفنه وهمّ بالانصراف تعلّقت بثوبه، وقلت له: يا أمير المؤمنين، كيف كان مجيئك؟ ومن أعلمك بموت سلمان؟

قال: فالتفت عليه السلام إليّ، وقال: آخذ عليك يا أصبغ، عهد الله وميثاقه أنّك لا تحدّث به أحداً ما دمت حيّاً في دار الدنيا، فقلت: يا أمير المؤمنين، أموت قبلك؟

فقال: لا يا أصبغ، بل يطول عمرك.

قلت له: يا أمير المؤمنين، خذ عليَّ عهداً وميثاقاً، فإنّي لك سامعٌ مطيعٌ، إنّي لا أحدّث به حتّى يقضي الله من أمرك ما يقضي، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ.

فقال لي: يا أصبغ، بهذا عهدني رسول الله، فإنّي قد صلّيت هذه الساعة بالكوفة،

---

(١) في نسخة من المصدر: وأردنا أن نأخذ.

وقد خرجت أريد منزلي، فلمّا وصلت إلى منزلي اضطجعت، فأتاني آتٍ في منامي، وقال: يا عليّ، إنَّ سلمان قد قضى نحبه، فركبت بغلتي، وأخذت معي ما يصلح للموتى، فجعلت أسير، فقرّب الله لي البعيد، فجئت كما تراني، وبهذا أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ إنَّه دفنه، وواراه، فلم أر صعد إلى السماء، أم في الأرض نزل، فأتى الكوفة والمنادي ينادي لصلاة المغرب، فحضر عندهم عليٌّ عليه السلام، وهذا ما كان من حديث وفاة سلمان الفارسيّ رضي الله عنه»[١].

عليٌّ وفضائل أصحابه:

سأل ابن الكوا أمير المؤمنين عليه السلام عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «**عن أي أصحاب رسول الله تسألني؟**

قال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن أبي ذرّ الغفاريّ.

قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء ذا لهجةٍ[٢] أصدق من أبي ذرّ.

قال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن سلمان الفارسيّ.

قال: بخٍ بخٍ، سلمان منّا أهل البيت، ومن لكم بمثل لقمان الحكيم؟! عَلِمَ علْم الأول، وعلم الآخر.

قال: يا أمير المؤمنين، فأخبرني عن عمّار بن ياسر.

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢٢، ص ٣٧٤- ٣٨٠،ح١٣.

(٢) في المصدر: على ذي لهجة. "هامش البحار"

قال: ذلك امرؤٌ حرّم الله لحمه ودمه على النار، وأنْ تمسّ شيئاً منهما.

قال: يا أمير المؤمنين، فأخبرني عن حذيفة ابن اليمّان.

قال: ذلك امرؤٌ علم أسماء المنافقين، إنْ تسألوه عن حدود الله تجدوه بها عارفاً عالماً.

قال: يا أمير المؤمنين فأخبرني عن نفسك.

قال: كنت إذا سُئِلتُ أَعْطَيْتُ، وإذا سُكتُّ ابْتديتُ»[1].

ومن الطبيعيّ أنَّ هؤلاء لم يعطَوْا هذه المراتب من الكمالات والكرامات إلا نتيجة محاولاتهم الدؤوبة في التشبّه بالنبيّ الأكرم، وآله النجباء، عليهم أفضل الصلاة والسلام، رزقنا الله معكم العمل بما نسمع، ونقرأ، آمين ربّ العالمين.

ذِكرُ العليّ:

نقل الشيخ الكفعميّ عن الشيخ العارف رجب البُرسي: «مَنْ أكثر ذكر (العليّ) وعلَّقه عليه كان عند الناس وجيهاً»[2].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢٢، ص٣٢٩- ٣٣٠، ح٣٨.

(٢) المصباح- الكفعمي، ص ٤٧٩.



الموضوع الثامن عشر:

الظَّاهِر

١- تجلّيات الظاهر.

٢- العبد والظاهر.

أ- التأدّب في محضر الله.

ب- الارتباط بالله في جميع الأمور.

ج- الارتباط بالدعاء.

الظَّاهِر

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

ذكر الشيخ الطبرسيّ مجموعة أقوالٍ في معنى الظاهر حينما تعرّض لتفسير الآيات الأولى من سورة الحديد، نذكر بعضاً منها:

«**الظاهر**: وهو الغالب العالي على كلّ شيءٍ، فكلّ شيءٍ دونه. (والباطن): العالم بكلّ شيءٍ، فلا أحد أعلم منه، عن ابن عباس.

وقيل: الظاهر بالأدلّة والشواهد.

وقيل: معنى الظاهر والباطن أنّه العالم بما ظهر، والعالم بما بطن.

وقيل: الظاهر بأدلّته، والباطن من إحساس خلقه.

وقيل: والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب.

وقيل: والظاهر بإحسانه، وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته، عن السدّي.

---

(١) سورة الحديد: الآية ٣.

وقيل: الأوّل بالخلق، والآخر بالرزق، والظاهر بالإحياء، والباطن بالإماتة، عن ابن عمر.

وقيل: وأظهر الظاهر، وأبطن الباطن، عن الضحّاك»[(١)].

أقول: لعلّ المستفاد من روايات أهل البيت عليهم السلام أنَّ معنى (الظاهر) هو الوضوح والجلاء اللذين لا يشوبهما شيءٌ من الخفاء، أو الاستتار، فهو أظهر من كلّ ظاهرٍ، وأجلى مِن كلّ جليٍّ، بل إن كلّ ظاهرٍ وجليٍّ إنّما صار ظاهراً وجليّاً به تبارك وتعالى.

ويؤيّد فهمنا هذا مجموعةٌ من الروايات، هذه بعضها:

١- دعاء عرفة لسيّد الشهداء عليه السلام: **«كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك؟! ألغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتّى تحتاج إلى دليلٍ يدلّ عليك؟! ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك؟! عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً...»**[(٢)].

وفي موضعٍ آخر من الدعاء: **«وأنت الّذي لا إله غيرك، تعرّفت لكلّ شيءٍ، فما جهلك شيءٌ، وأنت الّذي تعرّفت إليَّ في كلّ شيءٍ، فرأيتك ظاهراً في كلّ شيءٍ، وأنت الظاهر لكلّ شيءٍ»**.

٢ - ما روي مِنْ ردٍّ للإمام على تساؤلات ابن أبي العوجاء الّتي منها: **«ذكرتَ -أي الباري جلّ وعلا- يا أبا عبد الله، فأحلتَ على غائبٍ؟**

---

(١) تفسير مجمع البيان- الشيخ الطبرسي ج ٩، ص ٣٨٣.

(٢) مفاتيح الجنان- الشيخ عباس القمي.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ويلك، وكيف يكون غائباً مَنْ هو مع خلقه شاهدٌ؟! وإليهم أقرب من حبل الوريد؟! يسمع كلامهم، ويرى أشخاصهم، ويعلم أسرارهم، وإنَّما المخلوق الَّذي إذا انتقل عن مكانٍ اشتغل به مكانٌ، وخلا منه مكانٌ، فلا يدري في المكان الَّذي صار إليه ما حدث في المكان الَّذي كان فيه، فأمَّا الله العظيم الشأن، الملك، الديّان، فإنَّه لا يخلو منه مكانٌ، ولا يشتغل به مكانٌ، ولا يكون إلى مكانٍ أقرب منه إلى مكانٍ، والَّذي بعثه بالآيات المحكمة، والبراهين الواضحة، وأيّده بنصره، واختاره لتبليغ رسالته، صدّقنا قوله بأنَّ ربّه بعثه، وكلّمه.

فقام عنه ابن أبي العوجاء، فقال لأصحابه: من ألقاني في بحر هذا؟! سألتكم أنْ تلتمسوا لي خمرةً، فألقيتموني على جمرةٍ.

قالوا له: ما كنت في مجلسه إلا حقيراً.

فقال: إنَّه ابن من حلق رؤوس مَنْ ترون»[1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه- الشيخ الصدوق ج ٢، ص٢٥٠- ٢٥١، ح ٢٣٢٥. ولما في الرواية من فوائد جمة نذكرها كاملة: روي عن عيسي بن يونس قال: «كان ابن أبي العوجاء من تلامذة الحسن البصري، فانحرف عن التوحيد، فقيل له: تركتَ مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة؟! فقال: إن صاحبي كان مخلطاً، كان يقول طوراً بالقدر، وطوراً بالجبر، وما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه، قال: ودخل مكة تمرداً وإنكاراً على من يحج، وكان يكره العلماء مساءلته إياهم، ومجالسته لهم؛ لخبث لسانه؛ وفساد ضميره، فأتى جعفر بن محمد عليه السلام، فجلس إليه في جماعة من نظرائه، ثم قال له: إن المجالس أمانات، ولا بد لكل من كان به سعال أن يسعل، أفتاذن لي في الكلام؟ فقال: تكلم. فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟! من فكر في هذا أو قدر،

٣ – عن أبي الحسن الموصليّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**جاء حبرٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، هل رأيت ربّك حين عبدته؟**

فقال: ويلك، ما كنتُ أعبد ربّاً لم أرَه.

قال: وكيف رأيته؟

قال: ويلك، لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[1].

فالله تعالى – كما يستفاد من هذه الروايات – ظاهرٌ للعيان، لا يعتري وجوده شكٌّ، إلا أنَّ هذه الرؤية – وكذلك الظهور، كما بيّنتها الروايات، وعليها العقل والوجدان – ليست من سنخ الأمور الحسيّة الفانية، والمحدودة بالحدود، فهذا النحو

علم أن هذا فعل أسسه غير حكيم، ولا ذي نظر، فقل؛ فإنك رأس هذا الأمر، وسنامه، وأبوك أسه، ونظامه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن من أضله الله وأعمى قلبه، استوخم الحق فلم يستعذبه، وصار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة، ثم لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه؛ ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه، وقبلةً للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، وأحق من أطيع فيما أمر، وانتهي عما نهى عنه وزجر، الله المنشئ للأرواح بالصور.

فقال ابن أبي العوجاء: ذكرت يا أبا عبد الله...».

(١) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ٤، ص ٤٤، ح ٢٣.

من الظهور والرؤية لا تجوزان على الله تعالى؛ إذ هي من خصوصيّات الممكنات والأجسام، وقد تعالى ﷻ عن ذلك علوّاً كبيراً.

ويوضِّح ذلك أكثر ممّا مضى الروايةُ المروية عن مولانا أبي جعفر عليه السلام، حينما دخل عليه رجلٌ من الخوارج، فقال له: «**يا أبا جعفر، أيّ شيءٍ تعبد؟**

قال: الله.

قال: رأيته؟

قال: لم ترَه العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبّه بالناس، موصوفٌ بالآيات، معروفٌ بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله، لا إله إلا هو.

قال: فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته»[1].

تجلّيات الظاهر:

قال بعض المنسوبين إلى العلم[1]: «اعلم أنَّ أظهر الموجودات وأجلاها هو

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق: ١٠٨، ح٥. وعن الإمام الرضا عليه السلام مجيباً سؤال الرجل:
«قال الرجل: فلم لا تدركه حاسة البصر؟ قال: للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار، منهم ومن غيرهم، ثم هو أجلّ من أن يدركه بصر، أو يحيط به وهم، أو يضبطه عقل. قال: فحدّه لي! قال: لاحدّ له. قال: ولم؟ قال: لأن كلّ محدود متناهٍ، وإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو غير محدود، ولا متزايد ولا متناقص، ولا متجزي، ولا متوهم».(الاحتجاج- الشيخ الطبرسي ج ٢، ص ١٧٢).

الله عَزَّوَجَلَّ، فكان هذا يقتضي أنْ يكون معرفته أوّل المعارف، وأسبقها إلى الأفهام، وأسهلها على العقول، ونرى الأمر بالضدّ من ذلك، فلا بد من بيان السبب فيه.

وإنّما قلنا: إنّ أظهر الموجودات وأجلاها هو الله؛ لمعنى لا تفهمه إلا بمثالٍ، هو: أنّا إذا رأينا إنساناً يكتب، أو يخيط مثلاً، كان كونه حيّاً من أظهر الموجودات، فحياته، وعلمه، وقدرته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة؛ إذ صفاته الباطنة كشهوته، وغضبه، وخلقه، وصحّته، ومرضه، وكلّ ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها، وبعضها نشكّ فيه، كمقدار طوله، واختلاف لون بشرته، وغير ذلك من صفاته.

أمّا حياته، وقدرته، وإرادته، وعلمه، وكونه حيواناً، فإنّه جليٌّ عندنا، من غير أن يتعلّق حسّ البصر بحياته، وقدرته، وإرادته، فإنّ هذه الصفات لا تحسّ بشيءٍ من الحواسّ الخمس، ثمّ لا يمكن أنْ يعرف حياته، وقدرته، وإرادته، إلا بخياطته، وحركته، فلو نظرنا إلى كلّ ما في العلم سواء لم نعرف به صفاته، فما عليه إلا دليل واحد، وهو مع ذلك جليٌّ واضحٌ.

ووجود الله، وقدرته، وعلمه، وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كلّ ما نشاهده وندركه بالحواسّ الظاهرة والباطنة، من حجرٍ، ومدرٍ، ونباتٍ، وشجرٍ، وحيوانٍ، وسماءٍ، وأرضٍ، وكوكبٍ، وبرٍّ، وبحرٍ، ونارٍ، وهواءٍ، وجوهرٍ، وعرضٍ، بل أوّل شاهدٍ

---

(١) هذا التعبير على حسب ما ورد في بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٦٤، ص ١٣٨- ١٤٢. ونقلنا نص تعبيره من دون تغيير.

عليه أنفسنا، وأجسامنا، وأصنافنا، وتقلّب أحوالنا، وتغيّر قلوبنا، وجميع أطوارنا، في حركاتنا، وسكناتنا.

وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا، ثمّ محسوساتنا بالحواسّ الخمس، ثمّ مدركاتنا بالبصيرة والعقل، وكلّ واحدٍ من هذه المدركات له مدركٌ واحدٌ، وشاهدٌ ودليلٌ واحدٌ، وجميع ما في العالم شواهد ناطقةٌ، وأدلّةٌ شاهدةٌ، بوجود خالقها، ومدبّرها، ومصرّفها، ومحرّكها، ودالّةٌ على علمه، وقدرته، ولطفه، وحكمته.

والموجودات المدركة لا حصر لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرةً عندنا وليس يشهد له إلا شاهدٌ واحدٌ، وهو ما أحسسنا من حركة يده، فكيف لا يتصوّر في الوجود شيءٌ داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهدٌ عليه، وعلى عظمته، وجلاله؟! إذ كلّ ذرّةٍ فإنَّها تنادي بلسان حالها: إنّه ليس وجودها بنفسها، ولا حركتها بذاتها، وإنَّما يحتاج إلى موجدٍ، ومحرّكٍ لها، يشهد بذلك أوّلاً تركيب أعضائنا، وائتلاف عظامنا، ولحومنا، وأعصابنا، ونبات شعورنا، وتشكّل أطرافنا، وسائر أجزائنا الظاهرة، والباطنة، فإنّا نعلم أنّها لم تأتلف بنفسها، كما نعلم أنَّ يد الكاتب لم تتحرّك بنفسها.

ولكن لمّا لم يبق في الوجود مدركٌ، ومحسوسٌ، ومعقولٌ، وحاضرٌ، وغائبٌ إلا وهو شاهدٌ ومعرّفٌ عظم ظهوره، فانبهرت العقول، ودهشت عن إدراكه.

فإذن ما يقصر عن فهمه عقولنا له سببان:

أحدهما: خفاؤه في نفسه، وغموضه، وذلك لا يخفى مثاله.

والآخر: ما يتناهى وضوحه، وهذا كما أنَّ الخفاش يبصر بالليل، ولا يبصر

بالنهار، لا لخفاء النهار، واستتاره، ولكن لشدّة ظهوره، فإنَّ بصر الخفاش ضعيفٌ، يبهره نور الشمس إذا أشرق، فيكون قوّة ظهوره - مع ضعف بصره - سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الظلام بالضوء، وضعف ظهوره.

فكذلك عقولنا ضعيفةٌ، وجمال الحضرة الإلهيّة في نهاية الإشراق، والاستنارة، وفي غاية الاستغراق، والشمول، حتّى لا يشذّ عن ظهوره ذرّةٌ من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره.

ولا تتعجّب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإنَّ الأشياء تُستبان بأضدادها، وما عمّ وجوده حتّى لا ضدّ له عسر إدراكه، فلو اختلف الأشياء فدلّ بعضها دون البعض أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسقٍ واحدٍ أشكل الأمر.

ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض، فإنّا نعلم أنّه عرضٌ من الأعراض يحدث في الأرض، ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها، لكنّا نظنّ أنْ لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد، والبياض، وغيرها، فإنّا لا نشاهد في الأسود إلا السواد، وفي الأبيض إلا البياض، وأمّا الضوء فلا ندركه وحده، لكن لمّا غابت الشمس، وأظلمت المواضع، أدركنا تفرقةً بين الحالتين، فعلمنا أنَّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوءٍ، واتّصفت بصفةٍ فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه، وما كنّا نطّلع عليه لولا عدمه إلا بعسرٍ شديدٍ؛ وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهةً غير مختلفةٍ في الظلام والنور.

هذا مع أنَّ النور أظهر المحسوسات؛ إذ به يُدرَك سائر المحسوسات، فما هو ظاهرٌ في نفسه، وهو مظهِرٌ لغيره، انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره، لو لا طريان ضدّه.

فإذنْ الربّ – تعالى – هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلّها، ولو كان له عدمٌ، أو غيبةٌ، أو تغيرٌ، لانهدمت السماوات والأرض، وبطل الملك والملكوت، ولأدركت التفرقة بين الحالتين.

ولو كان بعض الأشياء موجوداً به، وبعضها موجوداً بغيره، لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامّةٌ في الأشياء على نسقٍ واحدٍ، ووجوده دائمٌ في الأحوال، يستحيل خلافه، فلا جرم أورث شدّة الظهور خفاء، فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

وأمّا من قويت بصيرته، ولم يضعف منته، فإنَّه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله وأفعاله، وأفعاله أثرٌ من آثار قدرته، فهي تابعةٌ، فلا وجود لها بالحقيقة، وإنَّما الوجود للواحد الحقّ، الّذي به وجود الأفعال كلّها.

ومن هذا حاله فلا يُنظر في شيءٍ من الأفعال إلا ويُرى فيه الفاعل، ويُذهل عن الفعل، من حيث إنَّه سماءٌ، وأرضٌ، وحيوانٌ، وشجرٌ، بل يُنظر فيه من حيث إنَّه صنعٌ، فلا يكون نظره مجاوزاً له إلى غيره، كمن نظر في شِعر إنسانٍ، أو خطّه، أو تصنيفه، ورأى فيه الشاعر والمصنّف، ورأى آثاره من حيث هي آثاره، لا من حيث إنَّه حبر وزاجٌ مرقومٌ على بياضٍ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنّف.

فكلّ العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليها من حيث إنَّها فعل الله، وعرفها من

حيث إنَّها فعل الله، وأحبّها من حيث إنَّها فعل الله، لم يكن ناظراً إلا في الله، ولا عارفاً إلا بالله، ولا محبّاً إلا لله، وكان هو الموحّد الحقّ الّذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث هو عبد الله، فهذا هو الّذي يُقال فيه: إنَّه فنى في التوحيد، وإنَّه فنى في نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنّا بنا، ففنينا عنّا، فبقينا بلا نحن.

فهذه أمورٌ معلومةٌ عند ذوي البصائر، أشكلت؛ لضعف الأفهام عن دركها؛ وقصور قدرة العلماء عن إيضاحها وبيانها بعبارةٍ مفهمةٍ موصلةٍ للغرض إلى الأفهام؛ ولاشتغالهم بأنفسهم؛ واعتقادهم أنَّ بيان ذلك لغيرهم ممّا لا يغنيهم.

فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، وانضمّ إليه أنَّ المدركات كلّها - الّتي هي شاهدةٌ على الله - إنَّما يدركها الإنسان في الصبا، عند فقد العقل قليلاً قليلاً، وهو مستغرق الهمّ بشهواته، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته إلفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس، ولذلك إذا رأى - على سبيل الفجأة - حيواناً غريباً، أو فعلاً من أفعال الله خارقاً للعادة عجيباً، انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً، فقال: " سبحان الله "، وهو يرى طول النهار نفسه، وأعضاءه، وساير الحيوانات المألوفة، وكلّها شواهد قاطعةٌ، ولا يحسّ بشهادتها؛ لطول الأنس بها.

ولو فُرض أكمه بلغ عاقلاً، ثمّ انقشعت الغشاوة عن عينه، فامتدّ بصره إلى السماء، والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان، دفعةً واحدةً على سبيل الفجأة، يخاف على عقله أنْ ينبهر؛ لعظم تعجّبه من شهادة هذه العجائب على خالقها.

وهذا وأمثاله من الأسباب، مع الانهماك في الشهوات - وهي الّتي سدّت على

الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة، والسباحة في بحارها الواسعة، والجليّات إذا صارت مطلوبةً، صارت معتاصةً[١]- سدّ الأمر، فليتحقّق، ولذلك قيل:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحدٍ إلا على أكمه لا يعرف القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف استترا

وفي كلام سيّد الشهداء، أبي عبد الله الحسين - صلوات الله على جده وأبيه، وأمه وأخيه، وعليه وبنيه - ما يرشدك إلى هذا العيان، بل يغنيك عن هذا البيان، حيث قال في دعاء عرفة:

«كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتّى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتّى تحتاج إلى دليلٍ يدلّ عليك؟! ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك؟! عميت عينٌ لا تراك، ولا تزال عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيباً».

وقال عليه السلام أيضاً: **«تعرّفت لكلّ شيءٍ فما جهلك شيءٌ»**.

وقال عليه السلام: **«تعرّفت إليّ في كلّ شيءٍ، فرأيتك ظاهراً في كلّ شيءٍ، فأنت الظاهر لكلّ شيءٍ»**»[٢].

---

(١) اعتاص عليه الأمر: أي: التوى، منه رحمه الله.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج٦٤، ص ١٣٨- ١٤٢.

العبد والظاهر:

حريٌّ بالعبد – الّذي أدرك وجود الله تعالى، وظهوره في كلّ مكانٍ، وفي كلّ شيءٍ – أنْ يديم فكره، ويلقّن قلبه بهذه الحقيقة النورانيّة الّتي يترشّح منها الكثير من الفوائد الروحيّة والعمليّة، الّتي تتجلّى في سلوك الإنسان، وتصرّفاته، والّتي منها:

أ- التأدّب في محضر الله:

مِن أولى وأجلى ثمار تلك المعرفة أنْ يتأدّب الإنسان بآداب الأولياء، والعظماء، من ترك المحرّمات، وإتيان الواجبات، بل ترك المكروهات، والمواظبة على المستحبّات بنحوٍ دقيقٍ، ومن دون الإخلال بها قيد أنملةٍ؛ إذ أنَّ مراعاة الأدب بمحضر الكبار والعظماء هو ديدن العقلاء من سائر أجناس البشر، فإنّك تجدهم يراعون مقتضيات الأدب، ويبدون الاحترام عندما يكونون في محضر الكبار والعظماء، بل تجد أن الإنسان يراعي ذلك حتّى في محضر صديقٍ، أو حبيبٍ، حيث تجده يجتنب الأفعال المخالفة للشرع حياءً منهم، أو مخافة السقوط من أعينهم، بل تجد أنّه قد يحذر من مخالفة الشرع حتّى أمام الغرباء الّذين لا عهد له بهم، والّذين قد لا يراهم بعد ذلك الموقف غير الشرعيّ.

فكيف يجرؤ هذا العبد مِن مبارزة المولى المنعم، اللطيف، الرحمن، الرحيم، ويجعله أهون الناظرين والحاضرين، ألم يسمع – أو يقرأ – قوله تعالى له: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ

بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾[1]؟!

من المفارقة حقّاً أن تجد بعض الناس يتنزّه عن فعل القبيح، ويترك الذنب إذا رأى أنّ صبيّاً من الصبيان، أو حيواناً ينظر إليه، فيترك فعل القبيح، ولكنّك تجده لا يستحي من الخالق البارئ والمصوّر، فيأتي بتلك الأفعال القبيحة في محضره ﷻ.

إلهي: «فبئس العبد أنا لك، يا سيّدي، ومولاي: أنا الّذي لم أزل أسيء وتغفر لي، ولم أزل أتعرّض للبلاء وتعافيني، ولم أزل أتعرّض للهلكة وتنجيني، ولم أزل أضيّع في الليل والنهار في تقلّبي فتحفظني، فرفعت خسيستي، وأقلت عثرتي، وسترت عورتي، ولم تفضحني بسريرتي، ولم تنكس برأسي عند إخواني، بل سترت عليّ القبائح العظام، والفضائح الكبار، وأظهرت حسناتي القليلة الصغار؛ منّاً منك؛ وتفضّلاً؛ وإحساناً؛ وإنعاماً؛ واصطناعاً، ثمّ أمرتني فلم آتمر، وزجرتني فلم أنزجر، ولم أشكر نعمتك، ولم أقبل نصيحتك، ولم أؤدِّ حقّك، ولم أترك معاصيك، بل عصيتك بعيني، ولو شئت لأعميتني، فلم تفعل ذلك بي، وعصيتك بسمعي، ولو شئت لأصممتني، فلم تفعل ذلك بي، وعصيتك بيدي، ولو شئت – وعزّك – لكنعتني، فلم تفعل ذلك بي، وعصيتك برجلي، ولو شئت لجذمتني، فلم تفعل ذلك بي، وعصيتك بفرجي، ولو شئت عقمتني، فلم تفعل ذلك بي، وعصيتك بجميع جوارحي، ولم يكُ هذا جزاؤك منّي، فعفوك، عفوك، فها أنا ذا عبدك المقرّ بذنبي، الخاضع لك بذلّي، المستكين لك بجرمي، مقرٌّ لك بجنايتي، متضرّعٌ إليك، راجٍ لك في موقفي هذا، تائبٌ إليك من ذنوبي، ومن اقترافي، ومستغفرٌ لك من ظلمي لنفسي، راغبٌ إليك صفحةً

---

(١) سورة العلق: الآية ١٤.

في فكاك رقبتي من النار، مبتهلٌ إليك في العفو عن المعاصي»[(١)].

ب- الارتباط بالله في جميع الأمور:

مِن جملة أخلاقيّات العبد في هذا المقام هو الاتّصال الدائم والمستمر بساحة القُدُس، وطلب العون والمدد منه تعالى، إنّك تجد أنّ العقلاء يستغلّون الفرص واللحظات الّتي هم فيها مع العظماء والكبار، اللذين بأيديهم الحوائج، وتذليل الصعاب؛ ليعرضوا حاجاتهم بين أيديهم، فها هو الأوّل، والآخر، والظاهر، والباطن، والّذي هو بكلّ شيءٍ عليمٌ، يسمع دعاءك إذا دعوته، ويطّلع على مناجاتك إذا ناجيته، فاستغلّ الوقت قبل انتهائه، والفرصة قبل ذهابها؛ للاعتذار عمّا بدا منك في محضره، واطلب العون والمدد منه، واعتصم به لما هو آتٍ؛ لأنّه - سبحانه - نعم المولى، ونعم النصير، وقد أشار المولى لهذه الحقيقة قائلاً: ﴿...وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[(٢)].

وقد لبّى هذا النداء كلّ عظيمٍ وشريفٍ، من نبيٍّ، أو وصيٍّ، أو وليٍّ؛ لما في ذلك من السعادة الّتي لا مثيل لها في النشأتين، فناجوه في جوف الليل، وأطراف النهار، موقنين باستجابة الدعاء، وقضاء الحوائج، ففازوا بذلك، وخاب المتكاسلون الخاملون.

---

(١) مصباح المتهجد- الشيخ الطوسي، ص٦٩٣- ٦٩٤، دعاء للإمام علي بن الحسين عليه السلام في الموقف.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

ح- الارتباط بالدعاء:

تجد بوضوحٍ مدى اهتمام الأولياء والكمّل من البشر بالدعاء في جميع لحظات حياتهم، سواء كانوا في الملأ أو الخلوة؛ لعلمهم أنّه – تعالى – معهم في كلّ آنٍ آنٍ، وأينما كانوا، فاغتنموا الفرصة بذلك لطلب الحوائج، والنصرة، والتأييد، والسعادة في النشأتين، وخير شاهدٍ على ما نقوله هو ما تراه من الكمّ الهائل من الأدعية الواردة من أهل بيت العصمة والطهارة في جميع مجالات الحياة وأوقاتها، مستغلّين ومغتنمين وجوده ﷻ، وحضوره، وظهوره، فعرضوا عليه ﷻ حوائجهم الدنيويّة والأخرويّة، والمادّيّة منها والمعنويّة.

وها هو الإمام زين العابدين يغتنم هذه الفرصة في جوف الظلام، ونوم الأنام، فيطلب من ربّه، ويدعوه سبحانه؛ للفوز بالسعادة الأخرويّة؛ ودفع مكارهها عنه، قائلاً:

«أناجيك يا موجود في كلّ مكان، لعلّك تسمع ندائي، فقد عظم جرمي، وقلّ حيائي، مولاي، يا مولاي، أيّ الأهوال أتذكّر؟! وأيّها أنسى؟! ولو لم يكن إلا الموت لكفى، كيف وما بعد الموت أعظم وأدهى، يا مولاي، يا مولاي، حتّى متى، وإلى متى أقول: (لك العتبى) مرّةً بعد أخرى، ثمّ لا تجد عندي صدقاً ولا وفاءً؟! فياغوثاه، ثمّ واغوثاه بك يا الله، من هوى قد غلبني، ومن عدوٍّ قد استكلب عليّ، ومن دنيا قد تزيّنت لي، ومن نفسٍ أمّارةٍ بالسوء إلا ما رحم ربّي، مولاي، يا مولاي، إن كنت رحمت مثلي فارحمني، وإن كنت قبلت مثلي فاقبلني، يا قابل السحرة اقبلني، يا من لم أزل أتعرّف منه الحسنى، يا من يغذّيني بالنعم صباحاً ومساءً، ارحمني يوم آتيك

فرداً شاخصاً إليك بصري، مقلّداً عملي، قد تبرّء جميع الخلق منّي، نعم، وأبي، وأمّي، ومن كان له كدّي وسعيي، فإن لم ترحمني فمن يرحمني؟! ومن يؤنس في القبر وحشتي؟! ومن ينطق لساني إذا خلوت بعملي؟! وسألتني عما أنت أعلم به منّي، فإن قلت: (نعم)، فأين المهرب من عدلك؟! وإن قلت: (لم أفعل)، قلت: ألم أكن الشاهد عليك؟! فعفوك، عفوك، يا مولاي، قبل سرابيل القطران، عفوك، عفوك، يا مولاي، قبل جهنّم والنيران، عفوك، عفوك، يا مولاي، قبل أن تغلّ الأيدي إلى الأعناق، يا أرحم الراحمين، وخير الغافرين»[1].

---

(١) مصباح المتهجّد- الشيخ الطوسي، ص ١٦٣- ١٦٤.



العَلِيم

١- تجلّيات العليم.

٢- الدماغ، وأغشيته، والجمجمة، وفائدتها.

٣- الجفن وأشفاره.

٤- المخّ، والدم، والأظفار، والأذن، ولحم الإليتين، والفخذين.

٥- العبد والعليم.

٦- الانشغال بطلب العلم وتحصيله.

٧- الإخلاص في طلب العلم.

٨- العلم يهتف بالعمل.

٩- ذكر العليم.

العَلِيم

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾[4].

قال الشيخ الصدوق رحمه الله:

«العليم: معناه أنَّه عليمٌ بنفسه، عالمٌ بالسرائر، مطّلعٌ على الضمائر، لا يخفى

---

(١) سورة الحجر: الآية ٨٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٤) سورة يس: الآية ٨١.

عليه خافيةٌ، ولا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ، علم الأشياء قبل حدوثها، وبعد ما أحدثها، سرَّها، وعلانيتها، ظاهرها، وباطنها.

وفي علمه عَزَّوَجَلَّ بالأشياء - على خلاف علم الخلق - دليلٌ على أنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بخلافهم في جميع معانيهم، والله عالمٌ لذاته، والعالم من يصحّ منه الفعل المحكم المتقن، فلا يُقال: إنَّه يعلم الأشياء بعلمٍ، كما لا يثبت معه قديمٌ غيره، بل يُقال: إنّه ذاتٌ عالمةٌ، وهكذا يُقال في جميع صفات ذاته»[١].

وقال المولى المازندرانيّ:

«العليم: المحيط علمه بجميع الكائنات، فيعلم كيفيّة سوقها من كتم العدم إلى الوجود والظهور، ويعلم فروعها، وأصولها، وأجناسها، وفصولها، ولواحقها، وعوارضها، وخواصّها، ومنافعها، وأماكنها، ومواضعها، وطريق تميّز بعضها عن بعضٍ، وضمّ بعضها إلى بعضٍ، سبحان الّذي لا يخفى عليه شيءٌ في ملكه، ولا يعجزه شيءٌ عن أمره»[٢].

أقول: إنَّ (العليم) - وبكلّ اختصارٍ - يعني أنَّ الله تَعَالَىٰ قد أحاط بالأشياء كلّها، صغيرها، وكبيرها، إحاطةً علميّةً تامّةً، لا نظير له بها في جميع شؤونها على الإطلاق.

---

(١) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢٠١- ٢٠٢.

(٢) شرح أصول الكافي- مولى محمد صالح المازندراني ج ٤، ص٢٥٧.

تجلّيات العليم:

إنَّ من أجلى الصور الكاشفة عن علمه الفائق ﷻ - الّذي لا حدَّ له ولا مقدار على الإطلاق - هو التأمّل - ولو يسيراً- في عجائب خلق الكون، والإنسان، ومدى الإتقان والحكمة الفائقين الّذَين أودعهما الله ﷻ فيها، فيعرف الإنسان، وينكشف له بكلّ جلاءٍ ووضوحٍ مدى إحاطة علمه ﷻ، وسعة حكمته، وإليك ـ يا خليفة الله ـ بعض النماذج الّتي تعكس شيئاً من علمه ﷻ من خلال بيان بعض عجائب خلقة بدنك، يطرحها الإمام الصادق عليه السلام، لعلّك تنتبه، وتعود إلى رشدك، وتعبد ربّك.

الدماغ، وأغشيته، والجمجمة، وفائدتها:

«يا مفضّل، لو رأيت الدماغ إذا كُشف عنه لرأيته قد لُفَّ بحُجُبٍ بعضها فوق بعضٍ؛ لتصونه من الأعراض؛ وتمسكه فلا يضطرب، ولرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة؛ كيما تقيه[1] هدّ الصدمة والصكّة[2] الّتي ربما وقعت في الرأس، ثمّ قد جلّلت الجمجمة بالشعر، حتّى صارت بمنزلة الفرو للرأس، يستره من شدّة الحرّ والبرد، فمَنْ حصَّن الدماغ هذا التحصين إلا الّذي خلقه، وجعله ينبوع الحسّ والمستحقّ للحيطة والصيانة بعلوّ منزلته من البدن، وارتفاع درجته، وخطير مرتبته؟!»[3].

---

(١) في نسخة: يفته بدلا عن تقيه، ويفته: من الفتّ، وهو الكسر. من المصدر وكذلك الهوامش الآتية.

(٢) الصكة: الضرب الشديد واللطم.

(٣) التوحيد- المفضل بن عمر الجعفي، ص٢٧.

الجفن وأشفاره:

«تأمَّل - يا مفضَّل - الجفن على العين، كيف جُعل كالغشاء؟! والأشفار[١] كالانشراح[٢]، وأولجها[٣] في هذا الغار، وأظلّها بالحجاب، وما عليه من الشعر».

المخّ، والدم، والأظفار، والأذن، ولحم الإليتين، والفخذين:

«فكّر - يا مفضَّل - لِمَ صار المخّ الرقيق محصّناً في أنابيب العظام؟! وهل ذلك إلا ليحفظه ويصونه؟! لِمَ صار الدم السائل محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الظروف[٤]؟! إلا لتضبطه فلا يفيض؟! لِمَ صارت الأظفار على أطراف الأصابع إلا وقايةً لها، ومعونةً على العمل؟! لِمَ صار داخل الأذن ملتوياً كهيأة اللولب[٥] إلا ليطردّ فيه الصوت حتّى ينتهي إلى السمع، وليكسر حمّة الريح ينكأ في السمع؟! لِمَ حمل الإنسان على فخذيه وإليتيه اللحم إلا ليقيه من الأرض، فلا يتألّم من الجلوس عليها، كما يألم من نحل جسمه، وقلّ لحمه إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائلٌ يقيه صلابتها؟!»[٦].

---

(١) الأشفار: جمع شفر، وهو أصل منبت الشعر في الجفن.

(٢) الأشراح: العرى.

(٣) أولجها: أدخلها.

(٤) الظروف: جمع ظرف، وهو كلّ ما يستقر فيه غيره، ويغلب استعماله للقربة والسقاء.

(٥) اللولب: آلة من خشب أو حديد، ذات محور ذي دوائر ناتئة، وهو الذكر، أو داخله، وهو الأنثى، جمعه لوالب.

(٦) التوحيد- المفضل بن عمر الجعفي، ص ٢٨- ٣٠.

أيّها العزيز، إنَّ كلّ هذه الأمور – وغيرها – لمن أعظم الدلائل وضوحاً على مدى سعة علمه سبحانه، وأنّى لنا – نحن الجهّال، والضعفاء – بوصف سعة علم الله ﷻ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾[1].

العبد والعليم:

أمّا حظّ العبد من هذه الصفة المقدّسة الشريفة فيكون من خلال السعي الحثيث لنيل أعلى مراتب العلم والمعرفة قدر المستطاع، حيث بالعلم صار الإنسان وارثاً للأنبياء[2]، وأيّ منزلةٍ أشرف من هذه المنزلة؟! ولسبب العلم خلق الله تعالى السموات والأرض[3]، وبالعلم ينال الإنسان السعادة في النشأتين، وينال مقام

---

(١) سورة يس: الآية ٨١.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء؛ وذاك أن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً...» (الكافي- الشيخ الكليني ج ١، ح ٣٢،ح٢ باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء).

(٣) قال الشهيد الثاني: «اعلم أن الله – سبحانه – جعل العلم هو السبب الكلي لخلق هذا العالم العلوي والسفلي طراً، وكفى بذلك جلالة وفخراً، قال الله – تعالى – في محكم الكتاب تذكرة وتبصرة لأولي الألباب: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (سورة الطلاق: الآية ١٢). وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم... » (منية المريد: الشهيد الثاني: ٩٣، في فضل العلم من القرآن).

الشافعين[١].

إنّ العلم هبةٌ إلهيّةٌ لمن أحبّهم الله واجتباهم، فيقذف في قلوبهم نور المعرفة والعلم، فيذوقون من لذّة العلم ما لا تدركه عقول القاصرين والمحرومين أمثالنا[٢].

ويكفي طالب العلم فخراً واعتزازاً أنّ طالبه صار متّصفاً ومتخلّقاً بأخلاق الله تعالى، ومتحلّياً بجماله وكماله، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أوحى الله عزّ وجلّ إلى إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم، إنّي عليمٌ أحبّ كلّ عليمٍ**»[٣]، ولقداسة هذا الاسم وهذه الصفة تجد ملائكة السماء لتضع أجنحتها تحت أقدام طلاّب العلم؛ رضاً بفعله؛ وتجليلاً بمقامه وسعيه، وتنشغل بالاستغفار والدعاء له، وهو مشغولٌ بنفسه، بل كلّ ما في العالم ليستغفر له، ويدعوا له، ويصلّي ويترحّم عليه، حتّى الباري جلّ وعلا، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله، وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتّى النملة في حجرها، وحتّى الحوت ليصلّون على معلّم الناس الخير»[٤]. فأيّ مقامٍ أعظم وأشرف من مقام طلب العلم، والاتّصاف بالسميع العليم؟!

---

(١) عن الصادق عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ثلاثة يشفعون إلى الله يوم القيامة فيشفعهم: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء». (بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٩٧، ص ١٢، ح٢٤).

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام: «عبد الله، ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أولا من نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك». (مشكاة الأنوار- علي الطبرسي، ص٥٦٣).

(٣) المحجة البيضاء- الفيض الكاشاني ج١، ص ١٥.

(٤) سنن الترمذي- الترمذي ج ٤، ص ١٥٤.

الانشغال بطلب العلم وتحصيله:

من المؤسف والمخجل أنَّ أكثر المسلين لا يهتمّون بالجانب العلميّ في حياتهم مع كل هذا التأكيد الإسلاميّ والإلهيّ لمسألة طلب العلم، ففي الحديث الشريف: «**طلب العلم فريضةٌ على كلّ مسلمٍ...**»[١]، إنّ هذه مسألةٌ لا يجهلها أحدٌ، ومع ذلك لا أحد يعمل بها إلاّ القليل القليل.

إنَّ طلب العلم فريضةٌ على كلّ مسلمٍ، ومسلمةٍ، ومؤمنٍ، ومؤمنةٍ، إلاّ أنَّ طلاّب العلم على مراتب متعدّدة، تبدأ من التمحّض في طلب العلم، فيكون الإنسان طالب علمٍ، ورجل دينٍ، وبذلك يمتهن أشرف المهن والأعمال، وهي مهنة الأنبياء، والأوصياء، والهداة عليهم السلام، ويكون مصداقاً مِن مصاديق العاملين بوظائف الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[٢].

تلك مرتبةٌ إنْ لم يستطع الإنسان نيلها فعليه أنْ يطلب العلم ولو في بعض أوقات يومه، في الحوزات العلميّة، والمراكز الثقافيّة المنتشرة في البلاد، فما لم يدرك كلّه لا يترك كلّه.

وإنْ لم يوفّق كذلك لهذا الأمر الشريف، ومنعته الموانع مِن التحصيل الجزئيّ للعلم، فلا أقلّ مِن الاهتمام بقراءة الكتب الإسلاميّة؛ لتحصيل العلم الضروريّ

---

(١) وسائل الشيعة– الشيخ الحر العاملي ج ٢٧، ص٢٦، ح١٦.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٢.

بالمسائل العقائديّة، والفقهيّة، والأخلاقيّة، والاستفادة من وجود العلماء في مختلف أرجاء البلاد، وكذلك عبر الوسائل الحديثة للاتّصالات والشبكات المعلوماتيّة، وغير ذلك من الوسائل والآليّات المناسبة؛ للاستنارة بنور العلم الّذي به كان الإنسان إنساناً، وبذلك يخرج من وصف البهائم والعجماوات الّتي لا همّ لها إلاّ البطن والفرج.

وحتّى تكون لك همّةٌ عاليةٌ، وشوقٌ يرغّبك في طلب العلم أكثر، انظر فيما ورد من فضل العلم، واجعله نصب عينيك، وإليك بعض الروايات:

١- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مَنْ سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم؛ رضاً به، وإنّه ليستغفر لطالب العلم مَنْ في السماء، ومَنْ في الأرض، حتّى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً، ولا درهماً، ولكن ورّثوا العلم، فمَنْ أخذ منه أخذ بحظٍّ وافرٍ»**[1].

٢- عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«يا أبا ذرّ، مَنْ خرج مِنْ بيته يلتمس باباً من العلم كتب الله عزّ وجلّ له بكلّ قدمٍ ثواب نبيٍّ من الأنبياء، وأعطاه الله بكلّ حرفٍ يسمع أو يكتب مدينةً في الجنّة، وطالب العلم أحبّه الله، وأحبّه الملائكة، وأحبّه النبيّون، ولا يحبّ العلم إلا السعيد، فطوبى لطالب العلم يوم القيامة، ومن خرج من بيته يلتمس باباً من العلم كتب الله له بكلّ قدمٍ ثواب شهيدٍ من شهداء بدر، وطالب العلم حبيب الله، ومَنْ أحب العلم وجبت له الجنّة، ويصبح ويمسي في رضا الله، ولا يخرج من الدنيا حتّى يشرب من الكوثر، ويأكل من ثمرة الجنّة،**

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١، ص ١٦٤،ح٢.

ويكون في الجنّة رفيق خضرٍ عليه السلام، وهذا كلّه تحت هذه الآية: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[١]»[٢].

٣ – عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الناس اثنان، عالمٌ، ومتعلّمٌ، وسائر الناس همجٌ، والهمج في النار»[٣].

الإخلاص في طلب العلم:

من الواضح والجليّ أنَّ أوّل الناس مخاطبةً بالإخلاص هم العلماء، وطلاب العلم؛ لأنّهم أرادوا الاقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام، وأولى خصائصهم وصفاتهم عليهم السلام هي الإخلاص لله تعالى، إذ كانوا بإخلاصهم وسعيهم المنقطع النظير واسطة الارتباط بين الله – تعالى – وخلقه، فلو لم يعتنِ العالم والمتعلّم بهذا الجانب لكان – والعياذ بالله – الحجاب الكثيف بين الله – تعالى – وخلقه، وكان طريقاً إلى الدنيا والنار، بَدل أنْ يكون طريقاً وصراطاً للآخرة، والفوز بالجنّة، كما عن عليٍّ عليه السلام قال: **«إنَّ في جهنّم رحى تطحن، أفلا تسألوني ما طحنها؟!**

فقيل له: وما طحنها يا أمير المؤمنين؟

قال: العلماء الفَجَرة، والقرّاء الفَسَقة، والجبابرة الظلَمة، والوزراء الخونَة، والعرفاء

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٢) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ١، ص ١٧٨،ح ٦٠.

(٣) بحار الأنوار– العلامة المجلسي ج ١، ص ١٨٧،ح ٣.

الكذّبة...»[١].

وحيث إنّهم كانوا الطريق إلى النار فكانوا أحقّ بها من غيرهم، ولأنّهم كانوا طريق إهلاك الآخرين كانت الطاحونة آلةً لهلاكهم، أجارنا الله وإيّاكم من هذا الأمر.

وفيما أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى داود عليه السلام: «**لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدّك عن طريق محبّتي، فإنّ أولئك قطّاع طريق عبادي المريدين، إنّ أدنى ما أنا صانعٌ بهم أنْ أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم**»[٢].

واعلم - أيّها العزيز- أنّنا لم نذق حلاوة الإيمان والمناجاة مع أنيس النفوس إلاّ في حالاتٍ يسيرةٍ ونادرةٍ؛ ذلك لندرة الإخلاص في أعمالنا؛ وتوجّهنا إليه في أفعالنا، وفي هذه الرواية إشارةٌ واضحةٌ للسبب الرئيس من حرماننا لذّة المناجاة معه سبحانه.

والمصيبة العظمى أنّه لو كنّا ـ علاوةً على عدم الإخلاص ـ قطّاع الطريق للوصول إلى الله – تعالى- فتكون الكارثة أعظم، وأدهى، ولا يكون الخلاص منها إلا بالإخلاص، والالتجاء، والتوسُّل بساحة جوده وكرمه، بالبكاء على أعتاب لطفه، وسعة رحمته؛ فإنّه قريبٌ مجيبٌ، يجيب دعوة المضطرِّين.

العلم يهتف بالعمل:

وتبقى الإشارة إلى نقطةٍ هامّةٍ في هذا المقام، وهي أنَّ الهدف المنشود من العلم

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢، ص ١٠٧، ح٦.

(٢) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢، ص ١٠٧، ح٨.

والتعرّف على أحكام الله تعالى وقوانينه هو العمل به، فالعلم وسيلةٌ وطريقٌ للعمل به، وليس هدفاً ولا غايةً في ذاتها، وإلاّ نال الذمّ في النشأتين؛ إذ هو مِن قبيل الطبيب الّذي يعلم ما ينفع، وما يضرّ، ولم يعمل بعلمه، فأخذ يأكل، ويقتحم المحظورات، حتّى ابتُلِيَ بالأمراض المستعصية، فهلك، وأهلك من قلّده وتبعه، فلا تكون نتيجة أعماله إلاّ الحسرة والندامة الشديدتين؛ لما يرى نتيجة عدم اكتراثه بعلمه، ومعلوماته، وقد كان يمتلك وسائل النجاة والسعادة، ولكن هيهات أن تنفع الندم بعد ذلك.

وأمّا غيره من الجهّال فإنّه يعيش الندم والحسرة كذلك، ولكنّه أقلّ من ذلك، ويعتذر لنفسه، ويتذرّع لها أنّه كان جاهلاً غير عالمٍ، إلاّ أنّ هذه الذرائع والحجج سرعان ما تذوب أمام حُكم العقل وحِكَمه، فيسمع نداء العقل يقول له: لِمَ لمْ تتعلَّم؟! ألم تكن الفرصة متاحةً أمامك لتنال الخير، وتجتنّب الشرّ، وتقترب مِن المنافع، وتبتعد من المضارّ؟! فذُق نتيجة الإهمال والتسويف اليوم إلى أبد الآباد، وابكِ على نفسك اليوم، ولا نفع في البكاء والندم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال في كلامٍ له: «**العلماء رجلان، رجلٌ عالمٌ آخذٌ بعلمه، فهذا ناجٍ، وعالمٌ تاركٌ لعلمه، فهذا هالكٌ، وإنّ أهل النار ليتأذّون بريح العالم التارك لعلمه، وإنّ أشدّ أهل النار ندامةً وحسرةً رجلٌ دعا عبداً إلى الله عزّ وجلّ فاستجاب له، وقبل منه، وأطاع الله عزّ وجلّ، فأدخله الله الجنّة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه، واتّباعه الهوى.**

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم خصلتان، اتّباع

الهوى، وطول الأمل، أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وطول الأمل ينسي الآخرة»[١].

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٢].

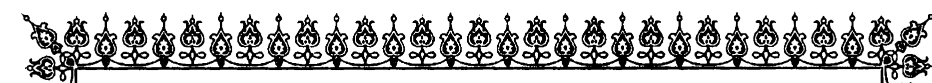
ذِكرُ العليم:

ينقل الشيخ الكفعميّ عن الشيخ رجب البُرسيّ في خواص العليم أنّه «يفتح المعارف على قلب ذاكره»[٣].

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٢، ص:١٠٦، ح٢.

(٢) سورة الزلزلة: الآيتان ٧،٨.

(٣) المصباح، الكفعمي، ص ٤٧٨.



الموضوع العشرون:

الحَلِيم

١- تجلّيات الحليم.

٢- سعة حلم الله.

٣- الرسول الكريم ﷺ والحلم.

٤- العبد والحليم.

٥- الحلم والتحلّم.

٦- طرق التحلّم.

٧- ذكر الحليم.

الحَليـم

قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

يقول الشيخ الصدوق رحمه الله:

«الحليم: معناه أنّه حليمٌ عمَّن عصاه، لا يعجل عليهم بعقوبته»[2].

وقيل: «الحليم: ذو الحلم، والصفح، والأناة، وهو: الّذي يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفة الأمر، ثمّ لا يسارع إلى الانتقام، مع غاية قدرته، ولا يستحقّ الصافح مع العجز اسم الحلم، إنَّما الحليم هو الصفوح مع القدرة»[3].

وقال الغزاليّ: «الحليم هو: الّذي يشاهد معصية العباد، ويرى مخالفة الأمر...، ثمّ لا يستفزه غضبٌ، ولا يعتريه غيظٌ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام، مع غاية الاقتدار عجلةً وطيشاً، كما قال تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ

---

(١) سورة التغابن: الآية ١٧.

(٢) التوحيد- الشيخ الصدوق، ص ٢٠٢.

(٣) المقام الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى- الكفعمي، ص ٤١.

بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[١]».

تجلّيات الحليم:

ما أعظم حلم الله على العباد! وأيّ قلمٍ - أو عقلٍ - يمكنه أنْ يفهم ذلك ويحيط به؟! إنّه لا يمكن لأحدٍ - حتّى العرفاء منهم - أن يحظوا بقطرةٍ من المحيط اللامتناهي من كمال حلمه، لولا التسديد الإلهيّ، ولا يخفى ما في التعبير من مسامحةٍ.

إنّه بحلمه العظيم يحلم علينا كأنّنا لم نعصه، ولو لا حلمه وعفوه لهلكنا ساعة المعصية والتجرّؤ عليه[٢]، بل إنّ حلمه ﷻ أوسع مِن ذلك، حيث يغذونا بالنعم والخيرات وكأننا لم نعصه، ونجترأ عليه ﷻ؛ وما ذلك إلا لأنَّ حلمه ورحمته قد سبقت غضبه وانتقامه، وإليك بعض الشواهد على ذلك:

١- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنَّ الله تبارك وتعالى أهبط ملكاً إلى الأرض، فلبث فيها دهراً طويلاً، ثمّ عرج إلى السماء، فقيل له: ما رأيت؟**

فقال: رأيت عجائب كثيرةً، وأعجب ما رأيت أنّي رأيت عبداً متقلّباً في نعمتك، يأكل رزقك، ويدّعي الربوبيّة، فعجبت من جرأته عليك، ومن حلمك عنه.

فقال الله عزّ وجلّ: فمن حلمي عجبت؟

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٥.

(٢) كما ورد في أدعية السحر في شهر رمضان للإمام زين العابدين عليه السلام: » والحمد لله الذي تحبب إلي وهو غني عني، والحمد لله الذي يحلم عني حتى كأني لا ذنب لي «. (إقبال الأعمال- السيد ابن طاووس الحسني ج ١، ص ١٥٧).

قال: نعم، يا ربّ.

قال: قد أمهلته أربع مائة سنة، لا يضرب عليه عرقٌ، ولا يريد من الدنيا شيئاً إلا ناله، ولا يتغيّر عليه فيها مطعمٌ ولا مشربٌ»[1].

ولكنّ الأسف - كلّ الأسف - أنّ هذا العبد يستغلّ حلم الله - تعالى- عليه، ولا يستحي من حلم بارئه وخالقه عليه.

٢- عن رسول الله صلى الله عليه وآله - في حديثٍ - قال: «إنّي نازلت ربّي في أمّتي، فقال لي: إنّ باب التوبة مفتوحٌ حتّى ينفخ في الصور، ثمّ أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: إنّه مَنْ تاب قبل موته بسنةٍ تاب الله عليه.

ثمّ قال: وإنّ السنة لكثيرٌ، مَنْ تاب قبل موته بشهرٍ تاب الله عليه.

ثمّ قال: وشهرٌ كثيرٌ، مَنْ تاب قبل موته بجمعةٍ تاب الله عليه.

ثمّ قال: وجمعةٌ كثيرٌ، مَنْ تاب قبل أنْ يموت بيومٍ تاب الله عليه.

ثمّ قال: ويومٌ كثيرٌ، مَنْ تاب قبل أنْ يموت بساعةٍ تاب الله عليه.

ثمّ قال: وساعةٌ كثيرةٌ، مَنْ تاب وقد بلغت نفسه هذه - وأومأ بيده إلى حلقه- تاب الله عليه»[2].

لاحظ ـ أيّها العزيزـ كم يحلم الله علينا، وكم يعفو عنا، وكأنّه لا يرى المعاصي

---

(١) الخصال- الشيخ الصدوق، ص ٤١- ٤٢، ح٣١.

(٢) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ٩٠- ٩١، ح١١.

والذنوب الّتي قد تمتدّ حتّى آخر لحظات الإنسان، بل قد تجده ﷻ ـ من حلمه ولطفه ـ يبدّل سيئات العبد إلى حسنات، إنْ أصلح العبد الأعمال، وتاب، وأناب، قال – تعالى – مشيراً إلى هذا الأمر: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1].

٣- فيما خاطب الله تعالى به موسى عليه السلام:

«يا موسى، انطلق برسالتي، وأنت بعيني، وسمعي، ومعك قوّتي، ونصرتي، بعثتك إلى خلقٍ ضعيفٍ من خلقي، بطر من نعمتي، وآمن مكري، وغرّته الدنيا، حتّى جحد حقّي، وأنكر ربوبيّتي، وزعم أنّه لا يعرفني، وعزّتي، وجلالي، لو لا الحجّة والعذر اللذان جعلتهما بيني وبين خلقي، لبطشت به بطشة جبّارٍ، تغضب لغضبه السماوات، والأرض، والبحار، والجبال، والشجر، والدوابّ، فلو أذنت للسماء لحصبته[2]، أو للأرض لابتلعته، أو للجبال لدكدكته، أو للبحار لغرّقته، ولكن هان عليّ، وصغر عندي، ووسعه حلمي، وأنا الغنيّ عنه، وعن جميع خلقي، وأنا خالق الغنيّ والفقير، لا غنيّ إلا من أغنيته، ولا فقير إلا من أفقرته، فبلّغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي، وتوحيدي، والإخلاص لي، وحذّره نقمتي، وبأسي، وذكّره أيّامي، وأعلمه أنّه لا يقوم لغضبي شيءٌ، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليّناً، لعلّه يتذكّر، أو يخشى، وكنّه في خطابك إيّاه، ولا يروِ عنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإنّ ناصيته

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٢) أي: رمته بالحصباء، من هامش المصدر.

بيدي، ولا يطرف، ولا ينطق، ولا يتنفّس، إلا بعلمي، وأخبره بأنّي إلى العفو والمغفرة أسرع إلى الغضب والعقوبة.

وقل له: أجب ربّك، فإنّه واسع المغفرة، قد أمهلك طول هذه المدّة وأنت في كلّها تدّعي الربوبيّة دونه، وتصدّ عن عبادته، وفي كلّ ذلك تمطر عليك السماء، وتنبت لك الأرض، ويلبسك العافية، ولو شاء لعاجلك بالنقمة، ولسلبك ما أعطاك، ولكنّه ذو حلمٍ عظيمٍ»[1].

سعة حلم الله:

أقول: ولسعة حلمه تعالى تجده يحلم علينا بكلّ ذريعةٍ ومناسبةٍ؛ وما ذلك إلاّ لحبّه لنا؛ وإرادة الخير لنا، فهو قد خلقنا للجنّة والسعادة، ولم يخلقنا للنار والعذاب حتّى يضيّق علينا الطرق والسبل، بل هو أرحم وأشفق وأحلم من الأمّ الحنون بولدها، وإليك بعض ما يدلّ على سعة حلمه، وكيف يبحث عن الذرائع والحجج البسيطة ليحلم ويعفو عنّا تعالى.

١- روي أنَّ آخر عبدٍ يؤمر به إلى النار، يلتفت فيقول: «يا ربّ، لم يكن هذا ظنّي بك.

فيقول الباري: ما كان ظنّك بي؟

قال: كان ظنّي بك أنْ تغفر لي خطيئتي، وتسكنني جنّتك.

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ١٣، ص ٦٢- ٦٣، ح٢١.

فيقول الله عزّوجلّ: يا ملائكتي، وعزّتي، وجلالي، وجودي، وكرمي، وارتفاعي في علوّي، ما ظنّ بي عبدي خيراً ساعةً قطّ، ولو ظنّ بي ساعةً خيراً ما روّعته بالنار، أجيزوا له كذبه، وأدخلوه الجنّة»(١).

٢- عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالا: «أيّما مؤمنٍ خرج إلى أخيه يزوره عارفاً بحقه، كتب الله له بكلّ خطوةٍ حسنةً، ومحيت عنه سيّئةً، ورفعت له درجةً، وإذا طرق الباب فتحت له أبواب السماء، فإذا التقيا، وتصافحا، وتعانقا، أقبل الله عليهما بوجهه، ثمّ باهى بهما الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبدَيّ، تزاورا، وتحابّا فيَّ، حقٌّ عليَّ ألا أعذّبهما بالنّار بعد هذا الموقف، فإذا انصرف شيَّعه الملائكة عدد نفسه، وخطاه، وكلامه، يحفظونه من بلاء الدنيا، وبوائق الآخرة، إلى مثل تلك الليلة من قابلٍ، فإنْ مات فيما بينهما أعفي من الحساب، وإنْ كان يعرف من حقّ الزائر ما عرفه الزائر مِنْ حقّ المزور كان له مثل أجره»(٢).

٣- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله ليوقف العبد بين يديه يوم القيامة، اسمه أحمد، أو محمّد، فيقول الله تعالى له: عبدي، أما استحيتني وأنت تعصيني واسمك اسم حبيبي محمّد؟! فينكّس العبد رأسه حياءً، ويقول: اللهم إنّي قد فعلت، فيقول الله عزّوجلّ: يا جبريل، خذ بيد عبدي، وأدخله الجنّة، فإنّي أستحي أن أعذّب بالنار من اسمه اسم حبيبي»(٣).

---

(١) فقه الرضا- علي بن بابويه، ص٣٦١.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص١٨٣- ١٨٤، ح١.

(٣) الغدير- الشيخ الأميني ج ٦، ص ٣١٠- ٣١١.

وما هذا النحو مِن العفو والحلم على العباد إلا لأنّه حليمٌ، يحبّ الحلم والعفو، قال تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[١].

الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه والحلم:

ما أكثر القصص المرويّة عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه في الحلم، إلا أنّني سأنقل لكم هذا الحديث الطويل - نسبيّاً -؛ لما فيه الكثير من الفوائد:

روي عن ابن عباس أنّه قال: «**خرج أعرابيٌّ من بني سليم يتبدّى في البرّيّة، فإذا هو بضبٍّ قد نفر من بين يديه، فسعى وراءه حتّى اصطاده، ثمّ جعله في كمّه، وأقبل يزدلف نحو النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه، فلمّا أنْ وقف بإزائه ناداه: يا محمّد، يا محمّد، وكان من أخلاق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه إذا قيل له: يا محمّد.**

قال: يا محمّد.

وإذا قيل له: يا أحمد.

قال: يا أحمد.

وإذا قيل له: يا أبا القاسم.

قال: يا أبا القاسم.

وإذا قيل له: يا رسول الله.

---

(١) سورة الحج: الآية ٥٩.

قال: لبّيك، وسعديك، وتهلّل وجهه، فلمّا أنْ ناداه الأعرابيّ: يا محمّد، يا محمّد.

قال له النبيّ: يا محمّد، يا محمّد.

قال له: أنت الساحر الكذّاب الّذي ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجةٍ هو أكذب منك؟! أنت الّذي تزعم أنّ لك في هذه الخضراء إلهاً بعث بك إلى الأسود والأبيض؟! واللات، والعزّى، لو لا أنّي أخاف أنَّ قومي يسمُّونني: (العجول) لضربتك بسيفي هذا ضربةً أقتلك بها، فأسود بك الأوّلين والآخرين.

فوثب إليه عمر بن الخطّاب ليبطش به.

فقال النبيّ ﷺ: اجلس يا أبا حفصٍ، فقد كاد الحليم أنْ يكون نبيّاً.

ثمّ التفت النبيّ ﷺ إلى الأعرابيّ، فقال له: يا أخا بني سليم، هكذا تفعل العرب؟! يتهجّمون علينا في مجالسنا؟! يجابهوننا بالكلام الغليظ؟!

يا أعرابيّ، والّذي بعثني بالحقّ نبيّاً إنَّ من ضربني في دار الدنيا هو غداً في النار يتلظّى.

يا أعرابيّ، والّذي بعثني بالحقّ نبيّاً إنَّ أهل السماء السابعة يسمّونني أحمد الصادق، يا أعرابيّ، أسلم تسلم من النار، يكون لك ما لنا، وعليك ما علينا، وتكون أخانا في الإسلام.

قال: فغضب الأعرابيّ، وقال: واللاّت والعزّى، لا أؤمن بك - يا محمّد - أو يؤمن هذا

الضبّ، ثمّ رمى بالضبّ عن كمّه، فلمّا أنْ وقع الضبّ على الأرض ولّى هارباً،

فناداه النبيّ ﷺ: أيّها الضبّ، أقبل إليَّ، فأقبل الضبّ ينظر إلى النبي ﷺ.

قال: فقال له النبيّ ﷺ: أيّها الضبّ، مَنْ أنا؟!

فإذا هو ينطق بلسانٍ فصيحٍ ذربٍ غير قطعٍ، فقال: أنت محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف.

فقال له النبيّ ﷺ: مَنْ تعبد؟!

قال: أعبد الله عزّوجلّ، الّذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، واتّخذ إبراهيم خليلاً، واصطفاك يا محمّد حبيباً، ثمّ أنشأ يقول:

ألا يا رسول الله إنّك صادقٌ   فبوركت مهديّاً وبوركت هاديا
شرعت لنا دين الحنيفة بعد ما   عبدنا كأمثال الحمير الطواغيا
فيا خير مدّعٍ ويا خير مرسلٍ   إلى الجنّ بعد الإنس لبّيك داعيا
ونحن أناسٌ من سليم وإننا   أتيناك نرجو أن ننال العواليا
أتيت ببرهانٍ من الله واضحٍ   فأصبحت فينا صادق القول زاكيا
فبوركت في الأحوال حيّاً وميّتاً   وبوركت مولوداً وبوركت ناشيا

قال: ثمّ أطبق على فم الضبّ، فلم يحرِ جواباً، فلمّا أنْ نظر الأعرابي إلى ذلك قال: واعجباً، ضبٌّ اصطدته مِنَ البرّيّة، ثمّ أتيت به في كمّي، لا يفقه، ولا ينقه، ولا يعقل، يكلّم محمّداً ﷺ بهذا الكلام؟! ويشهد له بهذه الشهادة؟! أنا لا أطلب أثراً بعد عينٍ، مُدّ يمينك، فأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّداً عبده، ورسوله، فأسلم الأعرابيّ، وحسن إسلامه.

ثمّ التفت النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أصحابه، فقال لهم: علّموا الأعرابيّ سوراً من القرآن، قال: فلمّا أن علم الأعرابيّ سوراً من القرآن قال له النبيّ صلى الله عليه وآله: هل لك شيءٌ من المال؟

قال: والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً، إنّا أربعة آلاف رجلٍ من بني سليم، ما فيهم أفقر منّي، ولا أقلّ مالاً.

ثمّ التفت النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أصحابه فقال لهم: مَنْ يحمل الأعرابيّ على ناقةٍ أضمن له على الله ناقةً من نوق الجنّة، قال: فوثب إليه سعد بن عبادة.

قال: فداك أبي وأمّي، عندي ناقةٌ حمراء، عشراء، وهي للأعرابيّ.

فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: يا سعد، تفخر علينا بناقتك؟!

ألا أصف لك الناقة الّتي نعطيكها بدلاً من ناقة الأعرابي؟!

فقال: بلى، فداك أبي وأمّي. فقال: يا سعد، ناقةٌ من ذهبٍ أحمر، وقوائمها من العنبر، ووبرها من الزعفران، وعيناها من ياقوتةٍ حمراء، وعنقها من الزبرجد الأخضر، وسنامها من الكافور الأشهب، وذقنها من الدر، وخطامها من اللؤلؤ الرطب، عليها قبّةٌ من درّةٍ بيضاء، يُرى باطنها من ظاهرها، وظاهرها من باطنها، تطير بك في الجنّة، ثمّ التفت النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أصحابه.

فقال لهم: مَنْ يتوّج الأعرابيّ أضمن له على الله تاج التقى.

قال: فوثب إليه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وقال: فداك أبي وأمّي، وما تاج التقى؟! فذكر من صفته.

قال: فنزع عليٌّ عليه السلام عمامته، فعمّم بها الأعرابيّ.

ثمّ التفت النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: مَنْ يزوّد الأعرابيّ، وأضمن لـه علـى الله عزّ وجلّ زاد التقوى.

قال: فوثب إليه سلمان الفارسيّ، فقال: فداك أبي وأمّي، وما زاد التقوى؟

قال: يا سلمان، إذا كان آخر يومٍ من الدنيا لقّنك الله عزّ وجلّ قول شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله، فإنْ أنت قلتها لقيتني، ولقيتك، وإنْ أنـت لم تقلـها لم تلقني، ولم ألقك أبداً.

قال: فمضى سلمان، حتّى طاف تسعة أبياتٍ من بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله، فلـم يجد عندهنّ شيئاً، فلمّا أنْ ولّى راجعاً نظر إلى حجرة فاطمة عليها السلام.

فقال: إنْ يكن خيرٌ فمن منزل فاطمة بنت محمّدٍ صلى الله عليه وآله، فقرع الباب، فأجابتـه من وراء الباب: من بالباب؟

فقال لها: أنا سلمان الفارسيّ.

فقالت له: يا سلمان، وما تشاء؟

فشرح قصّة الأعرابيّ والضبّ مع النبيّ صلى الله عليه وآله.

قالت له: يا سلمان، والّذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالحقّ نبيّاً، إنَّ لنا ثلاثاً ما طعمنا، وإنَّ الحسن والحسين قد اضطربا عليّ مِنْ شدّة الجـوع، ثمّ رقـدا كأنّهمـا فرخـان منتوفان، ولكن لا أردّ الخير إذا نزل الخير ببابي.

يا سلمان، خذ درعي هذا، ثم امضِ به إلى شمعون اليهوديّ، وقل له: تقول لك

فاطمة بنت محمّدٍ: أقرضني عليه صاعاً مِنْ تمرٍ، وصاعاً من شعيرٍ، أردّه عليك إن شاء الله تعالى.

قال: فأخذ سلمان الدرع، ثمّ أتى به إلى شمعون اليهوديّ.

فقال له: يا شمعون، هذا درع فاطمة بنت محمّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، تقول لك: أقرضني عليه صاعاً مِن تمرٍ، وصاعاً مِن شعيرٍ، أردّه عليك إن شاء الله.

قال: فأخذ شمعون الدرع، ثمّ جعل يقلّبه في كفّه، وعيناه تذرفان بالدموع، وهو يقول: يا سلمان، هذا هو الزهد في الدنيا، هذا الّذي أخبرنا به موسى بن عمران في التوراة، أنا أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمّداً عبده، ورسوله، فأسلم، وحسن إسلامه.

ثمّ دفع إلى سلمان صاعاً مِن تمرٍ، وصاعاً مِن شعيرٍ، فأتى به سلمان إلى فاطمة، فطحنته بيدها، واختبزته خبزاً، ثمّ أتت به إلى سلمان.

فقالت له: خذه، وامضِ به إلى النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

قال: فقال لها سلمان: يا فاطمة، خذي منه قرصاً تعلّلين به الحسن والحسين.

فقالت: يا سلمان، هذا شيءٌ أمضيناه لله عَزَّ وَجَلَّ، لسنا نأخذ منه شيئاً.

قال: فأخذه سلمان، فأتى به النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فلما نظر النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى سلمان قال له: يا سلمان، مِنْ أين لك هذا؟

قال: مِنْ منزل ابنتك فاطمة.

قال: وكان النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يطعم طعاماً منذ ثلاثٍ.

قال: فوثب النبيّ ﷺ حتّى ورد إلى حجرة فاطمة، فقرع الباب، وكان إذا قرع النبيّ ﷺ الباب لا يفتح له الباب إلا فاطمة، فلمّا أنْ فتحت له الباب نظر النبيّ ﷺ إلى صفار وجهها، وتغيّر حدقتيها، فقال لها: يا بنيّة، ما الّذي أراه من صفار وجهك، وتغيّر حدقتيك؟!

فقالت: يا أبه، إنّ لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً، وإنّ الحسن والحسين قد اضطربا عليّ مِنْ شدّة الجوع، ثمّ رقدا كأنّهما فرخان منتوفان.

قال: فأنبههما النبيّ ﷺ، فأخذ واحداً على فخذه الأيمن، والآخر على فخذه الأيسر، وأجلس فاطمة بين يديها، واعتنقها النبيّ ﷺ، ودخل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فاعتنق النبيّ ﷺ من ورائه، ثمّ رفع النبيّ ﷺ طرفه نحو السماء، فقال: إلهي، وسيّدي، ومولاي، هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيراً.

قال: ثمّ وثبت فاطمة بنت محمّدٍ ﷺ، حتّى دخلت إلى مخدعٍ لها، فصفّت قدميها، فصلّت ركعتين، ثمّ رفعت باطن كفّيها إلى السماء، وقالت:

إلهي، وسيّدي، هذا محمّدٌ نبيّك، وهذا عليٌّ ابن عمّ نبيّك، وهذان الحسن والحسين سبطا نبيّك، إلهي أنزل علينا مائدةً من السماء، كما أنزلتها على بني إسرائيل، أكلوا منها، وكفروا بها، اللهم أنزلها علينا، فإنّا بها مؤمنون.

قال ابن عباس: والله ما استتمّت الدعوة فإذا هي بصحفةٍ من ورائها يفور قتارها، وإذا قتارها أزكى من المسك الأذفر، فاحتضنتها، ثمّ أتت بها إلى النبيّ ﷺ، وعليّ، والحسن، والحسين، فلمّا أنْ نظر إليها عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال لها: يا

فاطمة، مِنْ أين لك هذا؟!

ولم يكن عَهِدَ عندها شيئاً.

فقال له النبيّ ﷺ: كُلْ يا أبا الحسن ولا تسأل، الحمد لله الّذي لم يمتني حتّى رزقني ولداً، مَثَلُها مَثَلُ مريم بنت عمران، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

قال: فأكل النبيّ ﷺ، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، وخرج النبيّ ﷺ.

وتزوّد الأعرابيّ، واستوى على راحلته، وأتى بني سليم - وهم يومئذٍ أربعة آلاف رجلٍ -، فلمّا أنْ وقف في وسطهم ناداهم بعلوّ صوته: قولوا لا إله إلا الله، محمّدٌ رسول الله.

قال: فلمّا سمعوا منه هذه المقالة أسرعوا إلى سيوفهم فجرّدوها.

ثمّ قالوا له: لقد صبوت إلى دين محمّدٍ الساحر الكذّاب؟!

فقال لهم: ما هو بساحرٍ، ولا كذّابٍ.

ثمّ قال: يا معشر بني سليم، إنّ إله محمّدٍ ﷺ خير إلهٍ، وإنّ محمّداً ﷺ خير نبيٍّ، أتيته جائعاً فأطعمني، وعارياً فكساني، وراجلاً فحملني، ثمّ شرح لهم قصّة الضبّ مع النبيّ ﷺ، وأنشدهم الشعر الّذي أنشد في النبيّ ﷺ.

ثمّ قال: يا معاشر بني سليم، أسلموا تسلموا من النار، فأسلم في ذلك اليوم أربعة

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

آلاف رجل، وهم أصحاب الرايات الخضر، وهم حول رسول الله صلى الله عليه وآله»[(١)].

العبد والحليم:

وأمّا نصيب العبد من هـذا الاسـم الشـريف فواضـحٌ لا يعتريـه سـتارٌ، إلا أنَّ الطريق والمنهج لنيل هذا الكمال، وتذليل الصعاب، والتخلُّق به قد يكون فيـه نحـوٌ من الإبهام والغموض، فسنسعى لبيان ذلك، والكشف عن ستاره، فنقول:

إنَّ أسهل وأيسر طريقٍ لنيل مكارم الأخلاق على الإطلاق - والّتي منها الحلم، وترك مذامّ الأخلاق، والّتي منها الغضب - هو التفكُّر والتأمُّـل في الآثـار الإيجابيّـة، والثمار الحسنة، الّتي يجنيها الإنسان مِن التخلُّق بصفةٍ من الصفات الكماليّة؛ لأنَّ ذلك يوجب ابتهاج النفس، وميلها للاتّصاف بها؛ لما يرى فيها مِن كمـالٍ وجمـالٍ؛ إذ هـو مفطورٌ على حبٍّ كلّ كمالٍ، والاتّصاف بصفات الجمـال، ثمّ إنَّ التأمّـل والتفكّـر في المضارّ الكامنة في رذائل الأخلاق، والمضادّة لصفات الكمال، والجمـال، يخلـق عنـده حالةً من النفور والكراهية؛ لما ينكشف له مِن العيوب والسلبيّات الكامنـة في ذلـك الفعل المنحطّ، وحيث إنَّ الإنسان مخلوقٌ من روحٍ طاهرةٍ، تراه يميل إلى الخير، ويفرّ مِن الشرّ والنقص، ولا يرغب في الرذيلة، وينفر عنها بطبعه، فيسـهل عليـه تحقيـق الغرض.

وخير منبّهٍ على ذلك هو ما تراه من استئناس وسرور كلّ إنسـانٍ إذا مدحتـه بصفة كمالٍ، وإنْ لم تكن فيه، وضيقه وانزعاجه مِن وصفه برذيلةٍ، وإنْ كانت فيـه؛

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٤٣، ص ٦٩- ٧٤، ح٦١.

وما ذلك إلاّ لأنَّه يحبّ الكمال؛ ويكره النقص والرذائل.

ونحن في هذا المقام سنشير إلى بعض ما ورد في مدح الحلم؛ ليُرغب فيه، ثمّ نعقّب بمضارّ ضدّه؛ لتنفر النفس منه، وبذلك نكون قد حققّنا الغرض، وسهّلنا الطريق للتحلّي بهذا الخلق، ورغّبنا في التخلّي عن ضدّه، ونجد أنّه من المناسب أوّلاً أنْ نعرّف الحلم، ومَنْ هو الحليم من خلال الروايات؟! حيث هو محور الحديث، ثمّ نشرع بذكر الروايات الواردة في مدح الحلم، وذمّ ضدّه.

في روايةٍ عن الإمام الحسن عليه السلام أنَّه سُئل: «**ما الحلم؟**

فقال عليه السلام: كظم الغيظ، وملك النفس»(١).

وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**ليس الحليم من عجز فهجم، وإذا قدر انتقم، إنَّما الحليم مَنْ إذا قدر عفا، وكان الحلم غالباً على أمره**»(٢).

وبعد هذا البيان المقتضب لتفسير الحلم والحليم، نشير إلى بعض الروايات الواردة في فضل التخلُّق به.

١- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كاد الحليم أنْ يكون نبيّاً**»(٣).

أقول: بل إنَّه من الأخلاق الممدوحة في كبار الأنبياء، كإبراهيم عليه السلام، وقد

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ٢، ص ٥١٦، ح ٤٣٤٧.

(٢) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ٢، ص ٥١٦، ح ٤٣٤٩.

(٣) كما في القصة السابقة. بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٤٣، ص ٦٩- ٧٤، ح ٦١.

امتدحه الباري بتحلّيه بالحلم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[(١)].

٢- عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كفى بالحلم ناصراً**»[(٢)].

إنّ مدعاة حبّ الآخرين لك هو عدم ردّ الإساءة بالإساءة، وكظم الغيظ، مع تمام القدرة على الردّ والانتقام، فإنَّ ذلك يوجب كسب حبّهم وتقديرهم لك، والانقياد تحت رايتك، فيكونوا مِن أنصارك بعد أنْ كانوا مِن أعدائك ومبغضيك.

رُوي أنَّ رجلاً مِنْ ولد عمر بن الخطّاب كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى عليه السلام، ويسبّه إذا رآه، ويشتم عليّاً.

فقال له بعض حاشيته يوماً: «**دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي، وزجرهم، وسأل عن العُمَريّ، فذُكِرَ أنّه يزرع بناحيةٍ من نواحي المدينة، فركب إليه، فوجده في مزرعةٍ له، فدخل المزرعة بحماره.**

فصاح به العُمَريّ: لا توطئ زرعنا، فتوطّأه عليه السلام بالحمار، حتّى وصل إليه، ونزل، وجلس عنده، وباسطه، وضاحكه.

وقال له: كم غرمت على زرعك هذا؟

قال: مائة دينار، قال: فكم ترجو أنْ تصيب؟

قال: لست أعلم الغيب.

---

(١) سورة هود: الآية ٧٥.

(٢) ميزان الحكمة، الشيخ محمد الري الشهري ج٢، ص ٥١٣- ٤٣١٠.

قال له: إنَّما قلت: كم ترجو أنْ يجيئك فيه؟

قال: أرجو أنْ يجئ مائتا دينار.

قال: فأخرج له أبو الحسن عليه السلام صرّةً فيها ثلاثمائة دينار، وقال هذا زرعك على حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو.

قال: فقام العُمَريّ، فقبَّل رأسه، وسأله أنْ يصفح عن فارطه، فتبسّم إليه أبو الحسن، وانصرف، وراح إلى المسجد، فوجد العُمَريّ جالساً، فلمّا نظر إليه قال العُمَريّ: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

فوثب أصحابه إليه، فقالوا له: ما قضيّتك؟

قد كنت تقول غير هذا! قال: فقال لهم: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام، فخاصموه، وخاصمهم، فلمّا رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الّذين سألوه في قتل العُمَريّ: أيّما كان خيراً؟! ما أردتم؟! أم ما أردت؟! إنّني أصلحت أمره بالمقدار الّذي عرفتم، وكفيت به شرَّه»[1].

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الحلم عشيرةٌ»، وعنه عليه السلام: «مَن حلم بعدوّه ظفر به»، وعنه عليه السلام: «السلم ثمرة الحلم»[2].

---

(١) بحار الأنوار- العلامة المجلسي ج ٤٨، ص ١٠٢- ١٠٣، ح٧. وكذا تاريخ بغداد- الخطيب البغدادي ج ٣١، ص ٣٠.

(٢) ميزان الحكمة، الشيخ محمد الري الشهري ج ٢، ص ٥١٢، ح٤٣٠٢. و ح ٤٣٣٨، و ح ٤٣٣٥.

ويكفي للمتخلّق بأخلاق الله – تعالى – همّةٌ، ورغبة معرفةٍ أنَّ الحلم من صفات الله – تعالى –، وخُلُق أنبيائه عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١)، وقال تعالى – واصفاً نبيّه إبراهيم عليه السلام –: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾(٢).

كما أنَّ الغضب وعدم الحلم من صفات الشيطان الرجيم، وخصال الفراعنة، والطواغيت، والمفسدين في الأرض، وإليك بعض ما يثبت ذلك.

١– متى قال الشيطان الرجيم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٣)؟

أليس حينما هيمن عليه الغضب، والحسد، وأراد الانتقام من الإنسان الّذي كان موضع امتحان إبليس به؟! وظهرت حقيقته الخبيثة المستعلية والمتكبّرة بعد أن أمره بالسجود للإنسان، فأبى، وغضب، فكان بذلك رجيماً ملعوناً.

فإيّاك ـ أيّها المؤمن ـ أنْ تعطيه الفرصة الّتي يتربّصها بك في أوقاتك وأفعالك كلّها، لا سيّما في حالة الغضب الّذي هو مفتاح كلّ شرٍّ(٤).

٢– إنّ ديدن الفراعنة والطواغيت عدم احتمالهم جريان الأمور على خلاف

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٠١.

(٢) سورة هود: الآية ٧٥.

(٣) سورة ص: الآيتان ٨٢،٨٣.

(٤) كما عن أبي عبد الله عليه السلام: «الغضب مفتاح كلّ شرّ». (الكافي – الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣٠٣، ح٣).

رغباتهم وميولهم، ولذا تجدهم سرعان ما يهيمن عليهم الغضب، وحبّ الانتقام ممّن يقف أمام رغباتهم وميولهم، فلاحظ - بدقّةٍ - الأفعال الانتقاميّة لفرعون، حينما رأى أنَّ كيده - وكيد السحرة - لم ينفع في إغواء الناس، بل كانت النتيجة عكسيّةً تماماً، وعلى خلاف مراده.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[1].

ولو تصفّحنا سجلّات أفعالنا وملفّاتها لرأينا أنفسنا - في كثيرٍ من الموارد - فراعنةً في خُلقنا، وتصرّفاتنا، ثمّ نبرّر لغضبنا بتبريراتٍ هي أوهى من بيت العنكبوت، لا يقبل بها الطفل الصغير، فضلاً عن العاقل الحكيم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١١٥- ١٢٧.

الحلم والتحلّم:

إنَّ الصفات الأخلاقيّة أكثرها اكتسابيّةٌ، تفتقر إلى الاكتساب، والتخلّق، والتمرّن، والتكلّف، والقليل منها تكون بنحو السجيّة الفطريّة لدى الإنسان، حيث نجد أنَّ القليل القليل مَنْ هم بطبعهم كُرماء، أو حُلماء، أو غير ذلك من الصفات الحسنة والنبيلة، لذا كان لزاماً على العقلاء، وأهل الإيمان، والمتخلِّقين بأخلاق الله ﷻ، السعي لنيل مكارم الأخلاق ومحاسنها، عن طريق التخلّق، والتمرّن، والتكلّف، وهذا من أهم أهداف بعثة الأنبياء، ولا سيّما نبيّنا العظيم ﷺ، الّذي بُعث ليتمِّم مكارم الأخلاق، ومِن هذا الباب تجد أن تلميذه البارّ، وباب مدينة علمه، يحثّنا على تتميم المكارم، لا سيّما فيما نحن بصدد الحديث عنه، وهو الحلم، فيقول: «**إنْ لم تكن حليماً فتحلَّم، فإنَّه قلّ مَن تشبّه بقومٍ إلا أوشك أنْ يكون منهم**»[1].

وقد قال ابن أبي الحديد في شرحه: «التحلّم: تكلّف الحلم، والّذي قاله عليه السلام صحيحٌ في مناهج الحكمة؛ وذلك لأنَّ من تشبّه بقومٍ، وتكلّف التخلّق بأخلاقهم، والتأدّب بآدابهم، واستمرّ على ذلك، ومرّن عليه الزمان الطويل، اكتسب رياضةً قويةً، وملكةً تامّةً، وصار ذلك التكلّف كالطبع له، وانتقل عن الخلق الأول، ألا ترى أنَّ الأعرابيّ الجلف الجافي إذا دخل المدن والقرى، وخالط أهلها، وطال مكثه فيهم، انتقل عن خلق الأعراب الّذي نشأ عليه، وتلطّف طبعه، وصار شبيهاً بساكني المدن، وكالأجنبيّ عن ساكني الوبر؟!

---

(١) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد ج١٩، ص ٢٧، الأصل:٢٠٣.

وهذا قد وجدناه في حيوانات أخرى غير البشر، كالبازيّ، والصقر، والفهد، الّتي تُراض حتّى تذلّ، وتأنس، وتترك طبعها القديم، بل قد شاهدناه في الأسد، وهو أبعد الحيوان من الأنس.

وذكر ابن الصابيّ أنَّ عضد الدولة بن بويه كانت له أسودٌ يصطاد بها كالفهود، فتمسكه عليه حتّى يدركه فيذكّيه، وهذا من العجائب الطريفة»(١).

طرق التحلّم:

هناك مجموعةٌ مِن الوسائل يستطيع الإنسان مِن خلالها أنْ يطفئ نار الغضب، والانتقام، والغيظ عن نفسه، فتكون طريقةً ووسيلةً لِمَن يريد أنْ يكون حليماً من خلال التحلُّم المستمرّ والجادّ، فمِن تلك الطرق والوسائل - المستفادة من خلال الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام - ما يلي:

١- **وكفه تكف**: عن إسحاق ابن عمّار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنَّ في التوراة مكتوباً: يا ابن آدم، اذكرني حين تغضب، أذكرك عند غضبي، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت بمظلمة فارضَ بانتصاري لك، فإنَّ انتصاري لك خيرٌ من انتصارك لنفسك**»(٢).

اجعل هذه الرواية نصب عينيك، حينما يثيرك الغضب، وحسّ الانتقام، واعلم أنّك كما تدين تدان، وما أحوجك لأنْ لا يُدينك الله تعالى بما فعلت من قبائح الأفعال

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣٠٤، ح١٠.

في محضره ووجوده، وقد أغضبته بتلك المعاصي، والذنوب الكبيرة، وأنت ترجو منه العفو والسماح، فإنْ شئت ذلك، فاحلم واعفُ عن خلقه، وكُفّ تُكْفَ، كما عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ كفَّ نفسه عن أعراض الناس أقالَ الله نفسه يوم القيامة، ومَنْ كفَّ غضبه عن الناس كفَّ الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة**»[1].

٢- **تغيير الوضع والمكان، أو ملامسة الرحم بعطف:** فعن الصادق جعفر بن محمّدٍ، عن أبيه عليه السلام أنّه ذُكِرَ عنده الغضب، فقال: «**إنَّ الرجل ليغضب حتّى ما يرضى أبداً، ويدخل بذلك النار، فأيّما رجلٍ غضب وهو قائمٌ فليجلس، فإنّه سيذهب عنه رجز الشيطان، وإنْ كان جالساً فليقم، وأيّما رجلٍ غضب على ذي رحمه فليقم إليه، وليدن منه، وليمسّه، فإنَّ الرحم إذا مسّت الرحم سكنت**»[2].

٣- **الوضوء يطفئ نار الغضب:** عن أبي وائل القاص قال: «دخلنا على عروة بن محمّد بن السعديّ، فكلّمه رجلٌ، فأغضبه، فقام فتوضّأ، ثمّ رجع وقد توضّأ، فقال: حدّثني أبي، عن جدّي عطيّة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ الغضب من الشيطان، وإنَّ الشيطان خُلِقَ من النار، وإنّما تُطْفَأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم**

---

(١) الكافي- الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣٠٥، ح١٤. ولمزيد من الروايات راجع، ميزان الحكمة ج ٧، ص ٢٣٧، باب الغضب «اتقِ غضب الله - تعالى - بكف غضبك». ومن جملة وصايا الرسول لعلي ابن أبي طالب: «يا علي لا تغضب، فإذا غضبت فاقعد، وتفكر في قدرة الرب على العباد، وحلمه عنهم، وإذا قيل لك: اتق الله فانبذ غضبك، وراجع حلمك». تحف العقول- ابن شعبة الحراني:١٤.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق، ص ٤٢٠، ح ٢٥.

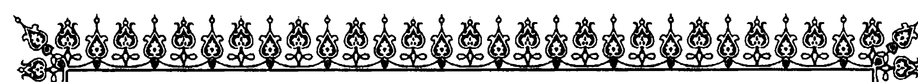
فليتوضّأ»»[١].

ذِكرُ الحليم:

وفي المصباح نقلاً عن البُرسيّ: «إنَّه ما ذكره خائفٌ إلا أمِن»[٢].

(١) سنن أبي داود– ابن الأشعث السجستاني ج ٢، ص ٤٣٤.

(٢) المصباح، الكفعمي، ص ٤٧٩.



الموضوع الواحد والعشرون:

الحَقّ

١- تجلّيات الحقّ.

أ- التشريع الحقّ.

ب- عظمة الخلق.

ج- دعوةٌ إلى الأخلاق الفاضلة.

٢- العبد والحقّ سبحانه.

أ- الاستغراق في الحقّ.

ب- نصرة الحقّ.

الحَقّ

قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٣].

الحقّ: ما يقابل الباطل.

والحقّ: هو ما ثبت وجوده، وتحقّقه، وكونه[٤].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١١٦.

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٤.

(٣) سورة طه: الآية ١١٤.

(٤) جاء في المقام الأسنى - للكفعمي: هو المتحقّق وجوده وكونه، وكلّ شيء تحقق وجوده وكونه فهو حقّ، ومنه: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ﴾ (سورة الحاقة:الآيتان: ١، ٢) أي: الكائنة حقاً لا شك في كونها، وقولهم: الجنة حقّ أي: كائنة، وكذلك النار.

والحقّ: الّذي هو من أسماء الله تعالى الحسنى، هو ثابت الجود، والتحقّق، والكون، الّذي لا يتصوّر أنْ يعتريه الباطل بوجهٍ من الوجوه، فهو الحقّ المطلق.

وأما قولنا إنَّه – سبحانه – الحقّ على الإطلاق؛ لأنَّ كلّ ما يمكن نعبّر عنه بشيءٍ فهو لا يخلو من أحد هذه الأمور الثلاثة:

١- ما يكون وجوده ممتنعاً مستحيلاً لذاته، فهو لا يمكن أنْ يكون أو يتحقّق، وهو الباطل والمعدوم لذاته وطبيعته، من قبيل اجتماع الضدّين، كأنْ يكون الشيء حارّاً وبارداً في وقتٍ واحدٍ، أو يكون أبيضَ وأسودَ كذلك.

٢- ما يكون وجوده واجباً وضرورياً لذاته ونفسه، ولا يمكن تصوّر عروض العدم عليه، واتّصافه به بنحوٍ من الأنحاء، وفي زمنٍ مِن الأزمان، وهذا الموجود هو الله ﷻ، وهو الحقّ المطلق الّذي يقابل الباطل المطلق.

٣- ما يكون وجوده لا مستحيلاً ولا واجباً لذاته وطبيعته، بل هو ممكن الوجود، فهو وإنْ كان معدوماً، ولكنّ له شأنيّة الوجود لو أفيضت عليه نعمة الوجود، ولو لا ذلك الفيض لكان باقياً على حاله من العدم والبطلان.

فهو باطلٌ من حيث إنَّه عدمٌ في أوّله، وحقٌّ من حيث إفاضة الحقّ ﷻ عليه نعمة الوجود، وهذا شأن كلّ الموجودات ما سوى الله ﷻ، فهي لم تكن موجودةً، فأفاض الحقّ ﷻ عليها نعمة الوجود والتحقّق، فاتّصفت بالحقّ والتحقّق، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي

الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[1].

فكلّ موجودٍ مخلوقٌ من حيث هو باطلٌ هالكٌ فقيرٌ إلى بارئه وخالقه في الوجود والاستمرار، لهذا قال الحقّ المتعال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وبهذا تعرف أنَّ الحقّ - بمعنى الكلمة - لا ينطبق إلا على الله ﷻ حقيقةً؛ لكمالاته الذاتيّة، وأمّا غيره فكماله مستمدٌّ منه، ومستعينٌ به، فيكون حقّاً بالعرض، لا بالأصالة والذات.

تجلّيات الحقّ:

أيّها العزيز، ليكن واضحاً لديك أنَّ حقّانيّة الحقّ ﷻ غير منحصرةٍ في نحو الوجود فقط، كما بيّناه - وإنْ كان ذلك من أبرزه - ، فإنَّ لحقّانيّته ﷻ صوراً كثيرةً تنبهر لها عقول وأفكار ذوي الألباب في جوانب عدّةٍ، نشير إلى بعض تلك الصور إشارةً خاطفةً:

أ- التشريع الحقّ:

إنَّ مِنْ أبرز صور عظمة الإسلام، والدين الحنيف، هو ما نراه من دقّةٍ فائقةٍ منقطعة النظير في عالم التشريع والتقنين الإلهيّ، فالشريعة تبيِّن للإنسان موقفه المناسب، وتكليفه الّذي يلائم فطرته، والمتناغم والمنسجم مع وضْعِه ومجتمعه، ومن

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٣.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٨.

خصوصيّات التشريع صلاحيّته لكلّ الأجيال والحضارات مع اختلاف اللغات والأفكار، والبعيد تمام البعد عن التناقض أو الانحراف عن الحقّ والواقعيّات، كلّ ذلك كاشفٌ عن أنّه حقٌّ، وصادرٌ من الحقّ ﷻ.

أمّا أولئك الّذين جابهوا الأنبياء والعلماء، وأرادوا أنْ يجعلوا لأنفسهم قانوناً يتعاطونه مِنْ أجل سعادتهم، مبتعدين عن وحي السماء، ورسالة الأنبياء، فإنّك تجد أنّ نتيجة سعيهم طيلة هذه السنين والقرون هو ما نراه اليوم، وهي عصارة فكر العالم المادّيّ، فلا أمن، ولا استقرار، وشيوع السرقات، والزنا، والشذوذ الجنسيّ، وأسلحة الدمار، وقتل الأبرياء، لا لشيءٍ سوى لأنَّهم أرادوا بعقولهم الضعيفة، وتجاربهم الخاطئة، أنْ يقنّنوا لحياةٍ أفضل.

وها هم يسعون ويسعون في تغيير الأحكام والقوانين بين حينٍ وآخر؛ لما يرونه مِن عدم جدوى تلك القوانين، والأحكام، والتجارب، وما ذلك الفشل الذريع إلاّ لأنَّهم لم يعرفوا حقيقة الإنسان، وعجزوا عن معرفة احتياجاته الضروريّة والكماليّة، ففشلوا في علاج مشاكل هذا الإنسان، بل زادوا الفشل فشلاً، والتعقيد تعقيداً، بعد تشخيصهم الخاطئ لواقع الإنسان وحقيقته، وأنّى لهم معرفة ذلك؟!

إنَّ نجاة البشريّة إنّما تكمن في الرجوع إلى الله ﷻ ورسوله الكريم ﷺ، مِن خلال التمسُّك بدينه الحقّ، وترك الباطل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٣.

وقال تعالى: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ب- عظمة الخلق:

ومِن مظاهر حقّانيّة الحقّ ﷻ هو الإبداع في الخلق، حيث أودع كلّ مخلوقٍ كلّ ما يحتاجه مِن الغرائز والأعضاء، بحيث تكون كفيلةً في أخذه إلى مرقاة كماله المنشود على الصعيدَين المادّيّ والمعنويّ.

وقد أشرنا مراراً وتكراراً إلى عجائب الخلق من خلال رواية المفضّل بن عمر، وسوف يأتي المزيد إن شاء الله ﷻ.

أمّا البشر فكلّ ما يصنعونه فهو ناقصٌ، يحتاج إلى إكمالٍ بعد إكمالٍ، لذا تجد أنَّ الاختراعات البشريّة ذات درجاتٍ ومراحل، وتأتي إضافاتٌ في المنتَج عاماً بعد عامٍ؛ لسدّ النقص والعيب في ذلك المنتَج الّذي لم يكن العيب ملحوظاً فيه، ولا معلوماً، أو غير ذلك، وهذا يكشف أنَّ هؤلاء ناقصون، فيتمّمون النقص مرحلةً بعد مرحلةٍ، ولذا لا يصدر من الناقص إلا الناقص، مهما ارتقى في العلم والتجربة.

أضف على ذلك أنَّ كلّ ما يستخدمونه في الصنع والابتكار هو في الواقع من النعم والودائع الربّانيّة الّتي خلقت لأجل تسيير أمور الإنسان ورخائه، ولا محيص لهم في كلّ صُنعٍ أنْ يستفيدوا منها.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١.

ج- دعوةٌ إلى الأخلاق الفاضلة:

إن نظرةً سريعةً إلى علم الأخلاق الإسلاميّ تضعك أمام أبعادٍ مفصليّةٍ لا يمكن للإنسان العاقل أن يتجاوزها، من الآفاق الّتي يفتحها عليك ذلك العالم من الكمالات الخُلُقية والمعنويّة الّتي تنتظر الإنسان، والّتي تتناسب تماماً مع معطيات العقل، وتتلاءم مع الفطرة، وطبيعة النفس البشريّة، بل إنّ نفوس العقلاء من ذوي الفطرة الطاهرة والزكيّة لتنشدُّ إلى التحقّق بتلك الملكات الأخلاقيّة، والكمالات المعنويّة، والاستزادة منها، والابتعاد عن الرذائل والقاذورات الروحيّة والنفسيّة، والنفور منها.

أيوجد عاقلٌ - أو طاهر الفكر والنفس - لا يحبّ أنْ يكون صادقاً؟! ولا يحبّ الصادقين؟! أرأيت إنساناً لا يحبّ الكرم والكرماء؟! والحلم والحُلماء؟! والأمانة والأمناء؟! أو الشجاعة والشجعان؟! والإحسان والمحسنين؟! والتقوى والمتّقين؟! والطهارة والطاهرين؟! والإيثار والمؤثِرين؟! والسِّلم والمسالمين؟!

كلّ تلك الصفات – وغيرها - امتدحها الله تعالى، وحثّ عباده على التخلّق بها، ونيل الحظّ منها؛ لما في ذلك من كمالٍ، وارتقاءٍ، وسعادةٍ، بل أمرهم أنْ يتخلّقوا بأخلاقه سبحانه، وهو غاية الكمال والسعادة الّتي لا ينالها إلاّ الأوحديّ من البشر، جعلنا الله تعالى منهم بلطفه وكرمه.

ثمّ انظر بتأمُّلٍ إلى أخلاق الأديان الأخرى الّتي لم ترتبط بوحي السماء، فإنْ كان فيهم شيءٌ من الفضائل فستجد أنَّ الشارع الأقدس قد سبقهم إليها، أو أمضاها، وإنْ كانت خلاف الشرع فإنْ تأمّلتها وجدتها بعيدةً عن العقل، والفطرة السليمة، وإنهَّا في خندق الباطل أقرب منه إلى خندق الحقّ، فلا حقّ على الإطلاق إلاّ ما

صدر مِن الحقّ المتعال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

العبد والحقّ سبحانه:

يمكن بيان دور العبد من هذه الصفة الإلهيّة الشريفة من عدّة جهاتٍ، نكتفي ببيان دورين وحظّين هامّين منها: الاستغراق في الحقّ، ونصرة الحقّ.

أ- الاستغراق في الحقّ:

إنّ مِن البديهيّات الّتي يركّز عليها العرفاء والأولياء هو ضرورة الانشغال عن الدنيا وما فيها، والتوجُّه إلى الله ﷻ، إذ بمقدار ما ينشغل الإنسان بذاته، وشؤونه، ومتعلّقاته الدنيويّة، ينشغل ويبتعد عن الله ﷻ.

فالعارف يعرف أنَّ ما سوى الله باطلٌ لا يستحقّ التفكُّر فيه، إمّا لأنَّه باطلٌ محضٌ، أو مِن وجهٍ - كما تقدّم في بداية الحديث في الحقّ -، فلا جرَم أنْ ينشغل

(١) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٢) سورة النور: الآية ٢١.

بالمولى الحقّ المطلق، والسعي بالاستزادة بأنواره القدسيّة، والاستفادة مِن فيوضاته المعنويّة، ولا يرى لنفسه إلا أنّها مرآةٌ لفعل الله ﷻ وإرادته، فلا يفعل، ولا يقول، ولا يتحرّك إلاّ في إرادة الله ﷻ، وجلب رضاه، والتقرّب منه أكثر فأكثر، فيكون بحقٍّ خليفة الله، وسفيره الّذي أراده في الأرض، حيث إنّ خليفة الملك - وكذلك سفيره- لا يفعل، ولا ينهى إلا طِبْقَ ميول ورغبات الملك، وهكذا ينبغي أنْ يكون العبد مع ربّه، فهو خليفة الله في أرضه، وسفيره.

وإنّ خير خليفةٍ لمولاه هو مَنْ لم يجد لنفسه وجوداً، أو أمراً، أو نهياً في قبال أمر المولى ونهيه، فيقدِّم نفسه - وما يملك من الكمالات، والامتيازات - لمعشوقه الحقيقيّ، وهو الله ﷻ، فينال بذلك رضا الله ﷻ عنه، ومباهاته به، والثناء عليه في عالمٍ خير من هذا العالم، وامتداحه في ملأٍ أشرف من هذا الملأ، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**إنّ أحبّ الخلق إلى الله - تعالى - الشابّ الحدث السنّ، في صورةٍ حسنةٍ، جعل شبابه وجماله لله، وفي طاعة الله، ذاك الّذي يباهي به الربّ ملائكته، يقول: هذا عبدي حقّاً**»[1].

وأمّا مَنْ انشغل بذاته عن معشوقه فإنّه مِن قبيل مَنْ انشغل وهو بمحضر المعشوق بزينة الدار، وما فيه من جمالٍ، وأثاث، غافلاً تمام الغفلة - هذا المسكين - أنّ هذا الوقت ليس وقت الالتفات والانشغال بأمورٍ تافهةٍ تفوِّتُ عليه فرصة الأنس بالمحبوب، وتجديد العهد واللقاء به.

فمضى وهو لم يحظَ بلقاء المحبوب والأنس به، وأخذه الندم، ولا نفع في الندم،

---

(١) الكامل- عبد الله بن عدي ج ٥، ص ٢١٠.

فالحذر أنْ تكون مثله.

ب- نصرة الحقّ:

إنَّ البشر مع حبّهم للحقّ وإعجابهم به، ومدحهم لِمَنْ يتخلَّق به، إلاّ أنَّهم - وللأسف الشديد - ليسوا معه في أكثر الأوقات، فهم إمَّا ضدّه في جبهة الباطل، أو - على أحسن تقديرٍ - يقفون على التلّ محايدين، ولكي نثبت لك ذلك نذكر هذه النماذج:

١- **استيحاش طريق الحقّ:** إنَّ أكثرنا يستوحش طريق الحقّ؛ لقلّة سالكيه، مع أنَّ مركز رحى الحقّ أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**أيّها الناس، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله**»[١].

وما ذلك إلا للأنس بالدنيا؛ مخافة خسارة بعض منافعها، وحرمان بعض لذّاتها، أو الأنس بالأكثريّة، ولعلّ الخير الكثير في مخالفتهم؛ إذ أنَّهم على الباطل وهم لا يعلمون، فكم ذمّ القرآن الكريم الكثرة الّتي تكون بعيدةً من منطق العقل، والحكمة، والحقّ، فإنَّك تزيدهم عدداً وسواداً بوقوفك معهم في معسكرهم، ألم تقرأ القرآن؟! كم كانت الأكثريّة مذمومةً عنده عزّ وجلّ؟! قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[٢].

---

(١) نهج البلاغة- محمد عبده ج ٢، ص ١٨١- ٢٠١. ومن كلام له عليه السلام: «أيّها الناس، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله».

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾[(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]، وغير ذلك من الآيات القرآنيّة الكثيرة الّتي تدلّ على المطلوب، وقد أعرضنا عن ذكرها؛ لكفاية ما عرضناه.

فعلى المؤمن التمسُّك بالحقّ، وإنْ كان مُرّاً.

٢- المداراة في الحقّ: من جملة كمالات الأولياء والأئمة عليهم السلام أنّهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، كما عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**فأنكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكُّوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائمٍ، فإنْ اتّعظوا إلى الحقّ رجعوا فلا سبيل عليهم، إنّما السبيل على الّذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحقّ، أولئك لهم عذابٌ أليمٌ، هنالك فجاهدوهم بأبدانكم، وابغضوهم بقلوبكم، غير طالبين سلطاناً، ولا باغين مالاً، ولا مرتدين بالظلم ظفراً، حتّى يفيؤوا إلى أمر الله ويمضوا على طاعته**»[(٤)].

٣- الحقّ النفعي: إنّ الكثير من العباد ليحبون الحقّ ما دام الحقّ يجرُّ نفعاً لهم،

---

(١) سورة الصافات: الآية ٧١.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٣.

(٣) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٤) وسائل الشيعة- الشيخ الحر العاملي ج ١٦، ص ١٣١، ح١.

ويكرهونه إنْ كان الحقّ عليهم، في حين أنّ الحقّ عالٍ لا يعلو عليه شيءٌ، رُوي عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «**قُل الحقَّ ولو على نفسك**»[(١)]، والرسول الأكرم يعبِّر عنه في حديثه: «**أتقى الناس مَنْ قال الحقّ فيما له وعليه**»[(٢)].

فالمتّقي الورع هو ذاك الّذي يفدي الحقّ، ويرغب فيه أينما وجده، بل هو ضالّته الّذي ينشده، ويبحث عنه، وأحبّ الناس إليه مَنْ يعينه للوصول إليه، كما عن الصادق عليه السلام: «**أحبّ إخواني إليَّ مَنْ أهدى عيوبي إليَّ**»[(٣)]، وحيث إنَّ العيب هو عبارةٌ عن الانحراف عن جادّة الكمال والحقّ، وإهداء العيب عبارةٌ عن إرجاعه إلى الحقّ والصراط المستقيم، وهي خدمةٌ عظيمةٌ يقدّمها الإنسان لأخيه، وشخصٌ كهذا ينبغي أنْ يكون محبوباً وعظيماً عندك؛ لبذله لك خدمة إرجاعك إلى الصراط المستقيم، وطريق الحقّ سبحانه، مع أنّه في غنىً عن ذلك كلّه، وقد أوقع نفسه في الحرج معك، والعناء من أجلك، فإنْ قدَّرته وعظّمته لذلك، فاعلم أنَّك من أرباب القلوب، أو ممّن يسعى أنْ يكون منهم، حيث إنّ ذلك مِنْ خُلُقهم، وسجاياهم، ومَنْ حذى حذوهم.

---

(١) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ٢، ص ٤٦٨، ح٤١٠٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ميزان الحكمة- الشيخ محمد الري الشهري ج ٧، ص ١٤٦، ح ١٤٣٨٤.

المُحتَوَياتْ

المُحتَويَاتْ